من يبيع مصر ؟ !

الدولة ، النخبة ، الكنيسة

د. رفيق حبيب

١٩٩٤

* تكوين غلاف السلسلة وتصميم شعارها للفنان حجازى
* رسم الغلاف : جميل شفيق
* سلسلة مصريات : ٤
* الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
القاهرة ص . ب : ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب
تليفون وفاكس : ٢٥٦٢٢٦٨
١٩ ش إسلام حمامات القبة - القاهرة - مصر
* عدد النسخ : ٢١٠٠ نسخة

* الصف : مصر العربية للنشر والتوزيع
* الطبعة الأولى ١٩٩٤

المحتويات

صفحة

إلى جمال حمدان ... راهب العلم

الذي مات ، فعرفنا أنه الحي ، ونحن الأموات ...

الذي علمنا ، أن الجسد يموت ، والضمير خالد ...

إلى الرمز الشامخ ، والدليل الحي ، لخلود القيم ...

إلى عاشق مصر ، ...... من أجل مصر

رفيق حبيب

مقدمة

في تلك اللحظات التي تعيشها الأمة العربية ، ومع تغييرات الكون السياسي المتسارعة ، وتلاحق الاحداث المباغته ، أصبح من الضروري أن نبطئ الخطى ونتوقف قليلا . ونفكر كثيرا . فلعل المشهد العربي ، ومنذ ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، يبدو لنا جميعا ، وكأنه مجرد فصل من مسرحية كوميدية سوداء . فمع غزو العراق للكويت ، ثم حرب تحرير الكويت ، ثم حرب تدمير العراق ، مع هذا كله ، وما جاء بعده ، نبدو كعرب كأننا قشة في موج السياسة العالمية الهادر .

ففي اللحظة التي سفك فيها الدم العربي ، بيد عربية ، وتشرد الألاف من العرب الذين هاجروا للعمل بالكويت والعراق ، في هذه اللحظة توقف العقل العربي عن التفكير ، وأصبح سلوكنا ليس الا إندفاعا وراء أي تيار يحملنا ، الى أي مصير نجهله . ولم تعد الكلمات التي عشناها ، وعاشت معنا ، ذات دلالة في حياتنا . فقد أصبح من الصعب علينا ، أن نؤكد أن هناك أمة للعرب ، أمة تجمع من يتحدثون العربية .

ليس حدث غزو العراق للكويت ، هو المسئول عن كل آلامنا ، ولا هو جوهر أزمتنا ، بقدر ما كان – ولايزال – الدليل الحي على ضياع وجودنا من الحياة ، ومن خريطة العالم . فكل المشاهد المتتالية بعد ذلك تؤكد اننا اصبحنا ، مجرد أشياء تتحرك طبقا لرغبة الآخرين ومن أجل مصالحهم .

وبعد حادثة الغزو ، تلاحقت الصور ، بدءا من الحماية الامريكية للخليج ، وتوقيع مصر لخطابات النوايا مع صندوق النقد الدولي ، وحتى اتفاق غزة – أريحا أولا ، أو ربما أخيرا . وكلها مشاهد تؤكد ان العقل العربي ، فقد تصوره عن المستقبل ، وفقد ارادة صنع المستقبل . ثم تتوالى الصور ، وتوضع دول عربية على قائمة الدول المساندة للارهاب ، وتعلق عضوية دول أخرى في نادي الارهاب الدولي . وتتوالى مطالب الغرب ، مقدما لنا حزمة جاهزة من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والمطلوب الاسراع بالتنفيذ ، والثمن المعروف هو المنح والقروض ، وخفض الديون وجدولتها ثم تطل علينا فكرة السوق الشرق أوسطية بمباركات

عربية ، واسهام من علماء ومفكرين عرب . ويصُبح علينا أن نسأل انفسنا ، الأن وليس غدا . هل نحن أمة عربية . أم أننا " أشياء " فى سوق الشرق الاوسط ، والتى تمثل إمتدادا وفرعا من السوق الرأسمالى العالمى .

إن ما يحدث اليوم ، يفترض اننا أمة بلا ذاكرة ، أمة بلا ماض ، فأقل القليل مما يحدث اليوم، كان يعد بالامس القريب جريمة وخيانة عظمى . أما الان ، فكل الامور تجرى بسرعة وبساطة ، ودون أن تثير فينا أى قدر من الغضب . وفى هذا الظرف ، أصبحت القلة الغاضبة فى موقف يجعلها ضمن مخلفات الحرب ، ولا يجوز عليها الا الرحمة . وباتت الكلمات التى كانت بالامس شعارا على علم ، تبدو اليوم وكأنها بلاهة ، أو هى فى أحسن الاحوال جزء مما يسمى الان بالظاهرة الصوتية العربية ، أى ظاهرة الكلام الاجوف والشعارات العمياء .

فى ذلك الخضم ، لم يبق للاجيال العربية الجديدة ، الا ان تتوه فى زحمة اللا معقول ، وتخرج فى النهاية مجرد جموع تجرى كى تعيش ، والطموح منها يجرى كى يحقق الثراء ، والكل يمكن قياس إتجاهه بمعيار الحاجات الاساسية والحاجات الاستفزازية الترفيهية . أما اذا بحثنا عن العقل العربى السياسى ، لدى شباب اليوم ، فلن نجد إلا فراغا وخواء ، أو غضبا وتمردا . وبعد أن كان الشباب جزءا من فاعليات التغير السياسى ، أصبح جزءا من مأساتنا ، وجزءا من المستقبل الذى يضيع منا . فالاجيال الجديدة ، هى فى التحليل الاخير ، نتاج اليوم والامس القريب ، وأكبر شاهد أدانة ضد الجيل الذى يحكم (١) .

نتصور – اذن – اننا امام مشهد حزين . وهو مشهد الجيش المهزوم ، عندما يباع اسراه فى سوق العبيد ، وتؤخذ نساؤه جوارى ، وتعد ثرواته من المغانم التى توزع على الاسياد والمنتصرين . ذلكم حال امتنا العربية ، وفى قلبها الذى لم يعد ينبض ، أمتنا المصرية .

ربما تبدو الصورة فى أغلب العيون ، سوداء وتشاؤمية ، أو تبدو غير واقعية . ففى زحمة ما يحدث تكيف الجميع ، أو معظمهم مع ملامح اليوم . وأصبح التكيف أفضل وسيلة للهروب من أى وقفة نقدية ، قد تفتح خزائن الاحزان . فالسياسى العربى ، تكيف مع واقعية سياسية ، تجعله قادرا على التعايش مع أى ظرف عالمى ، حتى وان كان ظرفا مهينا . والانسان العربى تكيف مع نظرة محدودة لواقعة ، قد لاتتجاوز حدود جسده ، وبات لايبالى بما يحدث . وكذلك فالانسان المصرى المطحون ، بات يلهث وراء الحياة ، حتى يعيش وحتى يظل موجودا فى الحياة. فلقد أصبح مجرد الوجود ، واستمرار الحياة اليومية ، معركة مستمرة ، تنسينا كل شئ ،

عن حالنا وأسبابها ، ولماذا ضاقت بنا الحياة ، وضقنا بها . فشعار اليوم ، وهوالشعار الوحيد المقبول ، ليس الا " عش ودع غيرك يعيش " ، وليس الا " الرخاء قادم ، والاموال قادمة " .

ببساطة أذن ، نحن امام حالة تؤكد تدهورنا الشديد على كل المستويات ، خاصة الاجتماعية والحضارية ، وكذلك السياسية والاقتصادية . ورغم صعوبة ما نعانية اليوم ، الا ان حالنا قد اقتصر على السعى الدؤوب للحصول على المال ، فى محاولة للابقاء على الحياة ، بمجرد البقاء ، ايا كان شكل الحياة ودلالتها .

وأمام ذلك الطوفان ، من الواقعية كما يسميها البعض ، والنفعية كمانفضل تسميتها ، علينا أن نتوقف ونراجع أنفسنا ، أو نسمح لبعضنا بهذه الوقفة . تلك هى صفحات الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ ، وقفة فى خضم الموج الهادر ، والانهيار السريع لامة العرب . وتلك الصفحات . هى خروج من دائرة النفعية اللحظية ، هى سباحة ضد التيار ، ترفض مبدأ تحقيق الفائدة العاجلة ، وتتجاوز النظرة الضيقة لمعالجة مشاكل الحاضر ، وتصرخ من أجل المستقبل.

إن الفيض الغامر من الهزائم ، التى نعيشها اليوم ، ولا نشعربها ، ولا نصرخ من الالم لدليل على فقدان احساسنا بالمرض ، فالالم ينذر بالخطر ، أما المريض الذى سكن احساسه بالالم ، فليس له الا انتظار الهجوم الاخير للمرض . قد نختلف ، فيرى البعض أنناللامام سائرون، وأن الرخاء قادم ، أو يرى البعض أن دخولنا فى العصر هو الحل ، والعصر حددتة معطيات الغرب وأفكاره .

قد نختلف والاختلاف ثراء ، ولكن يبقى علينا أن نجرب كل الاحتمالات ، وننفتح امام كل البدائل ، ونقيم تصورنا للمستقبل ، بحس لاتنقصه التضحية والنضال ، وعلينا فى النهايه الا نضحى بمستقبل أمتنا ، ولا أجيالنا القادمة ، ايا ما كان الثمن .

تلك هى المحاولة ، وهى صفحات هذا الكتاب ، انها تخرج من الحاضر ، لنتعلم من الماضى، ولاتهدف الا للمستقبل ، الذى يظل المعيار الاول ، والمنظور الذى يشكل وعينا بالحاضر والماضى معا . وان كان هاجس الشعور بالخطر هو المحرك ، وان كانت النظرة الصارمة هى المنهج ، فليس ذلك الا نتاجا لالاف الاشياء ، التى تعد اجزاء صغيرة لم تتجمع بعد ، وتشير بوضوح الى المأساة التى تنتظرنا فى المستقبل .

أن كل الخيوط تتجمع لتؤكد أن المنظومة الحضارية العربية تأخذ طريقها للافوال ، وتمحى من على خريطة العالم ، وتواجه تخطيطا محكما لتدميرها ، ولن يبقى لنا الا ان نعيش على

منظومة الغرب . ولا نتصور أن احدا يمكـن أن ينكـر هـذا التحـول الحضـارى الخطـير ، ولكـن البعض قد يرى فى التحول وسيلة لدخـول المسـتقبل ، ونحـن نـرى فيـه خروجـا مـن التـاريخ ، وضياعا من الجغرافيا (٢) .

والان ، وقبل أن تقرأ – عزيزى القارئ – عليك أن تعطى للصفحات مساحة فى العقـل ، وتحاول وتجرب الافكار والرؤى ، فالكتاب محاولة لرؤية جديـدة ، وهـى قديمـة فـى جذورهـا ، فعمقها التاريخ ، وجديدة فى زمانها ، فالحاضر يقتل كل ما تبقى من ذلك التـاريخ .

هى رؤية ، وهى عشق للتاريخ ، وايمان بالجغرافيـا ، وهـى محاولـة للخـروج الى المسـتقبل ، والخروج بالماضى ، وتجاوز أزمة الحاضر . وكل محاولة دعوة ، وهى ليست دعوة للتفكير فقـط، بل هى دعوة للجماهـير نفسـها ، كـى تصنـع مسـتقبلها ، وتحـدد اختيارهـا المصيرى ، وتحقـق وجودها فى الزمان والمكـان معـا .

رفيق حبيب

يناير ١٩٩٤

المشهد الأول

" ارض المعركة "

في لحظات معينة من التاريخ . نكـون امـام مفـترق طـرق ، أى أمـام لحظـة أختيـار صعب . وفى تلك اللحظة التاريخيـة ، يكـون علـى الأمـة أن تحـدد اختيارهـا التـاريخى ، الـذى يشكل لها مستقبلها القريب والبعيد . وأزعم اننا الان نعيش تلك اللحظة ، وأن اختيارات اليـوم وغدا ، ستحدد مستقبل الامة العربية فى القرن الحادى والعشرين .

واللحظة التاريخية تعنى – بالنسبة لنا – تلك اللحظة السابقة على حـدوث تغيـيرات كـبرى فى مسار التاريخ (١) . أى أننا نتصور أن حالنا الراهن – أيا كان تقييمنا له – لن يسـتمر ولـن نستطيع الارتكان الى ذلك الرهان حول استمرار الاوضاع كما هى ، وبالتالى لايجوز أن نختزل مواقفنا اليوم من الحياة ، فى قبول الحاضر بكل سلبياته وايجابياته .

وأتصور أن المستقبل القريب ، ومع الدخول فى القرن الحـادى والعشـرين ، يحمـل لنـا إمـا تدهور يقربنا من حالة الموت التـاريخى والحضـارى كأمـة للعـرب ، أو يحمـل لنـا بدايـة نهضتنـا والخروج من مأزق الانهيار الذى اسـتمر لعـده قـرون ، بعـد أفـول عصـر الامبراطوريـة العربيـة الاسلامية العظمى (٢) .

والحديث هنا ليس حديثا فى السياسة قصـرا ، ولكنـه حديـث فـى الحيـاة وعنهـا أساسـا . فالنهضة ، أو التخلف ، ليست حالة سياسية فقط ، بقدر ما هى حالـة مجتمعيـة عامـة . والاهـم من ذلك أن الشعب هو الذى يحقق النهضة ، لاالنظام السياسى ، أما الاخير فهـو إمـا أن يكـون حافزا للنهضة أو معيقا لها . ولكن عندما تظهر شرارة النهضـة ، فـإن التـاريخ يعلمنـا أن نهضـة الشعوب أقوى من كل العقبات ، وأنها قادرة على تجاوز كل المصاعب .

إذن نحن بصدد قضية احتماعية سياسية ، بكل ابعادها الحياتية ، وهى قضية تهم كل فـرد ، بل والاهم من ذلك ، هى فى الواقـع حديـث عـن انجـاز نتمنـاه ، لـن يحـدث الا بعـرق ملايـين

الشعب المصرى ، والعربى ، الذى يحمل بداخله تراثه وتاريخه وحضارته ، أى الذى يحمل الامل الحقيقى .

إن صح ذلك ، وكنا بصدد لحظة اختيار تاريخى ، بين الوصول بالتخلف الى أقصى مدى له، وبين تحقيق النهضة ، إن صح ذلك ، فأول ما نحتاجه فى تصورى ، هو رؤية جديدة ، تعيد تأصيل أحوالنا وظروفنا ، فى بناء فكرى اجتماعى وسياسى . أى أن البداية هى أن نرى الاماكن المظلمة ، وتلك المضيئة . والبداية هى أن نطرح رؤى جديدة تخرج عن وضعنا الراهن وتتجاوز مفاهيمنا التى تواكبت مع تخلفنا .

إن تشخيص الحالة الراهنة عمل شديد الاهمية ، حتى نكتشف أفاق المستقبل . ومن هذا التشخيص ، تصورنا ان اهم مشكلة نواجهها هى " الرؤية " ، وهى بتعبير أدق " البصيرة " . نعم ، لقد فقدنا البصيرة ، وفقدنا القدرة على رؤية أسباب تخلفنا ، بل أزعم اننا غالبا ما نشعر بتدهور حالنا ، ولكننا نعالج ذلك بوسائل من شأنها أن تزيد حالة تخلفنا ، لاأن تحقق لنا النهضة.

إن العقل العربى ، خاصة فى مجال الرؤية الاجتماعية ، والسياسية ، يعانى كثيرا ، ليس من عجزه أمام المشكلات الحادة التى نمر بها ، بل من فقدانه لذاته التاريخية والحضارية (٣) ، أى أنه لم يعد عقلا عربيا ، بقدر ما أصبح عقلا " للايجار " ، تستأجره او تستعبده ، أفكار ليست منه، ولا تعبر عنه ، ولاتحرره أو تنهضه ، بقدر ما تقضى عليه ، وتحاول مسح هويته .وأكثر من ذلك ، أتصور اننا امام محاولة مخططة ومنظمة للقضاء على صفة " العربى " حتى لايكون لها دور بعد الان . وهو ما يتواكب مع الحرب على صفة " الاسلامى " ايضا ، وهى حرب واحدة ، وهدفها واحد ، أن لا تكون هناك فى منطقتنا أمة قادرة على أن تقول كلمتها ، وعلى أن تقول للاخرين " لا".

واذا كنا نتكلم عن المحيط " العربى " ، وعن الامة " العربية الاسلامية " ، فنحن نتكلم عن تاريخ وحضارة ، وعن أمة متماسكة ومترابطة ، لايفك عراها الخلاف بين القوميين وغيرهم ، أو الاسلاميين والعلمانيين ، فتلك الامة ، هى أحد مشاهد التاريخ العظمى ، وهى ماض وحاضر ، وستكون المستقبل . أما الخلافات الاخرى ، فيجب أن تظل خلافا بين التعدد ، ولكن داخل انتماء واحد ، ومشترك واحد ، هو ذات هذه الامة ، وهو فى التحليل الاخير ، قيم هذه الامة . فمن حق اى جماعة أن تختلف حول رؤيتها السياسية والفكرية ، مع الجماعات

الاخرى ، ومن حق كل تيار أن يجدد رؤيته للنظام الامثل فى امة عربية ناهضة ، ولكن لااتصور أن نختلف على أهمية " النهضة " ، او على كوننا " أمة " .

الأزمة وتوابعها

يبقى زلزال ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ ، مجرد تميمة جديدة ، أو تعبير خاص ، يضاف الى قاموس أهالى مصر المحروسة ، وقد أتخذ الكثيرين من حادث الزلزال علامة على حالة الازمة ، وكأننا أستبدلنا تعبير " الازمة " ، بتعبير " الزلزال " . ويصيغ العقل المصرى لنا ، رؤية لاتخلو من السخرية ، ولا تخلو ايضا من البصيرة . فالصورة فى النهاية تؤكد اننا نمر بزلزال عنيف يمزق أوصال المجتمع ، ويحطم حاضره ، ويدمر مستقبله .

والازمة ، أو الزلزال ، هو الذى يدفعنا للشعور باننا امام لحظة تاريخية ، وأن المستقبل ليس لنا ، وعلينا أن نكافح ليكون لنا . ومصر من أمة العرب ، هى القلب الذى ينبض ، فتصل ضرباته الى كل ارجاء الامة العربية ، وعندما يتوقف هذا القلب عن النبض ، ويستكين للموت ، تحمل مصر فى صفحات التاريخ العربى ، ذنبا ليس بحجمها ، ولكن بحجم أمتها .

ودون تكرار لكلمات محفوظة ، فالامر فى النهاية ، هو أن موقع مصر وتكوينها ، جعلها بمثابة المحرك ، الذى اذا نهض ، لايمكن ان ينهض بمفرده ، فنهضته تجعل نهضة الامة بأسرها أكثر احتمالا ، من حدوث النهضة فى أى بلد عربى آخر ، وفى هذا ليس لمصر فخرا ، بل عليها واجب، ففى تأخرها ، يحمل شعبها وزر نفسه ، ووزر الامة العربية كلها .

اما الحديث عن الازمة ، وتوابعها ، فهو حديث سهل ، فكل وسائل الاعلام والتواصل ، تخبرنا كل يوم ، عن أزمتنا ، وكل فئات الصفوة والنخبة فى المجتمع ، يتحدثون عن الازمات التى نعيشها ، فمن نظام الحكم فى مصر ، حتى بسطائها فى القرى والاحياء الشعبية ، الكل يتحدث عن الازمات والمشكلات التى نمر بها . والاستنتاج البسيط ، اننا امام ازمة شاملة . وبتعبير الاقتصاديين ، فنحن امام ازمة هيكلية . والافضل ان نقول ، اننا امام ازمة حضارية شاملة (٤) ، هى فى واقعها تعنى حدوث تراجع فى مختلف أحوالنا وظروفنا ، جعلتنا امام حياة نعيشها دون ان نرضى عنها ، ودون ان نتكيف معها . وغالبا ، ما نرفضها جميعا ، ولكن

باساليب مختلفة . فهناك رفض يعبر عن نفسه بالصمت والسلبية ، وثاني بالاعتراض ، وثالث بالمطالبة بالاصلاح ، وعلى النقيض منهم من يعبر عن نفسه بحمل السلاح .

إذن ، نستنتج من حالة الرفض العام ، ومن شعورنا المستمر بوجود أزمات ، أن هناك خطأ جوهرياً فى حياتنا . وأتصور أن ذلك الخطا هو حضارى بالدرجة الاولى . فقد حدث انقطاع حضارى ، فتراجعت العناصر الفاعلة فى حضارتنا الى هامش الحياة (٥) . ولم تعد القيم والمبادئ والافكار الاساسية ، المعبرة عن حضارتنا ، تقوم بدور رئيسى فى حياتنا . وبمعنى آخر، لم تعد الاسلحة التى نملكها بحكم التاريخ والجغرافيا معا ، توظف من أجل حل المشاكل الحياتية اليومية ، او المشاكل المجتمعية العامة . فنحن الان لا نستخدم رصيدنا التراثى فى صناعة المستقبل. كما ان نمط حياتنا ونظامها الخاص ، ومصدر قوتنا وتماسكنا ، كلها اصبحت اشياء كانت توجد ، وهى الان على هامش حياتنا ، فلم يعد لها دور فى حماية هذه الحياة وصناعة مستقبلها . اننا اصبحنا كالمريض ، الذى يطلب معونة طبيب من دولة أخرى ، وفى الواقع لن تجد احدا يفنى نفسه من اجلك ، حتى تحقق النهضة . ان كل شعوب العالم تحقق نهضتها ، وترتفع بين الشعوب الاخرى ، من خلال تطوير تراثها القديم ، بابداع جديد ، محققة تميزها . والتميز ليس أى معنى قومى عنصرى ، ولكنه يعنى ببساطة ان نصيغ حياتنا باكثر الطرق الملائمة لنا ، والتى تمكننا من تحقيق الافضل ، مستخدمة فى ذلك ، اهم عناصر القوة التى تميزنا، فالشعوب تختلف فى مصادر قوتها الحضارية ، وتختلف فى معنى النهضة والتقدم ، بالنسبة لها.

ولكن فى غمار هذه الازمة ، نجد من يؤكد اننا على طريق التقدم ، وان المستقبل افضل . وهذا الاتجاه ، وعلى رأسه نظام الحكم فى مصر ، يؤكد ان الرخاء قادم ، وانه قادم بسبب اتباعنا الحرفى للاسلوب الغربى فى تحقيق التنمية الاقتصادية ، وهو فى جزء هام منه الاسلوب الذى يطالبنا الغرب باتباعه ، وليس دائما هو الاسلوب الذى اتبعه الغرب ، خاصة عندما نضع صوب اعيننا مراحل التطور التاريخى للتقدم الغربى ، وفتراته الزمنية (٦) .

والدراسة الحالية ، تناقش بإسلوب مباشر ، حلم الرخاء على النمط الغربى ، وحلم النهضة على النمط العربى ، من خلال تطبيق ذلك على بعض جوانب حياتنا المصرية . وتلك ليست مناقشة اكاديمية ، بل هى مناقشة تاريخية . فاى اختيار نختار ، يصنع لنا مستقبلا نعيشه ، والمستقبل لايمكن ان نهرب منه . اذن الخلاف ليس خلافا ترفيا ، ولكنه خلاف حول مصير الامة ومستقبلها . وهو قضية يجب على الشعب المصرى كله أن يشترك فيها بالفكر والعمل .

علامات الموت

نعني بهذا الموت الحضارى ، وعلاماته هى المؤشرات التىتدلنا على مدى الانهيار الحضارى الذى نعيشه بالتالى ، فإن قراءة الواقع ، لايجب ان تقتصر على المؤشرات الظاهرية ، مثل عدد الذين يقعون تحت خط الفقر (٧) ، ولكن يجب ان نتناول جملة المؤشرات الدالة على سلامة بناء المجتمع ، أو على تفككة وتحلله .

فى هذا المجال ، يمكن أن نسجل بعض المؤشرات التى نظن انها تشير الى تدهور وضعنا الحضارى ، أى التى تشير الى غياب البناء الحضارى المميز لنا والمنظم لحياتنا . ومن ذلك نلاحظ أن احوال المثقفين فى مصر ، تعد احد تلك المؤشرات الهامة . ليس فقط لاهميه المثقفين ، بإعتبارهم صفوة تقود الرأى العام ، ولكن لان عقل الامة هو اول ما يشير الى مستقبلها ، فالفكر والفن وغيرهما ، اول ما يحمل فى طياته ارهاصات المستقبل وملامحه .

والمتابع للكلمات التى تفرزها المطابع كل يوم ، يشهد بوضوح حيرة المثقف المصرى ، تلك الحيرة التى جعلته يتكلم دون أن يكون قادرا على التحكم فى المعانى ، أى دون أن يحدد ارادته وتوجهه نحو الحاضر والمستقبل . ان المثقف المصرى ، اصبح مجرد معلق على احداث تدور من حوله ، وعلى افكار ينتجها غيره . والاهم من ذلك ، يعترى المثقف المصرى حالة رفض ، فهو يرفض واقعنا ، وقديرفض هيمنة الغرب علينا ، وربما ينزعج من تبعيتنا الثقافية ، ولكنه حيال ذلك كله ، لايقدم الا افكارا تنتمى لذلك الواقع الذى يرفضه (٨) .

فالكثير من الذين يرفضون الهيمنه الغربية ، يقدمون فى النهاية رؤى غربية . بل ان البعض ، وفى معرض حديثة عن تلك " الهيمنه " يقدم بعض المبررات التى تجعل منها " هيمنة حتمية " ، وانها فى النهاية مجرد مظهر من مظاهر العصر .

لقد بات واضحا ، فى معظم ما يكتب ان هناك مفاهيم غربية ، اصبح لها من القدسية ، درجة تفوق ما لتراثنا من قدسية ، وكانها نوع جديد من الاصوليه ، أى التمسك الجامد بالاصول ، ولكم هذه المرة أصبح التمسك والجمود ، رهنا باصول " الأخر " .

والمشكلة لا تظهر بوضوح فى من تغربوا تماما ، وأصبح وعائهم الحضارى يأتى من الخارج، ولكن المشكلة الاهم فيمن يرفض هيمنة الاخر ، ولا يستطيع الا ان يفكر مثله . وربما تظهر الازمة اكبر فى بعض التيارات الرافضة بعنف للغرب ، ومنها التيار الاسلامى ، حيث نجد ان

البعض يقدم الفكر الاسلامى ، مؤكدا انه الحل الامثل ، من خلال عرض هذا الفكر على المعيار الغربى ، فإذا توافق معه ، أصبح ذلك دليلا على ملائمة الفكر الاسلامى للعصر(٩) . وأكثر من ذلك ، فان الصراع بين العلمانيين والاسلاميين ، يتجه احيانا لمناقشه درجة ملائمة كل منهما للعصر ، والعصر بالنسبة لنا ليس الا الغرب ، وفى ذلك استيراد مباشر للمعايير ، وكاننا لاننتمى لحضارة لها معاييرها وقيمها .

على الجانب الاخر ، نلمح فى معظم النخب والفئات التى تستفيد من نظامنا السياسى الحالى ، موقفا شديد السلبية تجاه هذا النظام . وهى سلبية من يرفض أن يكون شريكا لنظام الحكم فى المسئولية ، ولكنه يحصر علاقته مع النظام الحاكم فى محاولة الحصول على اكبر قدر ممكن من الاستفادة .

فالتحالف الحاكم ، وهو تحالف مصالح ، وهو امر مقبول فى السياسة ، تحالف هزيل ، فكل فئة تحسب منافعها ، دون ان تتحمل وزر السياسات الحالية . فنجد معظم المستفيدين يتعاملون مع نظام الحكم ، من خلال قبول مشروط ، يسمح لهم بتحقيق المنفعة ، ويسمح لهم- فى النهاية - بترك حمل المسئولية على الحكام . فنجد ان معظم رجال الاعمال على سبيل المثال، من الذين يؤيدون الحكم ، ولكن يرفضون اسلوبه واخطاءه ، ويقفون فى انتظار نجاح نظام الحكم فى تحقيق الرخاء (١٠) .

اما الطبقات الفقيرة فهى فئات رافضة ، وصامته ، وتترك الحكم يستمر ، وربما تؤيده بالاصوات احيانا ، وتتركه يمر بالامتحان حتى النهاية ، أى تتركة اما ينتصر فتصفق له ، واما لينهار فتنقلب عليه ، أو على بقاياه . وهو نموذج متكرر تاريخيا ، ويمثل اسلوبا نمطيا غالبا للشعب المصرى (١١) .

ولن نتكلم عن الجماعات المسلحة ، والتى تحولت فى الرؤية العامة لقلة منحرفة ، وجماعة ارهابية ، وهى فى الواقع العرض الاوضح لمظاهر الاختلال الحادثة فى حياتنا . ولكن الاعلام الرسمى يصر على اخفاء العرض ، وكانه بذلك ينجو من المرض ، مع ان خفض درجة حرارة المريض بالادوية والعقاقير ، لايعنى شفاءه . وكأن نظام الحكم يركز على اهمية استمراره فى المستقبل القريب ، ويترك امر المستقبل البعيد لمن سيعيشه .

أن تلك المظاهر ، مجرد مفاتيح اوليه ، يمكن ان نضيف عليها مظاهر التفكك التى تعمل فى المجتمع المصرى . وانهيار ابنيته الاساسية التاريخية . مثل تفكك الاسرة ، وتحلل المجتمع الى

جماعات فرعية ، وفقدانه للاطار الجامع للجماعة / الامة . وكل هذه الدلائل تبعث على الاعتقاد بان مظاهر الضيق والرفض ، ليست الا نتاج لخروج المجتمع عن " ذاته " ، وكذلك لتأخر المجتمع وتراجعة بين الامم . والامة التى تفقد ذاتها ، لن تكون امة قويه ناهضة ، من خلال تبنيها لمسخ من المفاهيم والممارسات التى تمارسها الامم الاخرى . بمعنى آخر ، فإن الامة التى لاتبدع ، ولكن تقلد فقط ، أمة ليس لها مكان فى تاريخ البشرية ، وليس لها اسهام يستفيد منه الاخرون . انها امة تعيش على امجاد الماضى ، هربا من مأساة الحاضر .

أن قوى المعارضة تمثل مساحة كبيرة فى حياتنا الثقافية والسياسية ، ولكنها معارضة ترفض نظام الحكم ، دون ان تحدد بالضرورة الطريق الذى تتصورة . ولعل كفاءة المعارضة الاساسية تظهر فى قدرتها على نقد نظام الحكم واظهار عيوبه ، أى أن الرفض يكشف عن نفسه فى تصور جيد . واصبح من السهل ان تعرف كل ما نرفضة فى حياتنا . ولكن الرفض يبقى باعتبارة خطوه اولى نحو تصور مستقبل جديد .

وهذا التصور الجديد ، يحتاج بعد ذلك لقوى اجتماعية تعبر عنه ، وتنادى به ، وايضا تنشره وتفرضه ، فتغير واقعنا ، وتخرجنا من أزمتنا (١٢) .

ولكن مع قوة ما نجده فى حجج المعارضين ، نلمح ضعفاً فى التصورات الجديدة ، التى تكتفى بالشعارات احيانا ، والتى تقدم تصورات ليست الا جزءا من واقعنا المرفوض . ومجمل الصورة تؤكد أن عقل الامة قد وقع اسير الواقع الذى يرفضه ، وأسير تصورات جاهزة ، لايستطيع الخروج منها ، ولا يتصور غيرها بديلا . واذا كان الفكر هو الخطوة الاولى نحو مستقبل جديد ، فإن عجز الفكر عن الابداع ، يهدر أى فرص جديدة ، ويبقى الرفض فى النهاية دليلا على الازمة .

الاستعباد بالكلمات

اذا كنا نتصور ان عقلنا وفكرنا الاجتماعي والسياسي ، لم يعد الا تعبيرا عن التقليد، دون ان يكون تعبيرا عن الابداع ، فلهذا اسباب ، اهمها دور الكلمات في حياتنا (١٣) . ان بعض الكلمات التي نرددها اليوم ، أصبحت تمثل اسوارا تقف امام اى محاولة للابداع ، واى محاولة لاكتشاف الذات . بل اكثر من هذا ، فنستطيع أن نؤكد اننا اسرى بعض الكلمات ، التي انبهرنا بها ، وصدقناها ، فاصبحت اهم وسيلة لاستعمار عقلنا . ومن هذه الكلمات ، بعض المصطلحات التي لايجرؤ احد على معارضتها ، أو رفضها ، لان ذلك سيؤدى الى اتهامه بالتخلف والرجعيه وغيرها من الاتهامات .

ففي تلك اللحظة ، سنجد المجتمع المصرى ، ومثقفيه يتحدثون عن التحديث والتقدم ، والليبرالية ، والديمقراطية ، والاصلاح الاقتصادى ، والتنميه . وهذه الكلمات تمثل معيار الحكم على الافكار ، وتمثل ايضا ميدان السباق بين المتنافسين . بل ان الجدال الدائر مع الاسلام السياسى ، يتركز حول رفضه او قبوله للديمقراطية ، ومن الجانب الاخر ، اصبح الكتاب الاسلاميين المعتدلين ، يقدموا أفكارهم على نفس المعيار ، مؤكدين العلاقة القوية بين الاسلام والديمقراطية (١٤) .

اما الاكثر طرافة من ذلك ، ان جماعات الرفض المسلح ، باتت تحدد موقفها من المجتمع وعلى نفس المعيار ايضا ، وبما انها تنادى بالثورة الشاملة ، والانقلاب المسلح ، لذا فهى تؤكد على ان الديمقراطية كفر . ووجه الطرافة هنا ، ان تلك الجماعات ، وكى تؤكد رفضها القاطع لاحوالنا ، اصبحت تبالغ فى رفض تلك الكلمات ووصفها بالكفر .

بهذا قسمت الحكومة المجتمع ، الى نظام يحكم ، وجماعات ارهابية ، ومن يقبل الديمقراطية ينتمى للفئة الاولى ، ومن يرفضها ينتمى للفئة الثانية . اما الاحتمال الثالث ، فهو ان تقبل الديمقراطية وترفض نظام الحكم ، بسبب الايمان بالديمقراطية الكاملة وغير المنقوصة . ولكن الاحتمال الضائع هنا ، هو ان ترفض الديمقراطية ، ولا تنتمى لاى فئة سابقة . ورفض الديمقراطية ، لايعنى انها كفر ، او انها فاسدة ، ولكن قد يعنى ببساطة ، انها فكرة تلاءم من صنعها وقد لاتصلح معنا . والمعنى الابسط ، لرفض تلك الكلمات ، هو الاعتقاد بوجود بدائل عديدة ، وافكار اخرى يمكن ابداعها ، وان الابداع هو خروج على القوالب ، لخلق قوالب

جديدة . والابداع يأتى عندما يخرج المفكر عن قوالب الماضى ، ثم يعيد احياء عناصر الماضى فى قوالب جديدة ، وبعناصر جديدة ايضا ، ولكن مشكلتنا الان ، ان البعض وقع اسير قوالب الماضى ، اما الاغلبية فوقعت اسيرة قوالب الآخرين .

وفى مجال الفكر السياسى ، يمكن ان نناقش قضايا التضامن الاجتماعى ، وتوسيع نطاق فاعليته المجتمع الأهلى ، وتوسيع دائرة المشاركة من أسفل الى أعلى ، وتعظيم مدى فاعليه الجماعات ، والجماعة / الأمة بالتالى ، فى خلق روح المجتمع ونظامه . والاهم من ذلك ، يمكن أن نناقش التنظيم الاجتماعى ، وعلاقته بالدولة ، وكيف يأتى هذا التنظيم تعبيرا عن جماع الامة ، وكيف يكون على الدولة أن تعبر عنه افضل تعبير . وعندما نناقش كل هذه الامور ، نكون بصدد مناقشه نفس المجال الذى يختص بمصطلح " الديمقراطية " ، ولكن من خلال عناصر وأشكال وأساليب أخرى ، لها علاقة موضوعية بأحوالنا ، وذواتنا الحضارية .

ببساطة ، ان خبرة احتكاكنا بالغرب ، تعلمنا أهمية تقنين مجال الفاعلية والحرية السياسية ، ولكن خبرتنا الخاصة ، تكشف لنا عن مجالات متعددة لاحداث هذا التقنين . فالحياة المعاصرة من التعقيد بحيث لايصلح معها الاساليب القديمة فى محاسبة " الحاكم الظالم " ، أو الاساليب القديمة فى التعبير عن رأى الأمة . لذلك يصبح التحديث هنا ، ليس تقليدا للديمقراطية الغربية، بل اجتهادا وجهدا جديدا للوصول لاشكال تحقق قيمنا ، وتحقق ما تعلمناه من تجربة الأخرين ، ولكن فى الصورة التى تحقق لنا النهضة .

أن التحديث ، هو الاجتهاد الجديد ، هو الثورة الفكرية ، ولكنه ليس اتباعا للنمط الغربى. بل أن مفهوم التحديث والحداثة ، وفى القرنين الماضيين ، أصبح من أهم الاسوار التى حطمت قدرتنا على الابداع ، وحطمت ذاتنا التاريخية . إن الغرب متقدم وناجح بمعياره هو ، وبمعيار الاسهام البشرى التاريخى ، وهذا يدفعنا كى نتعلم منه ، ثم نرجع لتراثنا لنخرجه من متحف التاريخ ، وهو موجود بداخلنا ، حنينا وميلا وتفضيلا ، وسنجد فيه قيما وافكارا ، يمكن أن نخرج منها بابداع جديد ننظم به شئون حياتنا ، فنخرج من قالب ماضينا ، وقالب الأخر .

وأذا كانت الصورة غير واضحة ، فعلينا أذا أن نتأمل الطبقة الشعبية المصرية ، فسنجد فيها الكثير من دروس التاريخ . فهذه الفئة المطحونة ، والتى تتمزق تحت انياب التحديث والتغريب والاصلاح الاقتصادى ، تقدم الكثير من الابداعات الحضارية الاصلية . ولكنها ابداعات هشة لم تصل لدرجة النضج ولم تصل لدرجة الانتشار الكامل فى المجتمع ، بل هى محصورة داخل

هذه الفئة ، وتمثل فى حد ذاتها رفضـا اجتماعيا ، للنمـاذج التـى اصبحـت سـائدة فـى المجتمـع المصـرى .

ومن داخل الطبقة الشعبية ، نلاحظ ان الاحداث الغريبة ، والتى تعبر عن " العصـر " ، تمثـل بالنسبة لهذة الفئـة ، زلـزال مدمـر ، يصعـق وجدانهـا . فـالحديث عـن الشـهامة ، والقواعـد الاجتماعية ، أصبح يجد طريقه بين الفئات الافقر ، وحتى الفن المصـرى ، يعبر عـن هـذه القيـم من خلال شخوص تنتمى للطبقات الافقر (١٥) . وفى داخل هـذه الفئـات ، نجـد أن الصـراع والتنافس والجريمة ، وغيرها من ملامح العصر ، تمثل صدمة حضارية عنيفـة .

والمقصود هنا ، أن هذه الفئات تملك التراث ، وتستخدمه باسلوب شعبى ، ولكنهـا تواجـه قوى تحاول محو هذا التراث ، واخـراج هـذه الفئـات الى حالـة مـن التحضـر ، والـذى ليـس الا التغرب . وعنـد هـذه النقطـة ، يمكـن أن نلاحـظ أعنـف صـور الصـراع والتحـول فـى المجتمـع المصرى، وعنـد الحـد الفـاصل بـين الـتراث بفقـراءه ، وبـين التغريـب بأثريـاءه ، سـنجد اعنـف موجات الرفض ، ومنها جماعات العنف المسلح . التى تمثل ، ضمن ما تمثـل ، لحظـات الصـراخ لذات حضارية تحتضر ، وهى تموت قتلا ، ويبقى الصراخ دفاعا من المقتول تجاه القـاتل . نعـم ، علينا ان نرفض العنف ، ونحقن الدماء فى وطننـا الأمـن ، ولكـن علينـا ايضـا أن نفهـم ونعـى ، معنى تلك الرصاصات وسببها ، فالألم الذى يحيق بـالوطن ، هـو إنـذار ممـا سـيحدث للوطـن . ولكن سياسات الحكم فى مصر ، أدمنت المسكنات ، وتركت المرض ينهش العظـام .

الخداع الموضوعى

حتى نستطيع أن نتحرر من القوالب ، ونعطى لعقولنا فرصة جديدة ، وحتى نصـل الى رؤى جديدة ، يصبح من المهم أن نحرر أنفسنا من اعنف حصار ضرب عليها ، ألاوهـو العلـم . ان من يتجرء اليوم ، ليهاجم العلم ، كمن يناطح طواحين الهواء . ولكـن الحقيقيـة غـير ذلـك . إن العلم الموضوعى ، يعنى تقنين وسائل المعرفة للوصـول الى تصـورات ترتبـط " بـالموضوع " ، ولا ترتبط " بالذات " العارفـة ، اى الوصـول الى حقـائق ترتبـط بموضـوع البحـث ، أكـثر مـن ارتباطها بالباحث الذى يجرى الدراسة . وهو ايضا ، اى العلم الموضوعى ، تقنين الوسـائل التـى تحقق عند استخدامها من قبل العديد من الباحثين ، الى الوصول لنفس الحقـائق " الموضوعيـة ".

ذلك العلم لا نرفضه ، ولا يرفضه احد . بل ان اهم ما يمكن ان نتعلمه من الغرب ، هو الوسائل والمناهج المختلفة لتطوير الوسائل العلمية ، والطرائق المنهجية . ولكن العلم الموضوعى ليس بحال من الاحوال ، ظاهرة عالمية ، بل هو ظاهرة حضارية ، ووظيفة مجتمعية (١٦) . ومن هنا يأتى الخداع الاعظم الذى وقعنا فى أسره ، واضاع فرص الابداع امام العقل العربى فأولا ، العلم ظاهرة حضارية . فالموضوعية العلمية ليست موضوعية عالمية ، خاصة عندما نتكلم عن العلوم الاجتماعية ، وحتى اذا تكلمنا عن العلوم الطبيعية . فالعلم هو مؤسسة اجتماعية ، تتشكل من اهل الاختصاص ، أى الجماعة العلمية ، وهذه المؤسسة تقوم بتقنين الوسائل التى تستخدم فى مجالات المعرفة المنظمة . والمؤسسة العلمية الاجتماعية ، أو جماعة العلماء ، تنتمى الى السياق الحضارى الذى تعمل بداخله . وهذا الانتماء الحضارى هو التحيز العلمى الاول ، أى المبدأ والاساس . فالعلم لايعمل خارج اطار الحضارة ، ولا يعمل على اسس علمية عالمية ، بل يعمل من خلال تحيزه الى مجموعة القيم والمبادئ التى تتشكل منها الحضارة . وبالتالى فهو ينتمى الى الحضارة ، ويعتبر قيمها بديهيات لاتقبل المناقشة .

وثانيا ، فالعلم يقوم بوظيفة اجتماعية ، تخص المجتمع الذى نشأ فيه وتشكل من خلاله . فالمؤسسة العلمية ليست مؤسسة علمية عالمية محايدة ، ولكنها مؤسسة اجتماعية ، ترتبط بمجتمع ما ، وتلتزم بالرؤية المستقبلية لهذا المجتمع .

والعلم الغربى ، نموذج لما تقدم فالعلم الغربى يخدم آله التصنيع ، وآله الرفاهية ، اى انه يخدم القيم الأساسية للحضارة الغربية . لذلك نجد علم الاقتصاد – على سبيل المثال – يؤدى بنا اما الى الرأسمالية الغربية ، او الاشتراكية الغربية . فالعلم نفسه ، آله من اجل تطوير تلك الآليات الغربية ، واذا استخدمنا مفاهيمه ونظرياته ، سنصل الى بدائل غربية فى النهاية ، وبمعنى ادق سنصل الى نتائج يؤدى تطبيقها الى تحقيق قيم الحضارة الغربية ، دون غيرها من القيم الحضارية الاخرى .

ومثال علم الاقتصاد ، نجده فى علم النفس ، وكلاهما يمثلان أشد صور التحيز الحضارى العلمى . فعلم النفس يرتكز اساسا على مقولة الانسان / الفرد ، ولا يعترف بوجود الانسان / الجماعة . ولذلك فان اسس علم النفس الامريكى (١٧) ، واسس علم النفس الروسى ، تعتمد على دراسة الفرد باعتبارة كائن بيولوجى متميز ، ينشأ ويتحدد بالعوامل البيولوجية اساسا . وعلم النفس فى النهاية يخدم الحضارة الفردية ، التى تعتمد على الفرد كعنصر وحيد ، يتشكل

منه جمـوع مـن الافـراد المتفرقـين ، ومـن خلالهـم يتحقـق التقـدم الآلى ، ويتحقـق لهـم الرفاهيـة الاسـتهلاكية .

ان ماقدمه الغرب من " علم " ، يمثل احد المجالات التى نتعلم منها ، وسنتعلم منها ، ولكـن عندمـا نمـارس " العلـم " ، يجـب ان نعيـد اكتشـاف قيمنـا اولا ، ثـم نؤسـس عليهـا مفـاهيم وتصورات علمية ، نستخدمها فى دراسـة واقعنـا . واذا عدنـا لمثـل علـم الاقتصـاد ، فـاذا كـان جوهره هو تراكم رأس المال ، فـأتصور أن جوهـره فـى حضارتنـا سـيكون التـوازن بـين الجهـد والعائد . واذا كان علم النفس يركز على وجود افـراد فـى مواجهـة نظـام المجتمـع " الدولـة " ، فإنه بالنسبة لنا يجب ان يركز على وجود جماعات تفاعليه داخل اطار الجماعة / الامـة .

إن هـذا المجـال ، يعنـى اننـا نحتـاج الى علـم عربـى (١٨) ، وان العلـم مجـال للتفـاعل بـين منجزات البشر ، ولكنه - كغيره - ليس مجالا لمحاكات شعب لاخر . وهذه القضيـة تحتـاج الى مزيد من الجهـد ، ويمكـن أن تكـون الخطـوة الأولى ، هـى إكتشـاف الحضـارات ، واكتشـاف جوهرها القيمى ، وهو مايساعد على " فك " التحيز الحضـارى الغربـى للعلـم ، و " تكويـن " التحيز الحضارى العربى ، لممارستنا العلميـة .

وبعد ***

سنحاول فى الصفحات القليلة القادمة ، الابحار فى تلك القضية الشائكة ، ألا وهـى إعـادة انتاج الإنسان الغربى فى البيئة المصرية ، باعتبارها الاسلوب المتبع لاعاده استعمار مصر ، العقـل والوجدان والشعب . فنحن بصدد عمليه منظمة لخلق أشكال ممسوخة ومقلدة للانسان الغربى ، على مستوى عالمى ، حتى يصبح العالم المتخلف ، مجرد أشكال مقلدة تابعة للعالم المتقدم .

إن جوهر هذه العمليه ، يفوق كل ما حدث فى الماضى ، فهى ليست استعمارا عسـكريا ، وليست استعمارا اقتصاديا ، ولكنها عمليه كبرى " لغسيل المخ " ، تهدف الى إستعمار العقل، واعـادة زرع القيـم الغربيـة ، حتـى تنتهـى صراعـات المصـالح ، وصراعـات الأيديولوجيـة ، وصراعات القيم ، ولا يبقى فى العالم غير الغربى ، الانماذج هشه ضعيفة تتجه بسبب ضعفها الى الانبهار اللامحدود بالغرب القوى ، فتتلقى منه النماذج الحياتية ، والقيم والمعايير ، وتتبع ارادته ، بعد أن سلبت ارادتها بالكامل .

أتصور ، ان عمليه تغريب العالم (١٩) ، التى تحدث الان ، سوف تسجل فى التاريخ ، بإعتبارها أكبر عملية للتطهير الحضارى ، حيث ستؤدى فى النهاية ، اذا نجحت ، الى سحق النماذج الحضارية لمختلف الجماعات البشرية ، ابقاء للنموذج الحضارى الغربى . اننا بصدد الإستعمار فى أعلى درجاته ، وهواستعمار حضارى ، أى استعمار قيم حضارة لقيم كل الحضارات . حتى يصبح العالم قرية صغيرة ، مشكله على النموذج الغربى ، وكل أطرافها من النماذج المقلدة الهشة ، ومركزها هو النموذج الاصيل ، والنموذج الاصل .

ولكن التاريخ يؤكد ، أن مثل هذه المحاولات تفشل . فالكل يحلم بحكم العالم ، ولكن حكم العالم ، لايحدث الا كلحظة تشهد أكبر درجات القوة ، ويعقبها لحظة الانهيار . والغرب الذى يعمل على تكوين نظام عالمى جديد ، من خلال المركز الامريكى ، والقوة الاوربية ، يعانى اليوم من لحظات ضعفه الداخلى ممزوجه بأكثر لحظات النشوة والانتصار . ولكن اذا كانت عمليه التطهير الحضارى ، لايمكن أن تتحقق بالكامل ، ومن خلال منظور تاريخى ، إلا اننا لايجب ان نقف فى انتظار انهيار الغرب . بل ان قضيتنا الاساسية لايجب ان تدور حول إحتمال إستمرار القوة الامريكية ، أو أحتمال انهيارها . فالرهان الحقيقى ، هو ان ننهض مؤكدين على عالم التعدد الحضارى ، والندية الحضارية ، فى مواجهة قوى التطهير الحضارى . فقضيتنا بداخلنا اساسا ، فهل نقبل ان نكون نماذج مقلدة وممسوخة للانسان الغربى ، أم نرفض ذلك ؟ وهل نقبل ذلك فى سبيل فتات الموائد ، أو الرخاء النسبى ، مع استمرارنا كشريحة لفقراء العالم ؟ !

إن التقسيم الطبقى ، كان جزء من عمليه التصنيع الغربى ، فهو ليس أمرا حتميا فى صورته التقليدية ، ولكنه مواكب لعملية التصنيع والتحديث كما حدث فى الغرب (٢٠) ، وهذا النموذج صراعى فى جوهره ، والرأسمالية العالمية تجدد نفسها ، بتصدير صراعها ، فهى استعمارية بالضرورة . وهى الان تصدر نموذجها ، وصراعاتها ، وفقرها ، لتعيد تشكيل العالم ، وكأنه محميه أمريكية ، تمثل فيه أمريكا وأوربا أغنياء العالم ، وتمثل التوابع المميزة مثل اليابان (٢١) ، جزء من أغنياءه ، أو تمثل الطبقة الوسطى ، أذا كان المعيار هو الغنى والقوة معا ، ونبقى نحن ممثلين لطبقة الفقراء . وأذا تصور أحد أن النهاية ستكون عالم من الدول المتقدمة الغنية ، فهذا وهم . فالرأسمالية تجدد نفسها بوجود فئات جديدة تستغلها ، وهى تبدأ بالاستغلال الداخلى ، ثم الإستغلال الخارجى ، ثم تتوسع فى حيز المستغلين دولا وشعوبا .

فماذا نريد لانفسنا ؟ سيظل السؤال معنا سنوات قادمة . وسيظل كل المعترضين على أحوالنا ، موصومين بالتخلف والغوغائية ، وسيحمل لنا المستقبل إجابته فى النهاية ، عندما يخرج الجميع بلا غنائم ، وعندما يعرف المتنازلين دائما ، أن التنازل بلا ثمن ، وعندها إما سيبقى لنا جيل أو فئة حاربت من أجل المستقبل ، أو سنبقى جميعا مدانين بحكم التاريخ .

هى بالفعل قضية شائكة ، ومعركة لها ثمنها ، ولكن علينا أن نضبط إيقاع التفكير ، فنحدد معيار الحكم . فمن وجهة نظرنا ، لن يكون المعيار إلا المستقبل ، فأى طريق يحقق للمجتمع ، وللأمة بأسرها ، المكانة ووالرضاء والسلامة الإجتماعية ، وحب الشعب لحياته ، ورضاءه عن مصيره ، وتكيفة مع ظروفه ، وغيرها من العلامات ، التى يمكن انجازها فى أمة سليمة العقل والوجدان ، أى طريق يحقق هذا هو معيار إختيارنا . وفى أمة مثل أمتنا ، يصبح تحقيق الرضا والسلام الإجتماعى ، وتحقيق التضامن والتماسك ، وغيرها من قيم أمتنا ، هو معيار النهضة ، ومعيار التقدم . ولن يكون المعيار هو إجمالى الدخل القومى .

أعلم أن المستقبل هو الحكم الأخير على تصورنا وتصورات غيرنا ، وأن الرهان فى إختياراتنا الحالية ، رهان حول مستقبل أمة ، ولكن تبقى المحاولة هى الوسيلة ، والجهد هو الثمن، والرشد هو الطريق . فالقضية ليست حول من يحكم ، بل حول وجودنا نفسه ، فهل لنا أن نعطى ذلك المساحة اللازمة للتفكير والحوار ؟! وهل يمكن للقارئ أن يجد فى عقله المساحة اللازمة ليقرأ ويناقش الصفحات القادمة ؟!

المشهد الثانى

الإله الغربى ... محاولة للكفر

إن تعبير " الإله " هنا ليست مجازيا فقط ، بل هـو اشـارة الى حقيقـة تقديس الغـرب ، وتقديس الفكر الغربى ، أى اعتباره غير قابل للنقاش ، وانه يعبر عـن " العصـر " حصـرا . ففـى الذهن المصرى المعاصر ، سنجد أن المصطلح الغربـى ، والتصـورات الغربيـة ، والحلـم الغربـى ، أصبحت من العناصر السائدة لدى شرائح واسعة من المجتمع . ممـا يعنـى سيادة المفـاهيم الغربيـة على غيرها من المفاهيم ، وبخاصة على المفاهيم المصرية . والأهم من ذلك ، صعوبة الفصـل بـين المفاهيم الاصلية وتلك الوافدة ، لدرجة ان التوجة العام للعديد من الكتابات ، أصبح يؤكد على مدى تخلف تلك الرؤية التى تفصل بين الوافد والاصيل . لقد أصبح البعض يرى اننا عالم واحد، يعيش حضارة واحدة .

فإذا كانت تلك هى حالنا ، فكيف وصلنا لها ؟! الحقيقـة تكمـن مـن عـدة عنـاصر لايمكـن إغفالها . فإى حضارة متقدمة ، تمثل بريق يجذب شعوب الحضارات الاخرى . فالانبهار بالانجاز سمة عامة . وكل الحضارات والامبراطوريات العظمى فى التاريخ ، كـان لهـا هـذا التأثير علـى الدول المحيطة بها ، والتى تكون فى حالة أقل منها ، أى حالة تخلف .

والاتجاه نحو معرفة الانجازات البشرية ، وتقليدهـا ، وترجمتهـا ، أتجـاه طبيعـى يعرفـه تـاريخ البشر . وكل الحضارات العظمى فى تاريخ البشرية ، قـامت علـى دراسـة الحضـارات العظمـى السابقة عليها ، وعلى نقل المعارف وترجمتها . ببساطة ، فـإن الأضعـف ينبهـر بـالأقوى ويتعلـم منه، ثم يتجاوزه ويقدم إبداعه الجديد ، حتى يصير هو الاقوى . وهو نمـوذج للتطـور الحضـارى البشرى عبر التاريخ ، الـذى يحكـى قصـة قيـام وسـقوط الحضـارات . وتلـك الـدورة التاريخيـة الحضارية ، كانت تستغرق فى الماضى آلاف السنين ، وأصبحت تستغرق مئات السنين . ويبدو أنها تقصر مع مرور الزمن ، ومع تطور أساليب الحياة (١) .

إن تلك الاستجابات الطبيعية بين مختلف التكوينات الحضارية ليست هي القضية ، ولكن القضية تكمن فى تحول موقف التعلم الى موقف تبعية . فالشعوب تتعلم وتحتاج لخبرات طويلة، ثم تنهض من جديد . ولكن الواقع المعاصر ، أصبح ينبئ بتحرك عنيف يقاوم حدوث النهوض الطبيعى للشعوب . فهناك من العوامل ، ما يجعلنا نعتقد فى وجود قوى منظمة تعمل على إجهاض محاولة النهوض لشعوب العالم الثالث .

أما الإختلاف بين زماننا والازمنة الماضية ، فيكمن فى أساليب السيطرة بين القوى على الضعيف على المستوى الدولى . ففى القديم كانت السيطرة عسكرية ، وكانت الحرب عسكرية، رغم أن تقدم الشعوب كان ومازال رهنا بابداع العقل ، والنهوض الاجتماعى . فكانت المعارك تحسم لصالح القوى ، ولكن الضعيف كان يظل محتفظا بامكانياته الاجتماعية والحضارية ، فلا تؤثر الهزيمة الا على جيوشة ، دون عقله ووجدانه . بذلك تظل الفرصة قائمة حتى ينهض من جديد ، من خلال حراك اجتماعى حضارى ، يحمل رؤى جديدة ، تتبناها قوى جديدة (٢). وهكذا ينهض مجتمع ، ويهبط آخر ، وتظل المعركة بين القوى والضعيف ، معركة جيوش ، تقف وراءها عقول ، ولكن المعركة تنال من قوة الجيش دون قوة العقل .

الامر الآن تغير ، لقد حدث ما لم يكن مقصودا على ما نعتقد . فالتطور الصناعى الهائل ، والذى يمثل جوهر الحضارة الغربية ، أدى الى نمو عسكرى واسع المجال ، أظهر نفسه فى الحرب العالمية الاولى والثانية ، ولكن منذ بداية الحرب الباردة ، بات واضحا أن السلاح لن يحسم معركة ، أولا بسبب أنتشار القوة العسكرية لدى العديد من بلدان العالم ، وثانيا لان المعركة التى يحسمها السلاح سوف لاتكون إلا حرب دمار شامل .

من هنا بدأ الامتداد من الفكرة العسكرية إلى الفكرة الاقتصادية . وهو امتداد تواكب مع تحول التركيز على التصنيع الى التركيز على الادارة العالمية لسوق المال . فعندما كان التصنيع هو المحك الرئيسى للتقدم ، كانت الجيوش هى التى تحسم المعركة . ثم أصبحت القوة الاقتصادية هى محك التقدم ، وأصبحت السيطرة الاقتصادية هى التى تحسم المعركة .

أما التحول الاتى ، وهو ما يسمى بما بعد التحديث ، فهو نمط جديد لنفس الفكر والقيم . وليس كما يظن البعض ، أنه حضارة جديدة (٣) . فالمرحلة الحالية تشهد بروزا واضحا لتفوق نمط الحياة كمعيار للتقدم ، ومع هذا المعيار الجديد ، أصبح سيادة نمط الحياة ، هو السلاح الذى

يكسب المعركة ، انه نمط الحياة الامريكية ، الذى يحاول كسب المعركة مع الدول المنافسة له اقتصاديا ، وتلك المتأخرة عنه .

إن جوهر الحضارة الغربية يدور حول الفرد ، بإعتباره آله ، تحقق التصنيع والتقدم والتكنولوجيا ، ويتحقق لها الرفاهية والاستهلاك ومجتمع الوفرة ، والدولة الغربية ، هى المنظم الاكبر للافراد ، والمعبر عن جماعات المصالح والشركات ، أى مراكز تكون وتراكم رأس المال ، وهى تمثل الحدود القومية الاقتصادية (٤) . والان تمر الدول الغربية ، بمرحلة تدويل الحدود الاقتصادية ، مع الحفاظ على إبقاء الحدود فى نطاق تعظيم المصالح الاقتصادية . أى تحرير حدود الاقتصاد دون تحرير حدود مراكز هذا الاقتصاد والمسيطرة عليه (٥) .

إن هذا التصور لملامح تطور الحضارة الغربية ليس بعيدا عنا . ففى المرحلة التصنيعية / العسكرية ، كان نصيبنا الاستعمار العسكرى ، وفى المرحلة المالية / الاقتصادية ، كان نصيبنا السيطرة الاقتصادية . وفى المرحلة التى بدأت وتستمر الان ، وهى مرحلة نمط الحياة / التبعية القيمية ، سوف يكون نصيبنا منها التطهير الحضارى .

وكل هذه المراحل تدور حول فكرة استغلال الطبيعة ، وتقدم التصنيع ، وتحقيق الرفاهية والوفرة ، وهى تحدث من خلال إستغلال الانسان نفسه ، باعتباره آله تحقق العائد المادى ، ويصبح قبول الانسان للفكرة رهنا بقبوله للقيم المادية الإستهلاكية بإعتبارها العائد الأفضل من الحياة .

ومع هذه المراحل ، تغير موقف الغرب منا ، نحن شعوب العالم الثالث . فمع الاستعمار ظهرت النظرة العنصرية ، التى ترى فى الشعوب غير الغربية ، شعوب متخلفة بالفطرة (٦) ، وهذا ما برر الاحتلال العسكرى والاستغلال المباشر . ولكن النظرة تغيرت ، بعدما تغيرت القوة العسكرية ومكانتها ، فأصبحنا شعوب متخلفة ، يمكنها أن تحسن أحوالها بالاعتماد على المساعدات الاقتصادية الغربية . ولكن مع تدويل نمط الحياة الغربى ، تغيرت النظرة لنا ، فأصبحنا مشروع بشرى ، يمكن أن يجد مكانه من خلال إتباع نظام الحياة الغربى .

وكل تلك المراحل ، تعبر عن حالات التجدد داخل الفكر الرأسمالى الغربى (٧) ، وكيف يتطور من خلال تجاوز مشكلاته ، وحتى يستوعب احتمالات جديدة للاستمرار . وهو - باختصار - ينتقل من سيادة الآله الى سيادة الفكرة ، أى ينتقل من تصنيع الآله ، الى فكرة الآله بإعتبارها نموذج حياة . وهذه الفكرة تشمل أن الجهد المبذول ، هو تحويل الطاقة الى أشياء ،

وان استهلاك الاشياء هو مصدر السعادة وسبب الحياة ، واستمرار هذه العملية يصبح متاحا من خلال ميكنة الحياة والانسان والافكار ، حتى تنتظم بشكل يجعلها تستمر فى خط واحد ، وتصل دائما لنفس الاشياء ونفس القيم . ويصبح تطوير فكرة الآله ، لتستوعب متغيرات جديدة، ولتشمل عناصر جديدة وشعوب جديدة ، هو الوسيلة الأمثل لتجديد الفكرة . وأصبح استمرار الحضارة الغربية المعاصرة ، رهنا بسيادة هذا النموذج فى كل ارجاء العالم ولكن الواقع يؤكد أن تدويل النمط الغربى يواجه عقبات من داخل المعسكر الغربى نفسه (مثل فرنسا) (٨) ، ومن النزعات الفاشيه والنازية .

الكون الغربي

إن الحديث عن النظام العالمي الجديد ، والسلام العالمى ، والكونية الحضارية ، وغيرها من المصطلحات ، يعد من ابرز علامات السيطرة والهيمنة الغربية فى أخر مراحلها . وكى نوجز القول اولا ، وبإعتبار ان المستقبل سيكون المحك الوحيد لكل الافكار ، فإن النظرة الكونية ستنجح فى حالة واحدة ، وهى سيادة نموذج فكرى / حياتى عالمى ، يحقق أمال وطموح كل شعوب العالم ، وبهذا ينتهى التاريخ وتنتهى الايديولوجيات ، كما يرى البعض (٩) . ولكن التاريخ لايعطينا دليلا على إمكانية حدوث ذلك ، ناهينا عن المنطق ، وعن طبيعة الصراع المستمر بين القوى والضعيف .

فإذا وجد نمط للحياة يرضى جميع البشر ، فستكون هناك حياة كونية ، ولكن لان البشر هم حضارات متعددة ، لها قيم وآمال متباينة ، ولان السعادة تختلف فى مفهومها من شعب لآخر ، ولان تكيفهم مع الحياة يحدث لاسباب وظروف مختلفة ، لذلك فإن مايحدث الان ليس الا اجبار الضعفاء على اتباع نمط ونظام للحياة ، يحطم حضارتهم ، ويقضى على امالهم ، ويفرق بينهم وبين السعادة والتكيف مع الحياة .

فما يحدث الأن ، هو محاولة لفرض أممية الحضارة الغربية ، رغم انها بالتعريف غربية ، أى تنتمى لميراث حضارى تاريخى معين ، وبالتالى فهى نابعة من شعوب بعينها ، وتعبر عن انجازها الذى ارادوه لانفسهم . واذا كانت الدول الغربية والصفوة الحاكمة فى الغرب ، تريد فرض أمميتها الغربية ، فإن النزعة العنصرية ، والنازية ، والهجوم على الاجانب (١٠) ، وحركات

العنف والجريمة ، كلها تشير الى اضطرابات داخل الغرب نفسه ، ترفض التخطيط الآلى للحياة ، وتعبر عن بوادر ازمة حقيقية داخل المنظومة الغربية نفسها .

والازمات التى يمر بها الغرب تتعدد ومنها انهيار الشركات الكبرى، والتحول الى شركات صغرى ، ثم اعادة دمج الشركات. كذلك صورة المنافسة بين الشركات عابرة القومية، والانهيارات الناتجة عن ذلك. ثم تجاوز الشركات لحدود الدول ، وتجاوز الدول لحدود مصلحة شعوبها، وتجاوز الافراد لحدود مصلحة الجماعة. كل ذلك يخلق صفوة غربية فى اوربا وامريكا، ومعها صفوة متغربة فى دول أخرى ، تحاول متحالفة مع اصحاب المصالح ، ومع الشركات العملاقة ، تدويل الفكرة الغربية ، وكأنها نظام عالمى ، يحكم العالم . وتبقى اشكالية القومية ، التى تتحول الى قومية عالمية ، ولكنها تتخطى بعض مصالح القوميات التى تنبع منها ، وتتجاوز بالكامل مصلحة القوميات التابعة ، فتتعرض للخطر الداخلى والخارجى معا ، فتصبح مهددة بالانهيار . أما الخطر الداخلى فيأتى من ضعف فكرة الآله كنموذج وحيد للحياة ، ومن كثرة ضحايا الآله خاصة بسبب البطالة . والخطر الخارجى يأتى من شدة سحق الحضارات الاخرى ، التى ستقاوم فى النهاية ، وتطرح نفسها وبنفسها بدائل أخرى ، ونماذج جديدة للحياة.

والكونية الغربية تعالج التعدد الحضارى بأسلوب متخفى ، وبإسلوب الحوار ، الذى يقبل فكرة وجود الخلاف ، ولكن مع توحيد القيم العليا ، بإعتبارها قيم العصر (١١) . ومن التحضر أن تقبل " العصر " ، وتقبل " الحوار " ، وعليك أن تنتمى لقيم التحديث والتقدم والتنمية والديمقراطية وغيرها ، وما عدا ذلك ، فيمكنا أن نتميز بما نشاء . وفى الواقع لايبقى بعد ذلك إلا بعض الملامح الحضارية المتحفية . فإذا قبلنا فكرة " العصر " ، واننا ننتمى جميعا له ، قبلنا فكرة أممية المنجز الحضارى الغربى . فبعد الاممية الشيوعية ، نجد انفسنا أمام الأممية الرأسمالية ، وكلاهما يتجه نحو تدويل فكرة الآله ، باعتبار أن التقدم هو التصنيع والوفرة والرفاهية .

إن بعض المثقفين خلطوا بين الكونية ، وبين وسائل الاتصال . فالتقدم فى وسائل الإتصال يختصر الزمان ولا يختصر المكان . والقرية الصغيرة كفكرة ، تعنى سرعة التواصل ، وسرعة التغير ، كما انها تختزل الزمن فى الحروب والمعارك ، وفى التقدم والتطور . وكل هذا يتواكب مع الصغر المتتالى لدورة الحياة الحضارية ، أى دورة حياة الشعوب (١٢) . فثورة الاتصال تؤدى الى إختزال دورة حياة كل شعب ، كذلك فإن تراكم المعرفة البشرية ، جعل التغير والانتقال من مرحلة الى أخرى يتم فى فترات زمنية قصيرة للغاية ، إذ ا ما قورنت بالماضى البعيد .

ولكن ثورة الاتصال لاتختصر المكان ، ولا تختزل الجغرافيا . والفكرة الكونية تتعارض بشدة مع الفكرة الجغرافية . كما أن أى فكرة حول إمكانية تماثل كل البشر تماما فى الشكل مثلا ، ستتعارض مع الفكرة البيولوجية . فإذا كان التركيب البيولوجى يحدد خصائص الانسان / الفرد، ويحدد خصائص الانسان عامة فى مواجهة الكائنات الحية الاخرى ، فإن الجغرافيا تحدد خصائص الجماعة / المجتمع ، وتحدد خصائص الحضارات (١٣) ، فى مواجهة بعضها البعض . وثورة الاتصال لن توحد حالة الجغرافيا للشعوب ، ولن تستطيع أن تفرض نمط حياة واحد ، يكون أكثر تأثيرا من العوامل الجغرافية ، الارض والماء والمناخ . فهل يمكن أن نعيد إنتاج المناخ الجغرافى العالمى ،ونوحده ، حتى نتوحد معه فى نموذج بشرى كونى ؟!

إن المناخ العنيف ، والبرد القارس ، والغابات ، والجبال ، كلها عناصر تساهم فى تشكيل الحضارات العدوانية المفرطة فى النشاط سريعة الايقاع والأميل للصراع ، ومنها النمط الغربى . ولكن المناخ الهادئ والوادى المنبسط والصحراء المترامية الاطراف ، تساهم فى تشكيل الحضارات المسالمة الهادئة التى تعمل وكأنها تتأمل والأميل للتوازن ، ومنها النمط المصرى خاصة ، والعربى عامة . ودون الدخول فى تفصيل العلاقة بين الجغرافيا والحضارات ، إلا ان القضية تطرح سؤالا هاما لاصحاب فكرة الكونية ، فكيف يمكن أن نعيد تنميط العالم ، من خلال نمط لايلاءم أغلبية العالم ، دون أن نكون بصدد عملية كبرى للتطهير الحضارى ؟!

التبعية والتغريب

كثر حديثنا عن التبعية والتغريب ، ولكن القضية تحتاج إلى ضبط المفاهيم ، وتحديد الوقائع المقصودة . فمن ناحية الدول الغربية ، فقد بدأت فجر نهضتها الصناعية بالاستعمار ، وهو وسيلة للسيطرة على مقدرات الشعوب ومصادر المادة الخام . ولكم مع التطور التاريخى ، وظهور حركات الاستقلال ، أصبح الغرب أميل لسياسة التبعية تجاه العالم الثالث . والمقصود هنا تبعية القرار السياسى للتحالفات بين الغرب والحكومة فى العالم الثالث . ولذا تحالف الغرب مع حكومات عسكرية تختلف فى نظامها وأسلوبها السياسى ، عما هو سائد فى الغرب نفسه . أما سياسة التغريب ، فهى محاولة تنميط نظم الحياة فى العالم الثالث ، حتى تتماثل وتتكامل مع النظام الغربى ،الأمر الذى من شأنه تسهيل عمليه تعميم النظام الرأسمالى على مختلف دول العالم.

والتغريب يحدث فى دول جنوب شرق أسيا ، أى فى دول النمور وعلى قمتهــا اليابـان (١٤) . ويتضمن ذلك تغير فى المفاهيم الغربية تجاه السياسة الدولية . وهــو تغير ينتـج مـن موقـف دول العالم الثالث ، وتوجهات الدول الغربية فى آن واحد . فمن جهة العالم الثالث ، فـإن مـا يظهـر من مقاومة يدفع بالتدريج الى أستخدام أساليب أقل عسكرية ، وأكثر أنسـانية ، وتبـدو وكأنهـا أختيارية ، أى أن موقف العالم الثالث يدفع الى التحـرك مـن السـيطرة العسـكرية المباشـرة ، إلى التبشير بالفكرة الغربية ودعم ذلك بكل وسائل الضغط والاغراء ، حتى تختار الشـعوب بنفسـها نمط الحياة الغربى ، وتنضم كأعضاء فرعيين لنادى الرأسمالية العالمية .

أما من جهة الدول الغربية نفسها ، فإن التوسع الرأسمالى يتطلب دائمـا أرض جديـدة حتـى يستمر الإنتعاش الإقتصادى ، ويخف التضخم والكساد وغيرها من الامراض الشائعة فـى النظـام الرأسمالى . وعندما إحتاج الغرب للعالم الثالث كمورد للمادة الخام ، إستخدم الجيوش ، وعندمـا إحتاج لتدويـر فوائـض رأس المـال ، إسـتخدم الديـون والقـروض ، ولكنـه الان يحتـاج للعمالـة الرخيصة ، والاسواق لبيع فوائض الانتاج ، أى أنـه يحتـاج لمزيـد مـن البشـر ، ويريـد اسـتغلال سكان العالم غير الغربى ، ولذلك فهو يحتاج لنمط حياة يسود هذه الدول يضمن استمرار عملية تجديد الرأسمالية . ومن جانب آخر ، فإن النظم العسكرية التى تبعت الدول الغربيـة ، أصبحـت غير مقبولة من شعوبها ، وأصبح الغرب مهددا بفقد مصالحه مع سقوط هذه الحكومات .

من هنا جاء الرهان الغربى الاخير ، بأن يكسب الشعوب نفسها ، ويعيد تعليمها وتنشـئتها اجتماعيا ، ويجعلها تختار بنفسها أن تتبع نظـام حياتـه ، فيسـيطر مباشـرة على الشعوب لاعلـى حكامها فقط ، ومن هنا يضمن استمرار قوته وهيمنته ويحمى حضارته من السقوط .

لهذا نتصور أن الاستعمار والتبعية والتغريب كلها مراحل فى تاريخ إستغلال الغـرب لـدول العالم غير الغربى . أما إتجاه الغرب الحالى ، فهذا يهدف الى خلق نماذج من حياته فـى كـل دول العالم، لذلك فنحن بصدد التطهير الحضارى .

وفكرة الاممية لدى الغرب بدأت بالفكر الاشتراكى والنظم الشـيوعية .والحقيقـة أن موقفنـا فى العالم الثالث من النظم الشيوعية يعتريه الكثير من الالتباس خاصة بعد سـقوط هـذه النظـم . والاقرب الى الواقع الغربى ، أن النموذج الغربى نشأ من خلال تصوريـن ، الاول هـو الراسماليـة الفردية ، والثانى هو الدولة الشـيوعية . وكلاهمـا يتجـه نحـو التصنيـع وفكـرة الآلـه ، وكلاهمـا يهدف الى تحقيق الرفاهية ، بمفرداتها المادية (١٥) . ولكن الراسمالية تقوم على التنافس الصراعى

كوسيلة لتحقيق التقدم ، أما الشيوعية فتقوم على الدولة المنظمة كوسيلة . والاختلاف بينهما ليس فى الهدف النهائى بل فى الوسيلة . فالرأسمالية قبلت فكرة وجود ضحايا للتطور ، والشيوعية رفضت فكرة وجود ضحايا للتطور ، وأكدت على أهمية العدالة . ولذلك كانت الشيوعية هى تيار المعارضة داخل حضارة التصنيع ، لان التصنيع بمعايير الوفرة والرفاهية والاستهلاك لايتحقق الا بالاستغلال وهو ما رفضته الشيوعية . ورغم سقوط الشيوعية ، الا ان التيارات اليسارية والاشتراكية مازالت تمثل المعارضة داخل المنظومة الرأسمالية . وتبقى أوربا نموذجا لحالة التوازن النسبى بين دور الدولة ودور الفرد ، فى حين تمثل روسيا دور الدولة ، وأمريكا تمثل النموذج الاقرب لدور الفرد . ويظل الجدل فى الغرب محتدما حول دور الدولة . وهو فى النهاية يدور حول حجم الاستغلال والصراع المسموح به فى عمليه التطور التصنيعى ، أو بمعنى أدق التطور الألى المادى .

لذلك فأن الشيوعية حاولت نشر أممية حضارة الغرب ، أو الألة المادة ، ولكن من خلال المحافظة على قدر من العدالة داخليا وخارجيا ، أى كانت تحاول تدويل النموذج الغربى ، دون ممارسة أو تدويل الاستغلال ، وجاء فشل الشيوعية بسبب أزمة الفكرة نفسها ، فالتراكم المستمر والاستهلاك المستمر ، واستغلال الطبيعة ، لايحدث ويتحقق الا باستغلال الانسان نفسه. لذلك نتصور أن سقوط الشيوعية هو العلامة الاولى على انهيار النظام الغربى ، لانه سقوط رأسمالية الدولة الرشيدة ، والذى استمر هو الراسمالية المستغلة لانها الاقدر على تحقيق الشره المادى اللامتناهى فى الفكرة الغربية . ولكن استمرار الاستغلال يؤدى فى النهاية الى تحطم الطبيعة والانسان معا ، وعندها سيبحث الانسان الغربى عن معنى جديد للحياة ، معنى بعيد عن الاقتصاد والمادة والآلة ، وعندها سوف تنتهى الحضارة الغربية ، ككل الحضارات السابقة عليها، لتأتى حضارات جديدة تحقق انجاز جديد لتاريخ البشرية .

والان يحاول الغرب نشر أممية الفكر الرأسمالى ، والحضارة الغربية ، ومن خلال الصورة السافرة لذلك المشروع وهى " السوق الحرة " و " الانسان الاقتصادى " . ولذلك أصبحت هناك العديد من الشروط فى تعاملات الغرب مع العالم الثالث ، من خلال صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى ، والامم المتحدة ، وتقارير الخارجية الامريكية عن الارهاب وحقوق الانسان . وكل هذه الادوات تستخدم لفرض قوانين ونظم معينه على دول العالم الثالث . وفى مقابل تنفيذ هذه الشروط يقدم الغرب لنا حلم الرخاء ، أى حلم الانسان / الآلة .

الحق أن محاولة الغرب للسيطرة على مقدراتنا ، ليست نتاج استغلاله لنا من أجل مصالحه الخاصه فقط ، بل هى نتاج فكرنا المهزوم ايضا . وكما سبق وأشرنا ، فإن الانبهار بالقوى ، والتعلم منه وتقليده ، كلها امور طبيعية ، وكلها مراحل تسبق نهضة أى حضارة تعانى من التراجع والجمود . وعصر النهضة الذى عشناه فى بدايات القرن العشرين ، هو ليس الا مرحلة نقل الحضارة الغربية ، فهو ليس نهضة ، ولكنه مرحلة من مراحل الانبهار بالاخر . وفى تلك الفترة ، لمعت أسماء فى عالم الفكر والفن والادب ، كان انجازها الحقيقى انها نقلت المعارف الغربية ، وقدمتها بابداع لايقف عند حدود التقليد الجامد .ولكن فى هذه المرحلة الهامة ، تحدث صدمة بين حضارة قوية ، وبناء حضارى متراجع وجامد ، وبعد هذه المرحلة يبدأ الابداع الاصيل ، والنهضة الحقيقية . كما أن الغرب بدأ بالانبهار بابن سينا ، وابن رشد ، والفارابى ، وابن خلدون (١٦) ، وغيرهم ، ثم قدم أفكاره وفلاسفته وانشأ حضارته . ولكن الذى حدث معنا ، أننا انحصرنا فى دائرة النقل والتقليد ، وقل تقديم الفكر الوافد بابداع ، بل ظل التقليد مسيطرا ، والنقل السريع ، والتباهى بين بعض العلماء لمن ينقل الفكرة أولا . وهذا التعثر نتج من ظروف دولية ومحلية ، أى نتج من نظام سياسى خارجى يفرض علينا عدم النهوض ، ويحاربه ، ونظام سياسى داخلى أضعف من أن يقود نهضة ، لذا يرتكن على الحل العاجل والتحالفات الدولية .

أن الغرب فى كتابات بعض مثقفينا هو الحلم الليبرالى ، الديمقراطى ، المتقدم ، التكنولوجى، العلمى .... وهكذا . وهو ايضا وفى كتابات نفس الاقلام ، هو الخطر الاستعمارى ، الامبريالى ، وهو ايضا الانحلال والتفكك وضياع القيم (١٧) . ومن هنا تكمن الازمة التى يستغلها الغرب الآن فى محو حضارتنا ، او فى تطهيرنا من حضارتنا المتخلفة ، التى كثيرا ما كتبنا عنها بأنفسنا ، ملصقين بها صفات التخلف والبدائية وعدم التحضر . ان الانتصار الحقيقى للحضارة الغربية يقاس بمساحة ما تم استعماره من عقولنا ، والانتصار الاخير لها لن يتحقق الا من خلال تلك المساحة المستعمرة من فكرنا .

واذا لم نعى أن منجزات الغرب التى تبهرنا هى عناصر نتعلم منها ونعيد توظيفها لخدمة قيمنا الحضارية ، وان تلك المنجزات لايجوز نقلها او تقليدها ولكن التعلم منها ، وصياغة

خبرتنا فى النهاية فى اشكال جديدة ، ان لم نعى ذلك ، فقد انبهرنا بالغرب للدرجة التى جعلت لدينا " القابلية للتبعية " او بمعنى ادق " القابلية للاستعباد " . فاذا كنا نواجه من يريد محو حضارتنا ، وهويتنا ، وثقافتنا ، فالمشكلة الاكبر اننا قابلين لذلك ، ومؤهلين له ، لاننا لم نميز بين الانبهار بالاخر ، وبين التعلم والابداع والتفوق على الاخر .

والواقع شاهد على ما سبق ، فمن يرفض السوق الحر ، والنظام الليبرالى ، يتهم فى مصر بانه رجعى ومتخلف ولايعيش العصر . ومن يتحفظ على المفهوم الغربى عن حقوق الانسان ، يتهم بالغوغائية السياسية ، ومن يتشكك فى النمط الغربى للديمقراطية ، يتهم بتشجيع الارهاب. وتلك هى خطورة الحالة التى وصلنا اليها ، فاى ابداع مستقل ، لصالح تحيزنا الحضارى العربى، يقاوم ويواجه محليا ، فللغرب الان وكلاء محليين ، يقومون برعاية مصالحه . وتبقى حدود مصر، مفتوحة لعملية التأديب السياسى ، وهى ليست الا عملية تغيير النظم والقوانين حتى تصبح ملائمة للنموذج الغربى وملائمة للمصالح الغربية . اما تبرير كل ما يحدث بالنظام العالمى الجديد والشرعية الدولية ، فاتصور ان التطبيق منذ حرب تحرير الكويت وتدمير العراق ، يؤكد اننا بصدد غطاء دولى لتحقيق الهيمنة الغربية ، والسيادة الامريكية . وللاسف ، فنحن شركاء فى كل مايحدث لنا .

ولعل قضية حق امريكا ، او الامم المتحدة ، فى التدخل فى الشئون الداخلية حماية لأقلية، أو للشعب ، تعد من النماذج الفجة على عملية التاديب السياسى. فهى فى كل الاحوال تنفى عن الشعب حقه فى تنظيم حياته وحقه فى تغيير نظامه السياسى بنفسه ، وتعامله باعتبار أن شعوب العالم الثالث فاقدة للاهلية ، وتحتاج لولى أمر ، يدير شئونها ويحافظ على مصالحها . اما قاعدة التدخل فى الشئون الداخلية ، فهى واضحة تماما ، فأى نظام يخرج على تعليمات البيت الابيض ، يصبح نظاما ديكتاتوريا وجب على أمريكا حماية شعبه منه ، وأى نظام تابع للسياسة الامريكية ، فهو نظام يحمى شعبه ايا كانت ممارساته .

ولعل نموذج التأييد الامريكى للممارسات غير الديمقراطية لبوريس يلتسين ، الرئيس الروسى، نموذج فج لتلك الشرعية الدولية المزعومة . كما أن المقارنة بين ما حدث ويحدث مع العراق والصومال والبوسنة والهرسك ، وفى المقابل اسرائيل ، لهو نموذج شديد الوضوح للغاية النهائية للسياسات الغربية .

وفى النهاية وقعنا تحت أسر عملية التأديب السياسى ، وفى نفس الوقت تحت سيطرة أنظمة سياسية تلهث وراء إرضاء الغرب ، وفى كل مرة يطلب المزيد ، وسيأتى اليوم الذى يطلب فيه تنحية هذه النظم ، حتى تأتى نظم متغربة وتابعة فى ممارستها ولغتها .

التنميط والطموح

ليس من الجديد أن نقرر أن الحضارة الغربية قد أعتمدت فى صعودها على أكبر عملية تنميط بشرى ، من خلال أخراج نماذج بشرية مهنية ، ذات أنماط موحدة (١٨) . وعلينا أن نلاحظ ، أن ذلك تم من خلال هيمنة واضحة للدولة على مقدرات البشر . فنموذج الدولة القومية ، أفرز فى النهاية دولة قوية تقوم بدور المربى والمنظم الاكبر للبشر . وفى هذا كان دور الدولة يطغى على دور الاسرة ، ودور الكنيسة ، وغيرها من المؤسسات . وهو ما جعل الكثير من المفاهيم تدور حول علاقة الفرد بالدولة وحماية الفرد من الدولة ، وذلك لانصهار كل التشكيلات الوسيطة بينهما .

ومن خلال طغيان الدولة ، وأجهزة الاعلام ، ومؤسسات التعليم أصبح تنميط البشر ، أو قولبتهم ، عملية ممكنة ، وهى العملية التى تتخرج منها الاعداد المطلوبة لسوق العمل ، ولعملية التصنيع ، وبالمواصفات اللازمة . وهى عملية توحيد قياسى ، تربط على مستوى المفهوم بين التصنيع والتنميط . فالاول تأتى منه نماذج سلعية متشابهة وذات مواصفات محددة ، والثانى تخرج منه نماذج بشرية بمواصفات قياسية ايضا .

إن ذلك يدفعنا الى تصوير الحضارة الغربية باعتبارها حضارة الآلة ، أى الحضارة التى تعتمد على المادة الميكانيكية والتى تتوجه الى النتاج المادى الوفير . وينطبق ذلك على التصنيع ، وعلى الانسان الغربى وتنميطه ، كما ينطبق على المستقبل المرهون بالتقدم فى مجال الحاسب الآلى ، حيث يطرح الغربيون تصورهم عنه ، فى شكل جديد ، ولكنه شكل يعتمد ايضا على ميكنة الحياة ، وبمعنى ادق ، برمجة الحياة تبعا لاوامر محددة يعمل من خلالها الحاسب الآلى ، ويتنمط الانسان من خلال تفاعله مع تلك البرامج الآلية (١٩) .

واذا كنا نتحدث عن النمط الغربى وآلياته ، فان من المهم ان نذكر الفلسفة البرجماتية ، ومبدأ المنفعة واللذة . فالبرجماتية هى الوعاء الاشمل للحضارة الغربية ، وهى جزء هام من

منظومته الفكرية . والبرجماتية ليست هى الواقعية ، فالواقعية – كما نتصورها – هى استخدام اساليب تلائم الواقع وتتعامل معه بفاعلية ، كى يحقق من خلالها الانسان أهدافه . أما البرجماتية فهى استخدام اسهل وأقصر وأنجح الاساليب للتعامل مع الواقع ، لتحقيق قدر من المنفعة المباشرة والمادية .

والواقعية السياسية التى يتحدث عنها الفكر السياسى العربى الآن ، ليست الواقعية فى مواجهة الخيالية فى طرائق الحياة .ولكنها هى البرجماتية ، التى يستحى الخطاب العربى عن ذكرها بالتعبير الملائم ، حتى لاتعنى فى الذهن المنفعة . فما نعيشه اليوم هو المنطق السياسى الهادف الى تحقيق المنفعة الاقتصادية المباشرة ، بغض النظر عن أى قواعد أو معايير أخرى ، من شأنها أن تحكم العملية السياسية .

إذن نحن بصدد نمط غربى برجماتى ، ذو مواصفات محددة ، تفرض قصرا ، وهذا النمط هو الذى يسوق لنا الآن ، فى أكبر عمليات الترويج للمشروع الحضارى الغربى . ولكن هذا النمط لايتحرك فقط طبقا لتعليمات ميكانيكية ، ولكن يتحرك ايضا من خلال قوة دفع هامة ، وهى الطموح . فالنمط الحضارى الغربى فرض قيمة التنافس بإعتبارها معيار الكفاءة الفردية ، وترك التنافس طليقا لحد الصراع المباشر بين الافراد . وأصبح الطموح فى هذه المنظومة ، هو انفجار دوافع الرغبة الشرهة فى الكسب المادى والنفع بدون حدود على الاطلاق .

ولننظر حولنا سنجد أن الطموحين ، هم مشروع محتمل للتحول الى نمط الحياة الغربى . ولننظر مرة أخرى ، سنجد البحث عن المال تواكب مع كل اشكال الاستهلاك ، واستيراد الاشياء والقيم والعادات . ان الطموح المتفجر من خلال ابهار نموذج الغرب فى الرفاهية ، أصبح الدافع الذى يحول سكان العالم الثالث ، ليس فقط لمستهلكين للسلع الغربية ، بل ايضا لمستهلكين للقيم الغربية ، ومع الطموح الجامح تندفع فئات وطبقات نحو التوحد الكامل مع الغرب ، والجرى وراء كل ما يقدمه ، وكأنه مصدر الحياة وواهبها . وهذه الفئات تتحول الى وكيل للغرب فى مجتمعاتها ، وتصبح هى رأس الحربة ، لاعادة نشر التغريب ، نمطا وسلوكا وقيما .

إن هذا السباق المحموم نحو الرفاهية ، هو الذى قضى على النموذج الغربى الاشتراكى والشيوعى (٢٠) ، لانك لاتستطيع أن تحقق نمط الاستهلاك السفه لكل المجتمع ، من خلال اسس عادلة . فكل ما حققته الدول الشيوعية لم يشبع اتباعها ، فالنموذج امامهم ، كان نموذج

الرفاهية بلا حدود ، وهو نموذج لا يتحقق الا بوجود ضحايا ، ولا يتحقق الا بالنموذج الغربـي الرأسمالى ، ومع قيم التنافس والنزعة الفردية الحادة .

وإذا نظرنا الى أحوالنا ، فإن نمط التعليم الغربى ، ووسائل الاعلام التى تحمل الحلم الغربى ، وتلك الفئات المتغربة ، وعشرات المفاهيم الغربية التى يسـوقها المسئولون والحكـام والنخـب ، كلها عناصر لعملية كبرى لاعادة تنميط الشخصية المصريـة والعربيـة ، داخـل القـالب الغربـى . وهى فى النهاية محاولة نحو تطهيرنا من ذاتنا المتخلفة ، حتى نتوحد من الذات الغربيـة المتقدمـة . فماذا يحدث على أرض مصر المحروسة ؟ فى الفصول التالية ، لمحات سريعة .

المشهد الثالث

التاريخ السياسي ... مشروع بلا نهضة

لا نستطيع أن نتجاوز مشاهد التاريخ ، وتتابع المراحل الزمنية ، فعند القرن الثامن عشر ، كانت الامة العربية ، والامبراطورية الاسلامية ، تعانى من التخلف والتدهور . وتلك الحالة ، ليست كما يصورها لنا البعض ، دليلا على خطأ كامن فينا ، ولكنها مرحلة تاريخية لحضارتنا . مرحلة شهدت ضعف فاعلية الشعوب ، وتوقف نمو الحضارة ، وتردى الاوضاع الداخلية . وكلها عوامل الضعف الداخلى ، التى تعانى منها أى حضارة ، فنقول أن الحضارة توقفت عن النمو والتطور ، ولهذا فهى تأخرت وتخلفت ، ليس فقط مقارنة بالحضارات الاخرى، ومعدل تغيرها وتطورها ، ولكن بمقارنتها بنفسها ايضا . فالحضارة المتأخرة ، ليست كما يشاع الان ، هى الحضارة التى لم تلحق بالغرب ، وتصير على نموذجه ، ولكنها الحضارة التى وصلت لحالة معينة ، ولم تتطور فى أشكال أفضل ، بل أخذت عناصرها الجامدة تظهر نفسها فى ممارسات أسوء . انها حالة تشبه حالة المبدع الذى يتوقف عن الإبداع ، فيصبح ممثلا للماضى أكثر منه للحاضر .

من تلك الحالة ، يمكن أن نرصد العلاقة مع الحضارة الغربية . والذى يهمنا الان ، ليس الصراع السياسى مع الغرب ، ولكن الصراع الحضارى . وتركيزنا على هذا الجانب ، بسبب ما نحاول تقديمه من معالجة فى هذا الكتاب ، لقضية النهضة فى سياق الحضارة الخاصة بأمة العرب.

إن عوامل الصدمة ، عند إلتقاء حضارة متأخرة ، بحضارة متقدمة ، أى اللقاء بين حضارة تتراجع وتوقفت عن النمو ، وحضارة تنمو بسرعة ، تلك العوامل تشرح لنا فى جانب منها ، سر الازمة المعاصرة التى نمر بها الآن . فذلك اللقاء / الصدمة ، يمثل حالة الانبهار بإنجاز الاخرين، والرغبة فى أكتشافه ومعرفته ، ومحاولة تقليده والسيطرة عليه ، واستحوازه ، ومحاولة مبارزة " الآخر " فيما وصل اليه من تقدم . تلك الحالة هى التى أخرجتنا من التأخر ، ولكنها

هى التى أسلمتنا الى المرحلة الراهنة ، حيث يهددنا خطر فقد حضارتنا ، أى فقد ذاتنا التاريخية والجغرافية.

والتعرض للصدمة ، بدأ منذ الحملة الفرنسية على مصر فى نهايات القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك التاريخ نتعرض لصورة الغرب المتقدم ، ولكننا لم نتوقف كثيرا أمام تحليل الصورة. بمعنى آخر ، سنلاحظ عبر تاريخنا الطويل ، لقرنين من الزمان ، أننا فى مواجهة مع الغرب المستعمر . وسنلاحظ أيضا ، كيف رفضنا – ومازلنا نرفض – الكثير من مظاهر الحياة الغربية ، ومع ذلك بقيت معنا صورة التقدم الغربى صورة تتحدانا ونتحداها ، و لم نستطع بعد التخلص من بريقها .

وصورة الغرب أو التقدم الغربى ، تتعارض بالفعل مع مواقفنا الاخرى من الغرب ، فهو استعمارى ، ومنحل اخلاقيا ، وكلاهما صفات نرفضها ، ومع ذلك فإن الوجه الاخر للغرب ، وهو الوجه المتقدم ، يمثل بالنسبة لنا صورة ننافسها ، ونحاول تحقيقها . وتلك هى أزمتنا .

أولا : علينا أن نؤكد أن هذا الموقف المزدوج تاريخيا ، جزء من قوانين التطور التاريخى الحضارى للشعوب . فرفض الاستعمار ، ورفض القيم الاجتماعية التى تتعارض مع قيمنا بصورة صارخة ، رد فعل طبيعى ، وجزء من الدافع المجتمعى نحو الحفاظ على التراث والاستمرار . وفى نفس الوقت ، فإن الانبهار بانجازات الاخرين ، هو جزء من الرؤية المنفتحة للتعلم من كل منجزات البشرية .

أما ثانيا : فإن الاشكالية التى لم تحل حتى الان ، تكمن فى الفصل التعسفى بين ما نقبل وما نرفض ، وتكمن ايضا فى ضياع البديل الاصح ، وهو قبول اشياء أو منجزات واعادة صياغتها فى منجزات أخرى تنتمى لحضارة أخرى ، أى حضارتنا . فالفصل التعسفى بين ما نقبل وما نرفض ، جعلنا بصدد حضارتين غربيتين ، لاحضارة واحدة ، وهو أمر منافى للحقيقة. فالاصح أن ما نرفضه ، وكل ما يبهرنا ، هو حضارة واحدة ، إما أن نقبلها أو نرفضها. والاقرب الى الواقع ، اننا لا نقبل أو نرفض الكل ، بل نتفاعل مع النموذج الحضارى ونتعلم منه ، ثم نستخلص ما ابهرنا ، وننقيه من كل ابهار زائف ، حتى نصل الى علم ومعرفة جديدة ، نستخدمها ونعيد إخراجها فى قالب جديد ، أى فى نهضة نابعة من حضارتنا .

وهذه ليست الطريقة المثلى ، أو الحل الافضل ، ولكن ذلك التصور السابق ، حسب اعتقادنا ، هو قانون التفاعل الحضارى . فتاريخ البشرية يعلمنا - مثلا - كيف قامت الحضارة الفرعونية ، وكيف كانت المسيطر والمهيمن ، وتعلمت منها حضارة الاغريق ، ثم قامت الثانية وسقطت الاولى . وهذا ما تكرر مع قيام الحضارة الرومانية الشرقية ، فى مواجهة الحضارة الرومانية الغربية ، وكذلك مع قيام حضارة الفرس . وتكرر ذلك مع قيام الحضارة العربية الاسلامية ، آخر الامبراطوريات العظمى ، وأكبرها مكانا وزمانا ، ثم سقوطها وقيام الحضارة الغربية ، ثم ...؟ وهذا هو سؤال المستقبل ، الذى علينا أن نجيب عليه ، وندفع أنفسنا فى طريقه.

وتلك الحتمية ، هى جزء من النموذج البشرى فى الحياة ، أى الميلاد والنمو والموت ، على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الشعوب والحضارات .

والعلم بالحتمية ليس علما غيبيا ، فهو لايعنى أن حضارتنا ستقوم ، وكل ما علينا أن ننتظر. فالحتمية فى التاريخ البشرى ، كما فى العلوم الاجتماعية ، حتمية الاحتمال الغالب أو الاحتمال الممكن ، وليست حتمية الحدث الصائر قهرا . يعنى ذلك ، أن " الحتمية الاحتمالية " لتاريخ تطور الشعوب تعلمنا أن المستقبل يحمل فى طياته ، ضعف النموذج الحضارى الغربى ، وفرصة اكبر للنماذج الحضارية الاخرى كى تنهض ، بعضها على الاقل ، خاصة ونحن نتجه عبر تاريخ البشرية ، من القوى الاوحد ، وهى الحضارة الفرعونية ، الى القوى او الحضارة متعددة الاقطاب ، وقد يكون المستقبل متجها الى النموذج الدولى متعدد الحضارات .

واذا أخذنا بنظرية جمال حمدان (١) ، فإن العالم يتجه من خلال قيام وسقوط الدول ، وقيام وسقوط الحضارات ،الى نموذج متعدد القوى ، ويمكن ان نفرض أنه متعدد الحضارات ايضا أى ان العالم يتجه نحو نموذج تحكمه اكثر من حضارة متقدمة، وأكثر من دولة قوية .

من خلال هذا الفهم ، تكون " الاحتمالية " ، هى الفرصة التاريخية ، لنا ولغيرنا ، فمن يريد أن يصعد الان ، عليه أن يحاول ويناضل ويكافح ، وقد يتحقق له التقدم اولا يتحقق ، وذلك رهنا بنضاله ونضال الاخرين ، ورهنا بما لديه من أسباب ودافع وحماس للنضال . فالحضارات المتقدمة ، هى دافع نحو الكفاح . ولكن أى شعب ليس لديه الدافع أو الرغبة ، فلن يتقدم بسبب حتمية غيبية ، فالنجاح هو ناتج الجهد ، وقوانين التطور الحضارى البشرى ، هى مقياس الفرص ، واللحظة المناسبة . وببساطة شديدة ، اذا كان لدينا الان دافع نحو النهضة ، ولدينا من

الاسباب ما يجعلنا أمة مكافحة ، فإن المشهد التاريخي يؤكد أن لدينا أيضا فرصة النجـاح . أما اذا كنا نفتقد للدافع والاسباب الداخلية ، أو نفتقد الايمان بانفسنا ، فإن ما نراه الان في المشهد التاريخي ، لن يكون الا فرصة ضائعة ، وبداية لعهد طويل من التأخر ، تضيع فيه كـل أجيالنـا . حتى تأتي أجيال أخرى عند منعطف تاريخي جديد .

تلك هي الملامح العامة ، من لحظة الصدمة مع النموذج المتقدم منذ قرنين مـن الزمـان ، الى اللحظة الراهنة ، لحظة التهديد بـالموت الحضـارى ، أو التطهـير الحضـارى ، الـذى قـد يحـدث ويستمر لدورة كاملة من حياة البشرية . والغرب الذى صدمنا بإنجازه أولا ، واسـتعمرنا ثانيـا ، وطال تاريخنا معه ، لايريد ان نكون المنافس الحضارى لـه ، ولا يريـد لنـا او لغيرنـا ، أن نكـون بداية دورة جديدة يدفع ثمنها ، ليس بسببنا ولكن بسبب الضعف الداخلى لنموذجه الحضـارى. ذلك الضعف الذى يعالجه الان بالهيمنة الحضارية العالمية ، والذى سيسقط فـى النهايـة ، عندمـا لايتحقق للغرب تجديد حياته بإستغلال البشرية ، وعندما تظهر نماذج أخرى ، تكشـف عيوبـه ، وتصدمه حضاريا . فإذا كانت اللحظة الراهنة ، هي لحظة حياة أو مـوت ، بالنسـبة لنـا ، فهـى كذلك ايضا بالنسـبة للغـرب . والمسـتقبل يحمـل ، فـى النهايـة ، مشـهدا مـن مشـاهد الصـراع العنيف، الذى يسبق تنظيم العالم من خلال نموذج (أو نماذج) حضارى مهيمن .

اذا كـانت تلـك هـى ملامـح الصـورة ، وكـانت اللحظـة الراهنـة ، هـى لحظـة الاختيـار التاريخى، فعلينا أن نستوعب درس الماضى من خلال رؤية جديدة ، رؤية تتعلق لابالمـاضى ، ولا بالحاضر ، بل بالمستقبل . رؤية تجعلنا نعرف على وجه التحديد مـا هـى الآليـات التـى سـتدفعنا للهزيمة الحضارية ، وتلك التى ستدفع الى النهضـة الحضاريـة . وفيمـا يلـى لقطـات مـن تاريخنـا السياسى ، نحاول من خلالها معرفة سبب خروجنـا مـن دائـرة الصدمـة والاسـتعمار والتبعيـة ، ووصولنا الى مرحلة الرهان الأخير ، على ذاتنـا الحضاريـة ، ومنهـا سـنبحث عـن الآليـات التـى نتصور أنها تخرجنا الى مستقبل جديد . وعندما يكون الحديث عن الماضى والحاضر ، فهو ليـس تقيماً لهما ، بل استشرافا للمستقبل من خلالهما .

يظل اسم محمد على والى مصر ، أحد العلامات الهامة فى التاريخ المصرى . وهو ايضا احد الوقفات التى يختلف المفسرون فى تحليلها . وككل تاريخ فإن التفسير يرتبط بالحاضر غالبا، وبالمستقبل نادرا . فتفسير التاريخ ، ليس رهنا بالاسباب الموضوعية المجردة ، بل ان العلم ذاته ليس منهجا فى التفسير الموضوعى ،بقدر ما هو منهاج من التقنين الموضوعى للمعلومات والقرائن والادلة . وقد تعلمنا من الغرب الكثير حول تقنين المعلومات والبيانات ، ولكن اهملنا دلالة نظرية العلم عامة ، ونظريته فى اختيار الموضوع ، وفى تفسيره ايضا .

واذ كانت الطرائق الفنية فى استخلاص البيانات قد اصبحت جزءا من انجازات البشرية نتعلم منها ، فإن نظرية العلم تبقى شاهدا على التحيز الحضارى ، وشاهدا على التحيزات داخل الحضارة الواحدة . فلنطبق ذلك إذن ، على احد شواهد تاريخنا الحديث ، محمد على .

فمع فجر الثورة المصرية ، فى ١٩٥٢ ، كانت نظرتنا لتاريخنا يحكمها محك الاستعمار ، وكان محمد على جزء من مراحل الاستعمار ، فهو البانى ، وليس مصريا . ومع الحرب الضروس ضد الناصرية ، منذ فترة حكم السادات ، أعادت المعارضة صورة محمد على ، بإعتبارة الامتداد التاريخى لحكم عبد الناصر وتجربته ، وأحيا نظام السادات تجربة خلفاء محمد على ، خاصة اسماعيل ، باعتبارها نماذج هامة فى التحديث والتنمية والرخاء . ومع حكم حسنى مبارك، قدم النظام كل الفترات دون تحيزات مسبقة ، وكان ذلك دليلا هاما على محاولة النظام نفسه للخروج من دائرة أى شعار ايديولوجى ، والاكتفاء بالمفهوم الواقعى النفعى المباشر ، تجاه حل المشاكل اليومية ، بغض النظر عن دلالة المشكلة ودلالة وتأثير الحلول المطروحة لها .

فهل يمكن أن ننظر الآن الى فترة حكم محمد على من منظور المستقبل ، وعلى محك اصيل، هو مدى احتمال انهيارنا أو نهضتنا فى المستقبل ؟! ان جاز لنا ذلك ، ومارسنا حقنا فى صناعة المستقبل ، أمكنا أن نرى تجربة محمد على على معيار جديد . فقد أتى محمد على ، بعد الصدمة الحضارية الاولى ، والتى تمثل الجذور التاريخية لاشكاليتنا الراهنة ، ومن هنا تأتى أهمية تجربته .

وفى البداية واذا كنا نرى المستقبل رهنا بنهضة الامة العربية ذات المحيط الاسلامى ، ونتعامل مع " الامة " كوعاء اصيل للحضارة ذات القيم العليا الواحدة ، والتنوعيات الاجتماعية الثرية ، اذا كانت هذه هى رؤيتنا عن المستقبل ، فسنرى أن محمد على ، كان أحد ابناء

الحضارة العربية الاسلامية ، جاء من أحد فئاتها الاكثر حراكا وطموحا فى ذلك الوقت ، أى فى عصر الامبراطورية العثمانية ، ومارس تجربته فى أحد المواقع الهامة ، أى فى نطاق جغرافى فرعى من تلك الامة / الامبراطورية . وهو بهذا المعنى ليس استعمارا ، بل هو جزء من التجربة المصرية ، ومشهدا من مشاهد النضال العربى الاسلامى . ولا يجوز لنا ان نسقط المفاهيم القومية الحدودية ، للدولة القومية ، حسب المفاهيم الغربية الحديثة ، على ماضى تاريخنا . فنحن " امة "، وهى نتاج " حضارة " ، والاخيرة تعبير عن تجانس القيم العليا المشتركة . والدولة القومية فى الغرب ، هى حدود تحكمها مصالح سياسية ، وترتيبات صراعية ، وهى قومية اقتصادية ، ونظام وضع لترتيب المصالح وترتيب الحدود الاقتصادية ، وتنظيم التعامل بين الدول الغربية . والدولة القومية فى الغرب ، الان ، تبحث عن بديل أخر ، يجدد وجودها ، وهو النظام الغربى العالمى ، المتجاوز للحدود ، دون أن يتجاوز المصالح ، من خلال تسويات سياسية .

بهذا تصبح تجربة محمد على ، مشهدا مصريا وعربيا واسلاميا . وقد دارت هذه التجربة حول محورين اساسيين ، الاول كان الغرب المتقدم بأطماعه الاستعمارية ، والثانى كان حالة الضعف والوهن التى اصابت الباب العالى ، واراد محمد على ، تجديد شباب الامبراطورية العثمانية ، ومواجهة القوى الغربية . وواجه فى النهاية ، النوايا الاستعمارية للغرب ، وتخاذل الانظمة المهزومة للامبراطورية التى ينتمى لها ، أى الانظمة التى تقدم التنازلات حتى تستمر ، لانها لا تملك بداخلها مقومات الاستمرار ، فتعتمد على المقايضة مع الاخر القوى (الغرب) . وما واجهه محمد على ، فى بداية معركته ، وفى نهايتها ، هو ما نواجهه الان ، نوايا الهيمنه من الغرب ، ونظم مستسلمة ، لانها نظم مهزومة من داخلها ، ولا تملك الدفع الذاتى للاستمرار .

وفى هذه المعركة ، التى تتكرر عبر تاريخنا الحديث حتى اليوم ، واجه محمد على الموقف المحيط به ، من خلال فكرة تحقيق الندية على مستوى الكفاءة العسكرية الفنية . فلقد رأى محمد على ، أن اسباب الضعف والقوة ، تكمن فى اختلال ميزان القوة العسكرية . لذلك انشأ الدولة الحديثة ، من خلال البعثات ونقل المهارات الفنية (٢) ، وفى سياسته الداخليه ، ركز محمد على على توحيد الصف الداخلى ، من خلال التخلص من المعارضة . فكان لمحمد على دولة قوية ، فى مؤسساتها يحكم قبضته عليها ، ثم جيش قوى بقيادة ابراهيم باشا ، يكون امبراطورية مصرية ، هى فى النهاية تجديد للامبراطورية العثمانية ، وربما يكون الاحتمال الاكبر اذا نجح

محمد على هو تكوين الامبراطورية مرة أخرى ، ونقل الخلافة الى مصر ، أو انتقال محمد على نفسه الى الأستانة .

إن المشكلة الحقيقية فى تجربة محمد على ، أنه حاول تجديد شباب الامبراطورية ، اى تجديد شباب المؤسسة / الجيش ، ولكنه أغفل النقطة الاصلية فى ذلك الظرف التاريخى ، وهى غياب الامة القوية المكافحة (٣) . وفى نفس الوقت ، فان عدوه الاساسى ، تمثل فى مواجهة الحضارة القومية الغربية ، بكل حماسها وكفاحها ونهضتها ، وايضا فى مواجهة نظام الباب العالى ، الذى تحول الى دولة حاكمة تعتمد على قوتها العسكرية والمؤسساتية ، والتى ظهرت فى اوضح صورها بعد مواجهة الحملات الصليبية ، تلك المواجهة التى اعلت من شأن الفئات التركية وغيرها (الفئات الاسيوية والاوربية) ، كأكثر فئات الامبراطورية الاسلامية حيوية وطموحا فى ذلك الوقت .

أما مشهد النهاية فى عام ١٨٤٠ ، فحمل معه تحالف الدول الغربية ضد تهديدات محمد على ، التى تؤثر على نجاح وسيادة الغرب ، وتوقف من طموحه الاستعمارى . وحمل مشهد النهاية - ايضا - تواطؤ الباب العالى ، ضد نظام محمد على ، الذى مثل بالنسبه له ، نظام عسكرى مؤسسى بديل له ، وأكثر قوة منه .

بالطبع ، علينا أن نحدد الموقع التاريخى للتجربة . فاولا ، كانت الأمة تمر بظروف التأخر ، ولم تستوعب مشكلتها ، ولا تجربة الغرب وصدامها معه . وثانيا ، لم تكن " الأمة " فى حالة غياب لشخصيتها الحضارية ، بالدرجة التى تجعل قضية الحضارة هى القضية الاوضح . ثالثا ، لم تحمل تجربة محمد على معها ، أى درجة من التغريب ، او أى محاولة لمسخ الشخصية الوطنية . والتجربة - فى النهاية - افتقدت الزعامة والجماهيرية . بالنسبة لمحمد على ، الذى استخدم النظام والحكم المؤسسى فى قيادة الجماهير ، ولم يكن بالنسبة للمحيط المصرى أو العربى أو الاسلامى ، الزعيم الذى يقود جماهير الامة ، فتدافع عنه ، وتؤيد مسيرته (٤) . اما الجانب الاخر الهام ، فيمثل فى أن التجربة نفسها ، لم تكن تجربة اعادة انهاض أمة ، بقدر ما كانت تجربة اعادة انهاض جيش . ولم يكن المشهد التاريخى نفسه ، ملاءما لاكتشاف حقيقه المرض ، وهو الانهيار الداخلى فى هيكل الامة ، وترهلها ، ودخولها مراحل الشيخوخة . فلم تكن الدولة العثمانية هى " الرجل المريض " ، بل كانت الامة باسرها ، تعانى من امراض الشيخوخة ، بعد تاريخ طويل من النهضة والكفاح والانتصار .

وحتى نتجاوز الكثير من مفردات الجدل الثقافي العربي الراهن ، نؤكد اننا نحاول رؤية محمد على وتجربته من خلال امكانيه النهضـة العربيـة فـي المسـتقبل ، انهـا محاولـة لرؤيـة تـاريخ الصراع ، الذى سيهزمنا ، او سننتصر عليه ، في المستقبل . وتلـك التجربـة ، تعلمنـا أن الامـة تنهض ، وتقيم الدولة والنظام السياسى ، وتستمر الدولة قوية مادامت الامة قوية ، وعندما تنهار " الامة "، تنهار الدولة ، مهمـا استمر وجودهـا . وفـى كـل المراحـل التاليـة ، سـنجد التـاريخ المصرى ، هو انهيار لنظام سياسى ، ثم نهضـة شعبية مؤقتـة ، تقييـم نظـام سياسـيى أخـر ، أو تكسب النظام قوة دفع . ولكن يسـتمر الصـراع ، صـراع البقـاء دون مشـهد نهـائي للنهضـة ، فالنهضة هي تعبير تاريخى حضارى عن الشعب / الامة . والنظام السياسى القـوى المتقـدم ، هـو اما نظام ساعد على النهضـة وقـام معهـا وبهـا ، أو نظـام يقـوم علـى انتفاضـات الشـعب ، ولا يضيف لها ، بقدر ما يستنفذها فينهار . والمسـتقبل ، رهـن بالنهضـة ، لابالانتفاضـة ، والشـعب المصرى مع امته العربية ، شهد في سنوات الضعف ومواجهة الاسـتعمار والهيمنـة ، العديـد مـن الانتفاضات ، التى تؤكد حيويته ، كأمة وكحضارة وكمجتمع . ولكن وعبر العقـود المتتاليـة ، تظل الانتفاضة ، محاولة غير كاملة للنهضة ، ويظل المرض ينخر فى هيكل الحضارة ، ويدمرهـا، ولا تضيف له الانتفاضات ، الا دماء جديدة وإستمراراً مؤقتا ، دون أن تعطى للحضارة هيكـلا جديدا ، وثوبا جديدا ، أى دون ان تعطيها حياة جديدة وعصرا جديدا.

بين فجر وفجر

من تجربة محمد على ، يتضح أهمية التفوق الفنى والمهارى ، وأن ذلك التفوق ليس جزءا من لعبة الصراع والهيمنه بين الحضارات . فرغم أن تلـك التجربـة ، كـانت مـع بدايـة الصـدام الحضارى ، الا ان استجابتها تشكل جوهرا هاما فى فكرة التفاعل الحضارى . فقبل محمد على، والحملة الفرنسية على مصر ، شهد العالم العربى الهجوم الصليبى ، ولكن الحملات الصليبية ، لم تكن مواجهة بين غرب متقدم ، وعالم عربـى متـأخر ، بـل كـان التقـدم مـن نصيـب العـرب ، وكانت الحملات الصليبية جزءاهاما من فوران القوة ، وتزايد السكان ، وتراكـم ازمـة العصـور الوسطى في الغرب . وجاءت هذه الحملات ، معبرة عن المرحلة العدوانيـة الغوغائيـة ، لحضـارة ناشئة ، ستقوم بعد ذلك ، وتظل حاملة معها ، وفى جوهرها ، تكوينها العدوانى ، تجـاه الآخـر

الحضارى ، أى غير الغربى . والمقصود ، ليس ان العدوانية سمة للغرب ، وان كانت الشخصية الغربية أكثر عدوانية ، اذا ما قورنت بالشخصية العربية مثلا ، ولكن المقصود ان المكون الحضارى الغربى ، قام وفى جذوره فكرة الهيمنة والسيادة ، والاستغلال العنيف ، كجزء من مقومات فكرة النمو المادى اللا نهائى . لذلك كانت تجربة محمد على ، مصحوبة بالانبهار الاول بالغرب ، ولكن ادوات الدعاية والتبشير بالحضارة الغربية ، لم تكن فاعلة فى ذلك الوقت، بل ان الغرب نفسه كان يرى فينا شعوب يستعمرها ، ولايرى فينا شعوب يريدها أن تسير على نمط حياته وقيمه كما يفعل الان .

لذلك توقف الانبهار فى ذلك الوقت على المعطيات الجديدة والامكانيات الناشئة للآله ، خاصة فى أسلحة الجيوش . وتعامل محمد على مع هذه المعطيات من خلال تكوينها فى ذلك الوقت . فأصبح تحديث الدولة المصرية ، أو الامارة المصرية ، ومن ثم الامبراطورية العثمانية ، رهنا بفهم واستيعاب فنون التصنيع والقتال .

وأتصور أن ذلك الامر مازال صحيحا حتى الان . فلن يتقدم أى شعب دون أن يستوعب ويفهم فنون الوسائل والطرائق التىتستعملها الشعوب المتقدمة عليه . ويصبح علينا فهم " منتجات " الغرب من مهارات ، واستيعابها ، ثم تطوير منتجات اخرى ، وابداع غيرها ، وهكذا . والمشكلة الحقيقية اليوم ، أن الغرب لايقدم اختراعات ، جديدة ، ولكنه يقدم الآت هى فى الواقع ، آلات الحياة ، أى جملة انجازات من شأنها " ميكنة " الحياة من خلال استخدام الآله فى كل جوانب الحياة ، وميكنة الحياة ايضا من خلال توحيد نمط الحياة فرضا، وتوحيد نمط الحياة ناتج مباشرة لاستخدام الآت تمثل فى حد ذاتها ، ومع تكاملها الداخلى ، النموذج الوحيد للحياة . بمعنى ابسط ، ان ما يقدمه الغرب الآن ، ليس منجزات علينا ان نتعلم تصنيعها، ولكنها منجزات مرتبطة باسلوب الحياة اليومى فى الغرب ، وعلينا ان نتعلم فنونها ، ثم نستخدم ما يفيد نمط حياتنا ، أو نطور الجديد الذى يفيدنا .

وأعلم تماما ان هذا الكلام يبدو خياليا ، ولكن لسبب واحد ، اننا لانعرف ما يفيدنا وما يضرنا ، والاهم اننا لانعرف نمط حياتنا مقارنه بنمط حياة الآخرين ، وأصبحنا نتصور ، ومعنا الكثيرين من اصحاب القلم والفكر والعلم ، ان هناك نمط واحد عالمى للحياة . ولكن اذا قفزنا الى مثال ، ليس هنا موضعه ، أليس لنا أن نسأل عن علاقة المنتجات الغربية ، بالنزعة الفردية

المتطرفة ، والنزعة للتنافس الطاحن ، والميل لتزايد معدلات الجريمـة ؟! واذا كنـا نقبـل منجـزات الغرب، ونقبل نمط الحياة العالمى الجديد ، فهل نقبل الفردية والصراع والجريمة ؟!

الواضح اننا مازلنا نقبل اشياء ونرفض اشياء ، وكلها فـى النهايـة عنـاصر الفكـرة الغربيـة . ومازلنا نتصور امكانية نقل جزء من الفكرة ، بـالتقليد الاعمـى ، دون ان تنتقـل معهـا الاجـزاء الباقية !

على ايه حال ، فإن السنوات التالية لتجربة محمد على ، تضيف لنا أبعاد جديدة فى الفهـم. فمع انكسار محمد على فى عام ١٨٤٠ ، جاء خلفاءه وقـد تعلمـوا الـدرس جيـدا ، ليـس درس التاريخ من أجل المستقبل ، ولكن درس التاريخ من أجل الحاضر . تعلموا الدرس الـذى يمكنهـم من الاستمرار فى الحكم ، والبعد عن مواجهة القوى العظمى . فهو درس يفيد من يهتم بأحوال الحاضر ، دون أن يهتم بخسائر المستقبل . وهو حال نظمنا السياسية حتى الآن .

ومع خلفاء محمد على ، انحسرت السياسة فى تحديث الدولة على نمـط التحديـث الغربـى ، والبعد عن مواجهة الدول الغربية ، وهى سياسة الانفتـاح علـى الاعـداء ، مـن خـلال تهميـش فكرة عداءهم ، تغييرا للمدركات ، دون أن يتغير الواقع . واذا كان عهد عباس حلمـى الاول . قد شهد تراجعا عن تحديث الدولة ، فإن عهد سعيد شهد بدايات أخرى ، ظهـرت فـى النهايـة فى عهد اسماعيل ، وفى عهده شهدت مصر تجربة هامة فى تاريخها ، وتبقى دروسـها حتـى الآن تحتاج أن نعيد استيعابها(٥) .

ففى عهد الخديـوى اسمـاعيل ، بـدأت محـاولات قويـة نحـو " التحديـث " ، ولكـن عنـاصر التحديث تغيرت ، ودلالته ايضا تغـيرت . فمـع التحديـث ، كـانت بدايـات التغريـب ، وفيهـا ظهور أشكال جديدة على الحضارة ، ووفود من الظواهـر مختلفـة نسـبيا عمـا سـبق . واذا كـان محمد على ، هو تجربـة لاحيـاء الامبراطوريـة ، فـان اسمـاعيل كـان تجربـة لاسـتقلال مصـر عـن الاستانة، اى استقلال اسرة محمد على بمصر . ومع ضعـف ووهـن النظـام ، وفقدانـه لاى ارادة سياسية حقيقية ، ترتبط بمصالح الآمة ، كان التوجه العـام لعصـر اسمـاعيل ، هـو ادخـال مظـاهر المدنية الحديثة فى مصر . ومن عهده نلمح بدايات لتغريب مصر ، وهى هامة علـى محدوديتهـا . فادخال نموذج جديد على الحياه المصرية ، ظل قاصرا وفى حدود ، لهـا علاقـة مباشـرة بمؤسسـة الحكم ، والطبقات الحاكمة . ولكن التجربة ، رغم ذلك ، تضيف بعدا هاما فى قصة الصـراع. فمع التحديث فى الاساليب والوسائل ، دون ضابط ومعيار ، فتح الباب لدرجة مـن التغريـب،

ومعه ايضا فتح الباب للديون ، والتدخل الاجنبى ، ثم الاستعمار بعد ذلك فى عهد الخديوى توفيق (١٨٨٢) .

والاهم من ذلك ، أن الخديوى اسماعيل فتح الباب للغرب للتدخل فى شئون مصر ، فكان من اعمال تدخلهم ، عزل اسماعيل وتعيين توفيق ، من خلال التأثير على الباب العالى . ولعل عناصر التجربة تكشف عن نفسها ، فمع اختلاف شكل المعطيات والمقدمات ، فإن احتلال مصر، كان الهدف . وضعف الامة وتراجعها ، ورخاوة النظام السياسى فى مصر ، وفى الاستانة ، كان هو الطريق .

إن نماذج خلفاء محمد على ، تشير الى قسوة مصير الشعب نتيجة فقده لامكانيات النهضة ، وفقد نظمه للارادة الوطنية ، وللمقاومة الذاتية . إن المقاومة الحقيقية ، والتى تحقق النهضة ، أو تحقق مرحلة ناهضة ، تلك المقاومة هى نتاج تفاعل عنصرين ، الشعب ومؤسساته ، وكلاهما معا يصنع الانجاز ، ايا كانت درجته . والمبادأة ، تـأتى من الشعب ، او من مؤسساته (نظام الحكم) ، ولكن الشعب يتحرك عبر فترات زمنية متباعدة ، فالانتفاضات والثورات لاتحدث كل يوم . ودور المؤسسات تأتى أهميته من انها البناء المستمر الذى يسير أمور الحياة اليومية .

وهكذا فان تجربة محمد على ، اصبحت مشهدا مضيئا دون أن تكون بداية نهضة أو عصر كامل من التقدم ، كانت فى معيار التاريخ لحظة ، ولم تكن دورة حياة كاملة . كانت مشروع نظام حكم له إرادة ، ولم تكن إرادته تعبيرا عن حركة أمة ، فاسلم نفسه الى الهزيمة من خارجه وداخله . وجاء خلفاءه ، ليتحقق معهم الانهيار بكل ابعاده ، ويدخل الاستعمار الغربى مصر ، على اسنة الجيش الانجليزى ومع قسوة لحظة الانهيار ، وفى عهد الخديوى توفيق ، تصحو المؤسسة الحاكمة ، فى أقوى جناح لادارة الحكم ، الجيش ، وتأتى ثورة عرابى ، وكأنها مشهد احتجاج على تلك النهاية المحزنة لتجربة محمد على .

وتخرج ثورة عرابى من المؤسسة ، التى نالها الكثير من التحديث ، والقوة ، ولكنها فقدت أهم شروطها ، أن تكون معبرة عن الأمة التى تدير شئونها . وتجئ الثورة تعبيرا عن ضياع الارادة الوطنية ، ورغبة أحمد عرابى فى اعادة هذه الارادة مرة أخرى ، وتكون مصر للمصريين. بعد ان أصبحت أمة العرب شتاتا تصارع الغرب ، ولم يغب عن أحمد عرابى ، أن الصراع فى النهاية من أجل أمة ، وهى الأمة الاسلامية . فقد ظلت مصر ، تعبر عن نفسها ، وعن الامة الاسلامية ، وكان تعبيرها يشمل العرب ، ويتجاوز حدود العربية (٦).

ثورة عرابى اذن ، هى علامة على معنى ومغـذى النظام السياسى فى مصر ، فقوتـه مـن تعبيره عن الارادة الوطنيـة ، واستقلال الوطـن والامـة ، وهـو يتجـاوز حـدوده ، بزعامـة تـرى استقلالها ، مع استقلال أمتها .

ولعلنا نتوقف عند تلك اللحظة ، لنشاهد رؤية مصر لنفسها ، فهى وطن له مكانته وتاريخه، وهى حامى الديار الاسلامية ، الوطن المهمـوم بـالآخرين ، والـذى يمثـل ويشـارك فـى حضـارة اسلامية وأمة اسلامية واسعة الاطراف . وفى ذلك الوقت لم يعرف الفكـر المصرى إشكاليات الاسلامية والعربية ، ولم يدخل فى ثناياه إشكليات الدينية والعلمانيـة . والاهـم مـن ذلـك ، أن كفاح احمد عرابى ، ومصطفى كامل ، وفكر محمد عبده الاستاذ الامام ، لم تكن من أجل دول ثيوقراطية ، او كهنوت دينـى ، أو عنصريـة دينيـة ، ولم تكـن حركـات تعصـب أو فتنـة . لقـد كانت تعبيرا عن أمة تحاول أن تنهض ، ودوله فى قلب هذه الامة ، تحمل مسـئوليتها التاريخيـة . وأن كانت تجارب أو مشاهد أو انتفاضات ، ولم تكن نهضـة حقيقيـة ، ودورة حيـاة جديـدة ، ولكنها جذور النهضة التى يجـب أن تكـون هـدف كفاحنـا ونضالنـا مـن أجـل المستقبل . أمـا اشكاليات اللحظة الراهنة ، فعلينا ان نعرف إن كانت القضايا التى نحلها فندخـل المستقبل ، أم انها القضايا التى ننشغل بها فلا يصبح لنا مستقبل !!

خرجت تجربة محمد على ، اذن ، تعبيرا عـن محاولـة مـن مؤسسـة الحكـم ، وانحصـرت فـى تحديث المؤسسة والجيش ، وجاءت ايضا تجربته من صفوة المجتمع التى اوصلته الى مقعد الحكم . فكانت لحظة لقاء بين المؤسسة والامـة ، ضـاعت عندمـا انفـردت المؤسسـة بـالحكم ، ودون أن ينهض المجتمع ويصبح ركيزة النظام ، فقد المشروع جماهيره ، وتحالفت عليه القوى الاستعمارية.

وجاءت ثورة عرابى ، تعبيرا عن المؤسسـة ، والتفـت حولهـا الجماهـير ، فتوفـر لهـا عنـاصر جيدة، فى معيار الارادة الوطنية . ولكن الثورة جاءت وقد ترهـل النظـام ، وأصابتـه الرخـاوة ، وتفاقمت قدرة الدول الاستعمارية فى التدخل فى شئون مصر ، واقتربت من هدفهـا الرئيسـى ، احتلال مصر . ويسلمنا التاريخ ، الذى يدور ، حتى وأن توقف نبضنا ، الى مشهد اخر .

واذا عبرنا المشاهد ، وتداعت اسماء الطهطاوى ، والافغـانى ، ومحمـد عبـده ، لطهطـاوى ، وكذلك مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، اتصور اننا سنرى لحظات من الكفاح والصراع ، تدور فى فلكها اسماء كثـيرة ، ولحظـات تاريخيـة متعـددة . وكلهـا تـدور حـول اشـكالية الاسـتقلال والتحديث ونهضة الامة . تلك كانت العناصر ، بعـد ان تبلـورت المشـكلة ، واصبحـت قضيـه

تحتاج أن تخترق . فالاستقلال يدور حول تحرير الارادة الوطنية ، والتحديث يدور حول اهمية الدخول فى عصر جديد ، والتعلم من الغرب ، وانهاض حضارتنا باجتهاد جديد ، ونهضة الامة كانت علامة هامة ، على فكرة محورية ، ضاعت منا هذه الايام . وهى ان الدخول فى عصر جديد ، واستقلال الإرادة السياسية ، مرهون فى النهاية بوجود امة تعانى من التاخر ، وعليها ان تخرج من تخلفها للتقدم بنفسها ولنفسها وتعبيرا عن ذاتها .

ولكن تلك القضايا اسرتنا ، وباتت تجرفنا الى احد عناصرها دون العناصر الاخرى ، وصرنا فى النهاية ندخل فى معارك ، ويضيع منا الهدف الاساسى ، اى الحرب الحقيقية ، بمعناها الشامل ، الحرب لاضد " آخر " ، ولكن الحرب باعتبارها كفاح من اجل الحياة ذاتها ، ومن اجل شعوبنا .

من هنا جاءت ثورة ١٩١٩ ، وظهر فى سماء مصر اسم سعد زغلول زعيم الامة . ومثل كل انتفاضات القلب المصرى . تأتى لحظة عارمة ، ولكنها لاتحمل معها كل عناصر وأطراف المعركة ، ولاتحمل النهضة / الامة باعتبارها العتبة الاساسية لدخول المستقبل ، وتغيير حالنا من الطرف الضعيف المستعبد فى النظام العالمى ، الى أحد أطراف النظام العالمى ، ليس قوة فقط ، بل اسهاما حضاريا ، لنا وللبشرية ايضا .

وثورة ١٩١٩ ، جاءت تعبيرا عن فئة من صفوة الامة ، قادت الامة من أجل الاستقلال . وفى ذلك الوقت ، كانت المؤسسات الحاكمة ، التى تدير شئون البلاد مدنيا وعسكريا ، أضعف من ان يكون لها دور فى قيادة الارادة الوطنية . فجاءت الارادة من المجتمع ، أو الأمة بمعناها الشامل.

وفى تاريخنا المصرى الحديث ، تظل ثورة ١٩ علامة هامة ، فهى تعبير عن موقع الشعب من الاحداث . فالشعب المصرى ، عندما يفقد الامل ، والاهم من ذلك ، يفقد القدرة على ابقاء الحياة واستمرارها ، ويصل الى حد تصعب معه الحياه ، بل تستحيل ، عندئذ يتحول الى جماهير غاضبة تجول الشوارع وتذهل الجميع . أن ثورة ١٩ ، تعلمنا الكثيرعما يقال عن سلبية الشعب المصرى، وهى صفةوضعها المستشرقون والكتاب الغربيون عنا ، فصدقناها ، ونسينا التاريخ . وتجاهلنا تلك الانتفاضات التى شهدتها مصر منذ الحملة الفرنسية حتى الان ، بكل درجاتها المختلفة ، وهى بمعيار الشعوب والازمنة ، ليست سلبية ، ولكنها تعبير عن طبيعة أمة تصمد لحد يفوق تصور الاخرين ، وتصمد فى وجه الظلم لحد يفوق تقبل الاخرين ، ولكنها تثور وتغضب

ايضا ، فتقلب كل الحسابات ، وتخرج عن كل التوقعات ، فهل امتنا ماتت ، كما يبشرنا فلاسفة اليوم ، قادة فكر تبرير التبعية والتغريب وفكر الهزيمة والاستسلام ؟!

وتبقى ثورة ١٩١٩ ، بإعتبارها نبض عنيف تجاه الاستعمار ، وأضافة حقيقة من أجل استمرار الوطن فى الكفاح ، والبقاء . ولكن تلك اللحظة التاريخية ، تحتاج منا الى وقفة ، نسقط فيها المستقبل على الماضى . فالمشكلة الحقيقية فى ثورة ١٩١٩ ، انها حملت القضية السياسية فقط ، وحملت معها صفوة وطنية تقود الجماهير من أجل الاستقلال ، لكنها لم تحمل مشروعا ثوريا يعالج الحالة التى وصلت اليها المؤسسة من رخاوة ، أو تعالج الحالة التى وصلت لها الامة من تأخر .

فثورة ١٩ حملت معها مشروعا، يعلمنا الكثير ، فقد حملت مع الاستقلال، مشروع النهضة، بإعتبار النهضة مرادف للتحديث ، لقد كان الحلم الذى حملته اعناق الساسة والمفكرين والادباء ، والشعب معهم ، هو مزيج من الاستقلال عن الغرب ، والتحديث على نمط الغرب .

هنا لنا وقفة ، فزمن الثورة شاهد على بداية العملية الكبرى لتغريب مصر ، وبداية انفتاح عقل مصر ، على منجزات الغرب ، بشرقه وغربه ، وشهدنا بعدها ، وصول النماذج الفكرية الغربية ، الاشتراكية والراسمالية . ودارت على ارض مصر ، تجربة حقيقية للتقدم على النمط الغربى . وكان لهذه التجربة وجهين . **الاول :** وجه ايجابى تمثل فى قدرة غير عادية على استيعاب الحضارة الغربية ، وعلى مبارزتها ، والابداع على نهجها ، ومنافستها على أرضها . وهو وجه يؤكد على امكانيات الشعب المصرى ، وعلى اننا لاننتمى للماضى ، بل اننا أمة يمكنها أن تجدد نفسها . **أما الوجه الثانى** ، فهو الدرس الذى يجب أن نتعلمه ، وهو فشل الازدواجية ، ووهم الايجابى والسلبى فى الحضارة الغربية .

فالحقيقة ، أن محاولة النصف الاول من هذا القرن ، هى محاولة الخروج من قبضة الغرب ، والتقدم باسلوب الغرب . والدرس الهام ، هو ان التقدم باسلوب الغرب لن يمكننا من الخروج من قبضة الغرب . فالفكرة الغربية تبدأ بالشعارات البراقة عن الليبرالية والديمقراطية ، ولكنها تنتهى بالخضوع للغرب ، لسبب بسيط ، فهذه الشعارات هى جزء من منظومة كاملة للحياة ، لانستطيع ان نجزئها ، بل علينا ان قبلناها ، أن نتبع المنظومة كلها ، وفى ذلك ندخل فى فلك التنافس على المعيار الغربى ، أن ننافس الآخر فى أقوى ما يملك من انجازات ، وأهم ما يحتويه جوهر حضارته . والتاريخ يؤكد لنا ، أن أحدا لم يفعل ذلك ونجح ، فلا الحضارة الفرعونية لها

مثيل عند غير المصريين ، ولا الاغريقيـة ، أو العربيـة الاسـلامية ، ولـن تكـون الحضـارة الغربيـة المعاصرة هى الاستثناء .

ان كل حضارة عظمى فى تاريخ البشـرية ، تعلمـت مـن الحضـارات السـابقة عليهـا ، ثـم أنجزت إنجازاً جديداً ، يعبر عنها وعن أصولها ، ويستفيد من الحضارات السـابقة عليهـا ، ولكنـه لايعبر عن تلك الحضارات . وفرق كبير بين مرحلة التقليد والتعلم ، ومرحلـة النهضـة . ولننظـر لبعض شواهد التاريخ . فالتماثيل الفرعونية فى اليونان ، فيما قبل الحضـارة الاغريقيـة ، ليسـت الا مسخ مقلد لايرقى لمستوى الاصل ، وعندما قامت الحضارة اليونانية ، جاءت بنماذج فنية لها تميزها الخاص . ثم قلدنا هذه النماذج فى مصر ، ولم تأتى الا تقليدا يغـاير الاصـل ، ومـا جـاء مطابقا للاصل ومضيفا له ، كان فى حـدود المنـاطق التـى تمركـزت فيهـا الجاليـات الوافـدة مـع الاستعمار اليونانى ومن بعده الرومانى ، ولم تكن فنا منتشرا بين المصريين ، أعظم صناعى الفن. ثم نهض الفن فى مصر بعد ذلك ، وكان عربياو اسلاميا ، فقد اندمجت الذات المصرية والـذات العربية الاسلامية ، كانهما من بوتقة حضارية واحدة ، ولهم أصول مشتركة ، والاهم ان قيمهـم مشتركة (٧) .

واذا عدنا لثورة ١٩، سنلاحظ انها ثورة شعب وصفوة، ومشروع لنهضة شعب وصفـوة. كان اهم ما يميزها - اذن - انها حركة عمت البلاد المصرية ، وكان اهم ما يعيقها، انها لم تجئ بمضمون جديد يحقق الاستقلال حضاريا، فظل الغرب ملازما للفكر وظل الاستقلال منقوصا .

يوليو الحائر

عندما نسقط المستقبل على الماضى ، نحاول ان نعيد اكتشاف تاريخنا برؤيـة جديـدة ، توصل ما انقطع منه ، وتستمد جذور تاريخية لتصور مستقبلى ، نتوقع ان يكون صالحـا لصناعـة مستقبل أفضل . والتعامل مع الماضى يزداد صعوبة كلما اقتربنا تجاه الحاضر . والسبب فى ذلك، ليس لان الماضى القريب لم يدخل تماما فى ذمـة التـاريخ ، وليـس لان وثائقـه لم تكتشـف بعـد كاملة ، ولا بسبب ارتباط البعض من المعاصرين الآن بهذه الفترات القريبـة ، وان كـانت كلهـا اسباب معقولة ، الا ان السبب يبدو لنا ، ونحن بصدد هموم المستقبل ، ان الاقتراب من الحـاضر يحمل معه هما كبيرا ، انه اقتراب من الازمة نفسها .

فإذا كان المستقبل هو الهدف ، والماضيهو مفتاح تحقيق المستقبل ، فالحاضر هو العقبة ، وهو اللحظة التى تفصل الماضى عن المستقبل ، وتعيق الرؤية ، وتفقدنا البصيرة ، وهو حالة من يعانى من أزمة ، وبتعبير ادنى ، من يعانى من التخلف . ففى حالة التخلف ، نكون امام تراث نحمله ، لكنه ينتمى للماضى ، ولم يتجدد منذ زمن بعيد ، وهو تراث ولكنه يتهمش فى حياتنا ، فيصبح جوهر حضارتنا على هامش حياتنا ، وفى التخلف ايضا ، اننا ومنذ زمن بعيد لانبدع ، ولا نضيف لحضارة البشر ، ولا نضيف - بالطبع - لحضارتنا . وفيه ايضا ، أى التخلف ، أن هناك من الاسباب الداخلية والخارجية ، ما جعلنا " نتخلف " ، أى نترك تراثنا وراءنا ، التخلف هو جملة أسباب تعيق النمو الطبيعى للمجتمع ، ومادامت تعيقة ، ومازالت تعيقة ، فهى اسباب حاضرة ، وهى فى الحاضر ، والحاضر منها . والاقتراب من الحاضر ، هو الاقتراب من الخطر ، لان محاولة ازالة اسباب التخلف ، تعنى ازالة فئات أو رموز ، وهى ازالة مصالح وترتيبات ، كما انها سباحة ضد التيار ، وتعدى على من يقود التيار ، ولذلك فهى نوع من الجنون بمقياس الحاضر ، وهى محاولة بمقياس المستقبل . ولكن ، الاقتراب من الحاضر ضرورة ، ففى النهاية ، لن تكون المعركة الا معركة مع " الحاضر " .

ولن نصل الى الحاضر الا من بوابة " يوليو " . والحقيقة أن تناول ثورة يوليو ١٩٥٢ من منظور اشكالية التأخر / النهضة ، ليس امرا معقدا . ولكن موقفنا الحاضر ، السياسى والثقافى والفكرى ، بل والعلمى ، من ثورة ٢٣ يوليو ، موقف على قدر غرابته ، فهو من أول ملامح أزمتنا وتفككنا ، ودليل جديد على أننا ننهار فعلا ، وقد نموت حضاريا ، مادامت عقولنا تموت تدريجيا .

لعلى اتجاسر وأزعم ، أن معظم التيارات المعاصرة فى الساحة المصرية لها علاقة ما بنظام عبد الناصر . وهى فى التحليل الاخير ، ذات جذور مع هذه الفترة ، جذور تحكمها علاقة القبول والرفض ، وجذور أخرى بسبب طبيعة نظام عبد الناصر نفسه ، فهو محاولة ذات درجة عالية من الشمول ، أثرت على مختلف جوانب حياتنا .

ووقائع العهد الناصرى تحفل بالعديد من المحاولات والتجارب والاجراءات . وفيها من التنويعات السياسية ، ما يجعل رفضها بالكامل امرا غير جائز على اطلاقه ، وقبولها بالكامل امرا غير جائز ايضا . واتصور ان تقيمها ، وهى واحدة من أهم تجاربنا المصرية ، هو الموقف الوحيد الجائز . فالتجربة لها علاقة هامة بمستقبلنا ، وفيها ايضا أهم عناصر أى تجربة يمكن أن نحدثها فى

المستقبل . وهى ايضا الاساس المعاصر لكل احوالنا ، والاهم من ذلك ، انها النظام الذى لم يعى أغلبية سكان مصر نظام قبله ، فالاغلبية فى مصر لم تشهد الا عبد الناصر ثم خلفاؤه .

ويبدو أن هذه الاسباب ، التى أتصور انها تجعل تقييم التجربة عمل هام وضرورى ، هى التى تجعل التقييم مستحيلا . ويبدو أن ارتباط عبد الناصر بالحاضر الذى نعيشه الان ، هو الذى جعلنا نسقط كل أزمتنا المعاصرة على فترة عبد الناصر ، ورؤيتنا له .

ولكن القضية لاتقف عند هذا الحد ، ففى فترة حكم عبد الناصر ، شهد تاريخنا مرحلة التنمية الرأسمالية فى الخمسينات (٩) التى يقول البعض اننا عدنا لها الان ، (د. يوسف بطرس غالى) ، كما شهد مرحلة التنمية الاشتراكية ، التى نلعنها الآن ، وشهد كذلك جذور مرحلة السلام ، فى سياسات ما بعد ٦٧ (١٠) ، والتى نمجدها الآن . وعهد عبد الناصر شهد وقائع الاستقلال (١٩٥٤) والانتصار السياسى (١٩٥٦) والهزيمة العسكرية (١٩٦٧) . انه عهد يحمل فى طياته كل معاركنا وأمالنا ، ويحمل ايضا هزائمنا وألآمنا .

والامر يبدو أكثر تعقيدا ، عندما نتحدث عن الزعيم ونظامه ، فاذا كنا نتحدث عن الزعيم، عبد الناصر فامر يختلف اذا انتقلنا الى نظامه ومؤسساته ، دولة المخابرات مجازا . واذا راينا فى ذلك العهد عبد الناصر ، فان الصورة ستتغير اذا كنا لانرى الا عبد الحكيم عامر وصلاح نصر .

تلك هى اشكالية عهد عبد الناصر ، التى تحتاج منا الى تجاوز احساسنا بالحاضر ، حتى نستطيع ان نرى ملامح التجربة . وكذلك تحتاج منا أن نفرق بين جوانب التجربة ، ونميز بين عناصرها . فقد كان ذلك العهد مليئا بالمتغيرات المتشابكة التى أثرت على حياة مصر ، والامة العربية .

فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قامت حركة الجيش ، وبدأت كانقلاب عسكرى على حكم الملك فاروق . من هنا خرجت الحركة من المؤسسة (١١) ، لامن الشعب ، وجاءت تعبيرا عن تمرد الجناح العسكرى لمؤسسة ادارة الحكم ، ضد ما وصلت له اوضاع مصر ، وكذلك لما وصلت له أوضاع المؤسسة نفسها . وكانت مبادئ الحركة المعلنة ، تركز على قيام دولة مستقلة حديثة .

واذاعدنا لثورة ١٩١٩ ، سنجد الاجابة على كثير من الاسئلة . فحركة المجتمع المصرى فى ثورة ١٩ ، استطاعت تحقيق القدر الكبير من الحراك داخل المجتمع المصرى . ومن مفردات

ثورة ١٩ ، الاستقلال ، ومن نتائجهـا على المنـاخ المصـرى ، كـان الانفتـاح والتحديـث فـى مجالات متنوعة من الحياة ، من اهمها المجال الفكرى والثقافى والفنى .

وحركة الجيش فى ٥٢ جاءت لتتبنى استكمال عملية الاستقلال ، لان ماتم منها ، لم يجعـل الاستقلال حقيقة . وتبنت ايضا التحديث ، او انشاء الدولة الحديثة ، وهـو مـن انجـازات جيـل ثورة ١٩ ، بمختلف تياراته . واضافت لذلـك عنصـر شـديد الاهميـة ، حـول اصـلاح احـوال المجتمع ومحاربة الفساد ، لانها حركة جاءت من خـلال المؤسسـة وحملـت معهـا همومهـا ، أى حملت الاحساس الداخلى بمدى تفكك المؤسسة الحاكمة ، وعبرت عن انزعاج الجيش ، بإعتباره رمز القوة فى الدولة ، من حالات ضعف الدولة .

تلك كانت معطيات حركة الجيش فى يوليو ٥٢ ، وهـى معطيـات هامـة ، ولهـا دلالتهـا . فالتمرد الخارج من داخل مؤسسة الحكم ، وليس مـن النخبـة السياسـية ، يـأتى فـى الواقـع مـن الجهاز الادارى ، وغالبا من جناحه العسكرى ، حاملا هموم المؤسسة بوصفها تعبيرا عن المجتمـع (١٢). وعندما تكون الحركة عسـكرية حصـرا ، فإنهـا تمثـل انتفاضـة المؤسسـة / الرمـز ، ضـد أحوالها المتردية ، ومع احلام الشعب تجاهها .

لهذا تحولت الحركة الى ثورة ، وقام الشعب معهـا ، لانهـا حملـت بعـض مـايدور بداخلـه . وكانت أهم عناصر أزمة المجتمع ، تدور حول الاستقلال وفساد نظام الحكم ، ووصول الدولة / المؤسسة الى حالة لاتصلح فيها أن تكون رمزا لشعب . وفى هذه الفترة التاريخية كان الاستقلال هو الشعار ، والدولة القوية المستقلة هى الهدف . أما عناصر التكوين الحضارى ، وعناصر الفكر الاجتماعى السياسى ، فقد أصبحت نتاج للتفاعل والاحتكاك مع الحضارة الغربية .

هنا يمكننا ان نلاحظ محورية مفهوم " التحديث " كعنصـر يربـط مشـاهد القـرن العشـرين ، ويربط بين ثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ . ويبقى الاختلاف بينهما فى قضية الاستقلال . فثورة ١٩١٩ كـانت بقيـادة عنـاصر مـن النخبـة السياسـية الحاكمـة ، لذلـك كـان مشروعها عـن الاستقلال يركز على قضية الاستقلال عن المحتـل . امـا ثـورة ٥٢ ، فقـد جـاءت مـن العنـاصر الصغرى داخل جهاز الدولة ، من صغار ضباط الجيش ، ولذلك ارتبـط الاسـتقلال – فـى فـترة زمنية وجيزة – بتغيير كل النظام السياسى الذى عاصر الاحتلال ، والذى أصبح فى فكر الثـوار جزءا لايتجزء من الاستعمار نفسـه . وفـى الثـورات دائمـا تكـون البدايـة بتعميمـات شـديدة ، ودائما ما تكون للثورة ضحاياها ، وثورة ٥٢ كانت ثورة بالمعنى الشامل للتغيير الجذرى .

فى خضم هذا النضال الوطنى ، كان الفكر السياسى الاجتماعى ، هو نقطة الضعف الاساسية . وفى مواجهة احتلال ، هو أمر واقع ، وضررحال ، لم يكن لقضية الفكر السياسى الاجتماعى ، دورها كأحد أهم متغيرات الاستقلال والنهضة . وما نعنيه بالفكر الاجتماعى والسياسى ، هى جملة الافكار والمبادئ ، التى تنظم المجتمع والدولة ، والعلاقة بينهما . كما تنظم توجه الأمة بأسرها فى المستقبل ، من خلال سياسات الدولة ، وتوجهات الشعب .

وقبل الثورة كان الفكر المصاحب للارادة الوطنية هو مزيج من الافكار التحديثية ، الاشتراكية والرأسمالية ، بجانب الاستقلال كفكرة جوهرية . كذلك حمل هذا الفكر معه مشاريع الدولة الاسلامية ، والجامعة الاسلامية ، والافكار العروبية ، أى مجموعة الافكار التى ميزتها وجود بعد للخصوصية الحضارية ، اختلف من تيار لآخر . ومن ذلك الفكر تشكل عهد عبد الناصر .

ان عناصر النظام الناصرى الاساسية ، تدور حول جوهر هو الاستقلال . وعند عبد الناصر، كان الاستقلال يعنى جلاء الانجليز ثم أصبح يعنى استقلال القرار السياسى . نعم لقد ظل شعار عهد عبد الناصر " الاستقلال التام او الموت الزؤام " . واصبح للناصرية جوهرها من هذه الفكرة، ان الاستقلال الكامل للارادة الوطنية ، واستقلال المؤسسة الحاكمة ، عن الضغوط الخارجية ، هو معركة التحرير ، وهو معركة التنمية .

ومن هنا ناتى الى العنصر الثانى فى النظام الناصرى ، وهو " التنمية " و" التحديث " . وبدون تحيزات انفعالية ، فإن التنمية فى مفهوم عبد الناصر وممارسته ، كانت التنمية المستقلة ، قبل أن تكون التنمية الاشتراكية أو التنمية الرأسمالية . وقبل ١٩٦٠ وبعد ١٩٦٧ ، وكانت التنمية رأسمالية أولا ، ثم بعد الهزيمة مالت لان تكون كذلك . وبين التاريخين ، كانت التنمية اشتراكية .

ونتصور أن معيار عبد الناصر فى تحديد اختياراته التاريخية ، ارتبط اساسا ، بمحكين ، محك الممكن داخليا ، ومحك المتاح خارجيا ، وظل تحديث الدولة هدف له . فالتجربة الرأسمالية فى الخمسينات ، أصدمت اولا بفقدان الثقة بين نظام عبد الناصر ، والرأسمالية الوطنية . وكذلك أصدمت بإستفحال الرأسمالية التابعة ، أى القواعد الرأسمالية المحلية المرتبطة بالمصالح الغربية مباشرة (١٤) . وثانيا : فإن التنمية الرأسمالية دفعت نظام عبد الناصر الى التعامل مع الغرب الرأسمالى ، خاصة امريكا . والتى تصور فيها الثوار ، انها قد تكون مسانده لحركات التحرر من

الاستعمار الغربى القديم ، انجلترا . ولكن سرعان ما اكتشف النظام ان امريكا هى وريثة الاستعمار الغربى وحاملة لواءه .

وجاءت الاشتراكية ، بهدف التنمية أولا ، والاستقلال ثانيا ، مع مساندة المعسكر الشيوعى لحركات التحرر فى العالم الثالث . ولعلنا تعاملنا مع المعسكر الشيوعى والاشتراكى ، ومع فكره ، يشوبه الكثير من التداخل .

ففى فترات بعينها تصورنا ان الشيوعية والاشتراكية هى الفكر السياسى والاجتماعى للعالم الثالث . و لم نتعامل معها باعتبارها إستعماراً أو تغريباً أو وافداً دخيلاً . وحتى مفكرى الشيوعية والاشتراكية فى مصر ، هم أكثر من وقف فى وجه " الغرب " ، ولهم فضل كبير ، فى قدرتهم على تحرير فكرة " الاستقلال " وإكتشاف كل أشكال الاستعمار ، ومقاومة كل محاولات الغزو، وظل صوتهم عاليا ضد الاستعمار العسكرى ، ثم الاقتصادى ، ثم الثقافى . ولكن يبقى السؤال الملح ، اليست الشيوعية غربية ايضا ؟ اما انها أفضل بديل غربى مناسب لنا ؟ أم انها أممية وليست غربية ؟

وقفة على الشيوعية

والاجابة على هذه التساؤلات ، تدخل فى خضم جدل فكرى لاينتهى ، وتحتاج الى أسلحة فكرية شديدة الأثر . لانها محاولة للحوار مع مفكرى الشيوعية والاشتراكية . وهم ولعقود طويلة طليعة مثقفى الوطن والامة . ولكن أتصور أن سقوط الشيوعية ، وهو ليس سقوطا للفكر بل للنظم ، اتاح لنا الخروج من دائرة الحرب الباردة ، ومن دائرة ثنائية ادارة العالم .

فالحضارة الغربية . فيما نرى ، ثنائية القطبية ، وهى تتراوح بين الحرية السياسية (الرأسمالية) والحرية الاقتصادية (الشيوعية) ، أى بين حرية الفرد كهدف ، وبين العدالة الاجتماعية كهدف . وهى فى كل الحالات تتجه نحو تحقيق غاية واحدة ، عمادها أن " التقدم" التكنولوجى / المادى / التصنيعى / الآلى هو وسيلة الانسان ليوظف الطبيعة فى خدمته ، حتى يحقق السعادة والرفاهية لنفسه . والغرب الشيوعى ، ونموذجه الاتحاد السوفيتى ، رأى أن ذلك

لن يتحقق الا بالعدالة الاجتماعية ، وأن " التقدم " بدون عدالة اجتماعية ، ليس الا استغلالا واستعمارا . اما الغرب الرأسمالى ، ونموذجة الولايات المتحدة الامريكية ، فرأى ان ذلك لن يتحقق الا من خلال اطلاق حرية الفرد ، وبالتالى آليات السوق ، ، وان " التقدم " - تبعا لذلك - لايتحقق بدون ضحايا ، وان عدد الضحايا يقل ، ومستوى الرفاهية سيزيد عبر الزمن، من هنا أصبح الاستغلال (الداخلى) والاستعمار (الخارجى) مراحل فى طريق التنمية الاقتصادية .

وقامت الشيوعية حول ايديولوجية محددة ، تؤكد العدالة الاجتماعية ، وامية العالم ، وامكانية تحقيق " التقدم " على مستوى العالم من خلال حكم الطبقة العاملة لنفسها . وتسود الشيوعية ، ويسود التقدم ، ودون تفريط فى العدالة الاجتماعية . اما الرأسمالية فقامت حول استراتيجية للحياة والعمل ، دون ايديولوجية تمثل نموذج فكرى مثالى ، لان اللجوء للايديولوجية مع الاعتراف بوجود استغلال عمل متعارض ، والافضل ان يبتعد البشر عن الفكر المثالى ويتقبلوا الواقع ، من خلال نمط حياة يمارسونه ، ويعانون بسببه ، ويبقى معهم دائما أمل التقدم والرفاهية، وحلم الرخاء ، وبذلك تسود الرأسمالية ويتحقق التقدم تدريجيا ، وتصبح نظام عالمى اممى يحكم العالم أجمع . ولذلك سنجد ان الراسمالية ، قامت تاريخيا على استغلال العمال ، وذلك فى اوربا ، وفيها ظهر الفكر الماركسى ، مؤسس الشيوعية والاشتراكية ، كرد فعل على استغلال الطبقة العاملة ، وفى محاولة لتحقيق نموذج التقدم الآلى ، وهو جوهر الحضارة الغربية ، بدون استغلال وضحايا . ولكن الراسمالية الغربية اتجهت بعد ذلك الى استغلال الدول الاخرى من خلال الاستعمار ، ونهب الثروات الطبيعية ، والتهجير السكانى ، ونظام العبيد . وفى المراحل المتتالية ، نجد تغير دائرة الاستغلال وخروجها الى الدول الاضعف ، وتغير درجة الاستغلال الى درجات أقل . وهكذا تحولت الرأسمالية من الاستعمار العسكرى الى التبعية الاقتصادية . وهى اليوم تريد تحقيق التبعية الحضارية الكاملة ، أى التطهير الحضارى للعالم ، حتى يصير على نفس النموذج الرأسمالى الغربى ، ويتاح له أن يتقدم ويسهم فى السوق العالمى ، دون أن يكون عدوا محتملاً . والعدو اليوم ، أو بمعنى أدق غدا ، ليس عدوا عسكريا ، ولا اقتصاديا ، ولكنه العدو الحضارى ، الذى يمكن ان يحقق القوة والتطور والنمو ، دون ان يحقق النمط الغربى ، أى أن العدو هو الذى سيحاول نشر قيمه ونمط حياته ، فيهدم فكرة " التقدم / الرفاهية والسعادة " ، باعتبارها الجوهر الحقيقى للفكر الغربى ، الشيوعى والرأسمالى .

وببساطة ، نتصور انه مسموح لدول العالم الثالث ان تصبح من النمور ، مثل دول جنوب شرق اسيا ، ولكن بشروط ، **الاول** : ان تتبع القواعد الاقتصادية المعمول بها فى الغرب الرأسمالى ، وتتبع قوانين التجارة الحرة (الجات) . **ثانيا** : ان تتوقف عن ممارسة لعبة الحرب الاقتصادية ، وترضى بوجود حد أعلى للقوة لاقتصادية ، يفترض فيه ان تظل مركز القوة الاقتصادية تبدا من امريكا ثم اوربا ثم اليابان وغيرها ، دون ان تحاول أى قوة الانقاص من مركز امريكا ، أو تغيير سلم القوة الاقتصادية النسبى . **ثالثا** : وهو اهم الشروط ان لا تتحول اى دولة ، خاصة اذا كانت من فئة النمور ، عن النمط الغربى للحياة ، وبمعنى أدق ان لاتحاول اى دولة تحويل المنجز الغربى الى مجرد قاعدة تعلمت منها وتفوقت فيها ، ثم تستخدمها لنشر نموذج اخر ، ففى ذلك بداية نهاية الغرب .

اما الحلم الشيوعى الاممى ، فقد واجه الهزيمة ، وسقطت قلاعه ، وانفرد الغرب الرأسمالى بالساحة ، وبدأ على الفور فى نشر رسالته وهدفه ساخرا ، واستعرض عضلاته الامريكية فى حرب الخليج ، فاضاف لنفسه ابهار القوة ، ثم فى الصومال ، فكان من نصيبه عار القوة . واصبح الرهان الغربى الرأسمالى ، متوقفا على عدة عناصر ، منها ان تظل امريكا قوة تخيف الاخرين ، وتستمر امريكا واوربا فى حسم خلافاتهما بالتسوية دون فتح المجال للصراع ، وان تظل " النمور " أليفة ويمكن ترويضها بالديمقراطية وحقوق الانسان وحق التدخل فى الشئون الداخلية ومن خلال الامم المتحدة ، وكذلك من خلال لعبة الاقتصاد ، وهى فى النهاية خيوط تحركها الدول والبنوك المركزية (سعر الصرف ، الفائدة ، شروط التجارة ، التضخم ، ... الخ) وسقوط النظم الشيوعية ، فسر بانه فشل ، وانه دليل على خطأ الفكر ، ودليل ايضا على فشل الناصرية ، وانه – وهذا هو الاهم – دليل على ان الرشد العقلى يدفعنا للدخول فى نادى الرأسمالية العالمى طواعية . ولكن اتصور ان سقوط الشيوعية له معنى أخر ، فهو مؤشر لسقوط الفكرة الغربية ، وترهل امريكا بوصفها النموذج المعاكس للاسلوب الشيوعى ، وظهور قوة اوربا ، لانها نموذج ثنائى داخلى ، توازن بين الرأسمالية والاشتراكية داخل الدولة الواحدة ، وهو ظهور قد يستمر ، أو قد يكون نسبيا .

والاهم أن سقوط الشيوعية ، يعنى ان اتباع التحديث على النمط الغربى لايمكن ان يتحقق مع استمرار فكرة " الاستقلال " ، وأن التبعية السياسية قد أصبحت جزءا من التحديث

والتنمية، وعلينا ان نقبل الفكرة كاملة ، ولا نتصور انه يمكن فصل جزء منها عن الاخر ، علينا ان نقرأ التاريخ فلا نعيد تجاربه .

عبد الناصر ..... مرة أخرى

كانت تلك الوقفة ضرورية حتى نستطيع رؤية نظام عبد الناصر . فقد كان الاستقلال شاغله ، وقد امكنه تحقيق ذلك من خلال التحالف مع تيار المعارضة الغربى ، أى الشيوعية – ان صح التعبير – فى مواجهة التيار الغربى الرأسمالى . والشيوعية كانت المعارضة ، و لم تكن التيار الحاكم ، وبالتالى كان سقوطها اولا ، لان نموذج التقدم الآلى ، كفكرة لرفاهية البشر ، لم يكن ليعيش مع العدالة الاجتماعية ، دون ان يكون له سقفا ، اى حدوداً للتقدم والآلية والتصنيع والرفاهية ، وكل عناصره الاخرى .

واذاكان التطلع الى الرفاهية والحرية الفردية من شعوب الدول الشيوعية ، احد عوامل انهيار الشيوعية ، فإن سباق التسلح كان من العوامل الأهم ، التى استخدمتها الرأسمالية لهزيمة معارضها الغربى الشيوعى . فسباق التسلح ، ليس الا جوهر الفكر الغربى ، فمضمونه يدور حول كيفية صناعة " آله " أى " سلاح " ، يتيح السيطرة على العالم . ولكن كى تنتج هذا السلاح ، وتحقق اعلى رفاهية للشعب ، وايضا تحقق عدالة اجتماعية ، ولا تستغل الشعوب الاخرى ، كى تحقق ذلك ، عليك ان تحلم بالمستحيل ، الذى نادى به كارل ماركس ، فهو نوع من " المدينة الفاضلة " . ولانه غير ممكن ، فقد سقط ، لان الدول الراسمالية ، ذات النزعة الاستغلالية ، ظلت هى المحدد لدرجة سباق التسلح ودرجة الرفاهية .

وكانت هذه هى اشكالية عبد الناصر نفسه ، فتحقيق الاشتراكية والتحديث معا ، هو تحقيق للتقدم مع الاستقلال السياسى عن الغرب ، وهو ايضا تحقيق للتقدم فى سباق لايمكن اللحاق به ، بدون استغلال ، أى لايمكن اللحاق به ، مع استمرار العدالة الاجتماعية . وكان هذا هو خطا التجربة ، فالتنمية الاشتراكية فى الستينات لم تحقق التقدم الكافى مع الدخول فى سباق التسلح . وجاءت هزيمة ١٩٦٧ ، معبرة عن رفض الغرب لنموذج التحديث والاستقلال السياسى . واصبحت الهزيمة علامة هامة تؤكد أى على مصر ان تدخل سباقا فى التسلح والمعارك . وكان الاختيار هنا ، بين التنمية والاستقلال .

واختار عبد الناصر الاستقلال اولا ، والتنمية ثانيا ، فكانت بذور التحول الرأسمالى ، وفتح باب الهجرة للعمالة المصرية ، وانشاء السوق الموازية للعملات الحرة ، ولكنها كانت بدايات محددة ، ولكن مشروع التنمية الاشتراكية نفسه كان ثمن الهزيمة .

من هنا يمكن تصور التجربة الناصرية . فنقطة ضعفها الرئيسية كانت فى مفهوم التحديث والتنمية ، لان ذلك المفهوم أسلم المجتمع المصرى لدرجة أعلى من التغريب فى آلياته ومؤسساته ونظمة . وأصبح التحول عن نماذج التراث ونظمه سريعا ، فتم تحديث الدولة ، وظل الرهان على الاستقلال ، مرتبطا بالحرب الباردة ، وثنائية العالم ، وظل رهانا على من هو الاقوى . ولعل موقف الاتحاد السوفيتى من القضية الفلسطينية ، ورغم مناصرته للحق العربى ، الا انه ظل متحفظا تجاه القوة العربية ، وتجاه دعم العرب للقضاء على دولة اسرائيل ، لعل ذلك الموقف يوضح ، ان الرهان السوفيتى - الامريكى ، كان على اسلوب تحقيق النموذج الغربى ، وتحقيق قيادة العالم ، ولم يكن ابدا على الفكرة الغربية نفسها التى هى الوعاء الحضارى الذى نبع منه كلاهما .

وكى نفهم أكثر آليات التنمية على النمط الغربى ، علينا ان ننظر الى قضية الزراعة ، فقد نادى عبد الناصر باننا دولة صناعية ، ولن نكون دولة زراعية . والمعنى اننا لسنا دولة تحتل ، ولكن دولة تستقل وتنمو . وفى ذلك الوقت لم يكن الغرب نفسه ، ينادى بتصنيع العالم ، كما ينادى الان . ولكن اتباع نمط التنمية الغربى ، ادى بنا الى حالة تدهور زراعى / غذائى ، كان فى حد ذاته مفتاحا لمداعبة احلام انور السادات ، وبدأ العد التنازلى لمقايضة كل شئ بالمال.

وهذه النقطة دليل آخر ، على فهمنا الظاهرى للتقدم الغربى . فكل الدول الغربية ، اقامت صناعة متقدمة ، واحتفظت بقاعدة زراعية قوية تحافظ عليها بقوانين حمائية قوية . وليس أدل على ذلك من صراع الدول حول اتفاقية الجات ، الذى فجر ، قبل توقيع الاتفاقية فى ١٩٩٣ ، مشكلة الحماية الزراعية فى فرنسا واليابان ، وامريكا ، وتخوف فرنسا واليابان من القوة الزراعية الامريكية . ان ذلك يعنى ، اننا نستخدم نمطا غربيا ، لايحقق لنا المستقبل ، وكذلك فاننا ندركه فى صورة مثالية ، ، لاتوجد فى الغرب نفسه ، وهو يباع لنا الآن فى الصورة غير الحقيقية ونحن نشتريه . فمصر توافق على اتفاقية الجات ، مع ان الاتفاقية نفسها دليل على ان النمو الاقتصادى الغربى ظهر وتطور فى ظل الحماية ، وهو الان يمارس القوة برفع الحماية . ونحن " نلعب مع الكبار " مع اننا مازلنا " صغار " .

والنموذج الناصرى ، قدم بجانب التنمية والاستقلال ، عناصر هامـة فـى تجربتنـا التاريخيـة . ومن اهمها ، تجربة زعامة عبد الناصر نفسها ، وهى تلك الزعامة ، التـى حولـت الجماهـير مـن حوله ، الى قوى لايستهان بها ، جعلته قادر على الاستمرار فى نداء الاستقلال . ورغم سـقوط الزعامة فى النهاية ، الا ان قوة الجماهـير ، تمثـل محـورا هامـا ، لفهـم دور المؤسسـة والشـعب ، فالمؤسسة هى المنظم ، والشعب هو القوة الحقيقية ، والزعامـة هـى الاحتيـاج التـاريخى . ولكـن الفكر الاجتماعى السياسى ، والذى غاب كفكر أصيل يمثل حضارتنا ، هـو فـى النهايـة الرابـط الذى يجعل الزعامة / المؤسسة ، هى محـرك لنهضـة الامـة ، والجماهـير تظـل دائمـا هـى الصـانع الاوحد للنهضة . فالنهضة سلوك يومى ، وحياة ، ودافع ، وأمل ، وليست قـرارات واجـراءات وقوانين .

وزعامة عبد الناصر ، لم تتركنا دور خبرة أخرى ، فمع عبد الناصر دخلـت القوميـة العربيـة الى مصر ، وظهر متغير جديد بين المصرية والاسلامية ، هو العربية . وهو لم يكن غائبـا ، بقـدر ما كان ضمنيا . ولكن ظهور القومية العربية ، أضاف لنا معنى أن يتحرك الشارع العربى معـا ، فيصير قوة لايمكن أن نتصورها الا قوة تصنع المستقبل ، واضاف لنا معنى جديد هو العربيـة فـى مواجهة الاسلامية . وكان ذلك فتحا لصراع داخلى جديد يمزق كياننا . ولم يكـن ذلـك خطـأ التجربة الناصرية ، بل يحسب لها الجانب الايجابى ، اما الجانب السلبى فليس الا تعبيرا عن واقـع شعوب تدافع عن نفسها منذ زمن طويل ، فينخر الصراع فى عظامها ، ويفتتها صراع الوافد مع التراث ، فتتحول الى فرقاء يصارعون بعضهم البعض ، ويكون الوطن هو الثمن .

ولم يتركنا عبد الناصر ، الا ونحن نعجب مما حدث من نظامه وفى نظامه . فالثورة خرجت من المؤسسة ، اقامة مؤسسة / امة ، مؤسسة بديلة عن الامـة ، واسـتفحلت المؤسسـة الاداريـة ، بجناحها المدنى وجناحها العسكرى . ورحل نظام عبد الناصر ، تاركـا لنـا اشـكالية المؤسسـة / الزعيم ، التى تحكم بلا زعامة او مشروع ، والتى صار بينها وبين الشـعب ود مفقـود ، وعلاقـة غامضة ، لايصغها فكر اجتماعى ، بل واقع الاستمرار . فقد اصبحت مؤسسة شديدة الرخـاوة، ولكنها تحفظ وجود المجتمع ، بجرد وجوده .

نتصور ان ذلك حدث بسبب الاختـلال فـى كيـان الامـة . فالامـة المصريـة ، هـى شـعب ومؤسسة حاكمة وزعامة وفكرة حضارية ، أو ذات حضارية ، هى روحها ووجدانها وعقلهـا . وليس صحيحا ، حسب تصورى ، ان الفرعونية كانت دولة تستعبد الشعب . بل كانت دولة /

مؤسسة قوية ومنظمة ، تنظم الشعب ، الذى يتوجه نحو الملك /الاله ، ونحـو امبراطوريـة تبنـى، ومجد يرتفع بين الشعوب . والامة العربية ايضا ، فى امبراطوريتها العربيـة الاسـلامية العظمـى ، كانت شعب ، ودولة ، ودين يحمل آمال جديدة .

ولكـن الناصريـة كـانت عبـد النـاصر ، ولم تكـن مشـروع حضـارى يخـرج مـن احضـان المؤسسة، وذهب عبد الناصر ، وظل الشعب والمؤسسة ، التى لم تستطع تجديد نفسها ، وفقدت الزعامة و الروح ، أى القائد والمشروع . وتكتمل الصورة ، لان مشـروع عبـد النـاصر ، كـان " تنمية " على نمط غربى ، ولم يكن مشروعا حضاريا ينبع من الشعب ، فيعيش بالشعب ، حتى بعد وفاه الزعيم / الرمز ، فبقى الزعيم رمزا ، دون أن يكون كافيا للنهضـة ، ثـم ضـاع الزعيـم والرمز من عقل الامة ، حتى لا تظل تقول " لا " ، فكلمة " لا " فى زماننا حماقة .

أمس ... واليوم

بهذا ينتهى مشهد الماضى ، ونترك حقبة السادات ومبارك ، لمشهد الحاضر . ومـن خلال تلك الوقفات السابقة ، يمكن أن نخرج برؤية مرحلية ، نتـابع بهـا المشـاهد التاليـة . فقـد كان واضحا ، ومنذ الحملة الفرنسية ، أن قضية الاستقلال ، هى محور الحركة ، وأن الغرب يمثل القوة الرافضة لاستقلالنا . ولكن المعركة الاولى مـع محمـد علـى ، بـدأت ونحـن نملـك حضـارة اعتراها الوهن ، والمعركة الاخيرة مع جمال عبد الناصر ، انتهت وقد تم تهميش الحضـارة المميـزة لنا ، وأصبحنا نراهن على عالمية المعطى الحضارى ، وقابلية " التنمية " لاعـادة الانتـاج فـى كـل دول العالم ، وبنفس النتائج " المتقدمة " .

ولعل الصورة توضح ، كيف تداخلت قضية " التحديث " و " التنمية " مـن جـانب ، مـع قضية " الاستقلال " من الجانب الاخر . وفى مشاهد الحاضر ، صورة جديدة لهذه الاشـكالية ، بل ان قياس واقعنا الحالى على مستوى التحديث والاسـتقلال معـا ، اىعلـى محـك تجربـة محمـد على، وعبد الناصر ، لم يكن ممكنا فى تصورى دون الرجوع الى تاريخ القضية . فنحن فى زمـن نفقد فيه ذاكرتنا اختياريـا ، حتـى نسـتطيع التكيـف مـع الحيـاة ، لنسـتمر ، بمجـرد اسـتمرار قـد لايكون له معنى ، وقد يديننا التاريخ على قبولنا لهذا الوضع .

ومن صورة الماضى ، نخرج بأدوارمتباينة للمؤسسة والشعب ، ولثورات المؤسسات مع احمد عرابى وعبد الناصر ، وثورات الشعب مع سعد زغلول ، ولمشروع المؤسسة مع محمد على . وفى تلك النماذج ، نفتقد النهضة ، او انهاض حضارتنا ، باعتبار ان ذلك هو الهدف و الوسيلة. حتى وصلنا لحال ، نسأل فيه عن أهمية النهضة ، وماهى ذلك الشئ المزعوم الذى نسميه حضارتنا ، وماذا نسمى تلك الحضارة ؟ والسؤال الاخيرأصبح بالنسبة لنامن الاهمية بمكان ،حتى نترك مستقبلنا فى مهب الريح ، ونتفرغ للسؤال على هويه حضارتنا ، أو نتصارع حول وجود الخصوصية الحضارية ، فى مواجهة فكرة الانسان العالمى .

فإذا كانت تلك بعض ملامح صورة الامس ، فماذا عن صورة اليوم ؟ ماذا عن اللحظة التى لايراد لنا الخروج منها ، منّا قبل ان يكون من غيرنا ؟ ماذا عن اللحظة التى تصور لنا ، بانها المستقبل ، وأفضل مستقبل ، وانها نهاية التاريخ ؟!!

المشهد الرابع

الحاضر السياسي ... مؤسسة بلا مشروع

رغم أن الحديث دار ، وبعد أكثر من عشرين عاما على وفاة عبد الناصر ، وخلالها، حول الناصرية ، وتراوحت الاراء بين تأليه عبد الناصر ، واعتباره أكبر نكبة فى تاريخنا، الا ان مشهد يوم الوفاه يظل حكما فى التاريخ ، وعلى التاريخ . فاذا كانت القضية تدور حول تقييم دور عبد الناصر ، فإن المشهد دليل حى على فقدان الجماهير لهذا الدور . قد نحكم على التجربة بانها ذات اثر سلبى فى مجملها ، أو أثر ايجابى . وكلها احكام تحددها ادوار الحكام انفسهم وموقفهم من الحاضر . ولكن حكم التاريخ على يوم رحيل الزعيم ، مثل حكم المستقبل عليه . يؤكد ان فى ذلك اليوم فقدت امة العرب زعيمها ، وانها منذ ذلك اليوم ، لم تجد غيره زعيما . وقد يرى البعض ان زمن الزعماء قد انتهى ، واننا فى عصر الاقزام ، او انها طبيعة الحياة ، التى لاتنجب زعماء ، بقدر ما تنجب اليوم " أدوارا " تكتب صفحات فى التاريخ .

ايا كان التفسير ، فان عبد الناصر الزعيم / الرمز ، كان محور جمع شمل الامة ، جماهيرها ، قبل قادتها . ومنذ وفاته لم يجتمع للامة شمل ، ولم تخرج لها كلمة واحدة تجاه زعيم أو موقف او حدث . لم تخرج جماهير العرب الى الشوارع تحت اية راية . ولم يترك عبد الناصر ، للامة العربية مشروعا ، او نهضة ، تظل كلمتها معها . لقد كان رمزا اعظم بكثيرمن انجازاته ، وكان زعيما أكبر بكثير من نظامه .

وتواكب انكسار عبد الناصر ، مع الهزيمة فى ١٩٦٧ ، وموته جاء فى ١٩٧٠ ، وبعد ذلك التاريخ ، كان على مصر ان تمر بتجربة جديدة فى معركتها مع الحياة . وكانت تركة عبد الناصر متناقضة فى تكويناتها ، بموته مات الزعيم ، وبموته ترك النظام / المؤسسة ، او نقول ترك بداية الانكسار الطويل .

ففى فترة ما بعد عبد الناصر ، اصبحت الساحة رهنا بالتفاعل بين مؤسسة الحكم فى مصر، وبين ظروفها الداخلية والخارجية . وقد شهدت السبعينات والثمانينات ، تراجع متتالى لدور الشارع السياسى فى الحياة المصرية . كما كان اختفاء الزعيم ، مؤشرا لعودة الجماهير الى ثكناتها . وبدأت الساحة تفرغ تدريجيا فى حيويتها السياسية ، حتى تجئ التسعينات ، فلا تجد الشارع السياسى بالمعنى الذى شهدته مصر طويلا ، وبالشكل الذى كان له تأثيره خلال سنوات وعقود القرن العشرين السابقة .

بقيت المؤسسة فى النهاية ، منفردة بالساحة ، واصبح الحكم فى مصر ، هو نتاج دور المؤسسة الادارية ، بجناحيها المدنى والعسكرى . واذا بدانا بعهد السادات ، سنلمح بذور التكون والتشكيل للوضع الراهن اليوم . ان السادات كان زعيما ولكن بلا جماهير. كان زعيم مؤسسة ، ولم يكن زعيم شعب . وتغير لذلك وضع المؤسسة عن سابق عهدها فى زمن عبد الناصر . ففى حكم عبد الناصر ، توزعت الفاعلية السياسية بين المؤسسة والزعيم والجماهير ، ورغم اخطاء المؤسسة ، واخطاء الزعيم ، الا ان فاعليه الجماهير كانت تعبر عن نبض الشارع وأحلامه وأماله .

وكان انكسار الزعيم ، فى التفسير الاخير ، بسبب الزعيم ، او بسبب المؤسسة نفسها . وهنا خرجت الجماهير غاضبة ، بإعتبارها شريك ، لم يكن يملك حق القرار . وعندما جاء السادات ، فتح الباب لنقد الزعيم ومؤسسته ، وكان ذلك بداية للانفصال بين الجماهير والمؤسسة . فمؤسسة ادارة الحكم فى مصر ، هى العامل المشترك الحقيقى الذى يربط بين فترة عبد الناصر والسادات وحسنى مبارك لانها فى النهاية ، المؤسسة التى خرج منها الرؤساء الثلاثة، او خرجوا من جناحها العسكرى ، الجيش .

ولم يستطع السادات ، تحقيق الجماهيرية ، بل انه لم يهتم بذلك ، اى لم يهتم بتعبئة الجماهير ، كأحد مصادر قوة القرار السياسى ، سواء قبل حرب أكتوبر ، او قبل مبادرة السلام، ثم معاهدة السلام . لذلك كان السادات زعيما للمؤسسة . وزعامته فى النهاية ، تعبير عن تاريخه ونضالة السياسى ، الذى أكسبه بريقا سياسيا ، أحبه هو ، واستخدمه العالم (١) ، عندما وجد فيه الرمز العربى الذى يمهد للسلام ، ويمهد لكسر الحاجز العربى فى مواجهة الامتداد الرأسمالى العالمى .

وأهمية ذلك ، تكمن فى تلك المواجهة ، او المقابلة ، بين المؤسسة والشعب ، او الحكومة والاهالى . فتوزيع الادوار ، اقتصر فى النهاية ، على مؤسسة تدير شئون البلاد ، وشعب يستقبل اثر السياسات ، ويقف كمشاهد سلبى ، ينتظر لحظة الحكم على المؤسسة ، معها او ضدها . وحدث ذلك فى النهاية ، وبعد خطوات متتالية ، لها دلالتها الهامة . ففترة حكم السادات ، بدأت بحركة طلابية وشعبية غاضبة ، وهى استمرار لما حدث فى عام ١٩٦٨ ، وهو فى جملته تمرد الشعب واعتراضه تجاه المؤسسة ، وشعوره بخيانة المؤسسة لأماله وأحلامه .

هنا جاءت حرب اكتوبر ، تحقيقا لمطلب الجماهير ، واعادة لدور المؤسسة وهيبتها بين الجماهير . وبصورة متكررة ، تأتى اعادة هيبة المؤسسة عن طريق انجاز الجيش المصرى فى حرب اكتوبر . وان كانت الحرب لم تكن هدفا ، بل اعادة سيناء كانت هى الهدف ، ولكن السادات ايقن ان السلام لن يتحقق قبل ان تثبت مصر انها قوة فى المجال العسكرى ، ولهذا جاءت حرب اكتوبر ، لإعادة ما اغتصب بالقوة ، اى لا عن عقيدة عسكرية لحل الازمات ، ولكن كخطوة ضرورية لتحقيق السلام ، اعادة سيناء . وزعيم المؤسسة ، السادات ، ارتبط بتلك القضية واصبحت زعامته ، هى ان يعيد الارض المحتلة ، واقتصرت القضية ، على ان الزعيم هو الذى يقود المؤسسة لاستعادة هيبتها .

وشهد عام ١٩٧٧ ، اخر صراخ جماهيرى عنيف ، كما شهد مبادرة السلام ، وزيارة القدس . وكان التزامن دليل (٢) ، على ان العلاقة بين المؤسسة والشعب ، تحكمها توازن المنفعة والضرر ، فكلما استطاعت المؤسسة تحقيق انجاز واحد ، كلما كان الشعب اكثر صمتا، وليس بالضرورة اكثر رضاء .

هنا تغير الكثير على الساحة المصرية ، وكانت النقطة المحورية فى حركة المؤسسة ، هى هزيمة ١٩٦٧ ، انكسار المشروع وهى المرادف التاريخى لانكسار محمد على فى ١٨٤٠ . فبعد الهزيمة ، اصبح الشعار الحقيقى هو البقاء وآلياته هى الاجراءات الادارية للمؤسسة ، لتحقيق الرخاء (السادات) او التنمية (مبارك) . فكيف تحولت القضايا ؟!

أكتوبر والسلام

إن التحول لفكرة ازالة اثار العدوان ، بدأ منذ فترة حكم عبد الناصر ، وبعد الهزيمة مباشرة . وهنا تغير جوهر الصراع ، وجوهر القضية الاساسية . فالهزيمة فى حد ذاتها ، جاءت

لتنهى فكرة التنمية المستقلة والاشتراكية والوحدة العربية . وفى ذهنية حكام الثورة ، لم تكن الاشتراكية البديل الوحيد ، أو جوهر حركة الجيش ، ولم تكن الايديولوجية الوحيدة لثورة عبد الناصر . ولكن التنمية المستقلة والوحدة العربية بقيت باعتبارها العلامات الاهم فى المشروع الناصرى . انها باختصار ، محاولة اقامة كيان عربى يعتمد على البناء المؤسسى الحديث وله القدرة على ممارسة دوره فى المحيط العالمى . أى انها وبلغة اليوم ، جعل العربى ، " نمرا " أقليميا له مكانة دولية .

كانت الفكرة تدور حول زعامة عبد الناصر ، وتدور من خلال حزب البعث ، والكيانات الناصرية فى الدول العربية . لكن فى قلب الحركة ، فى مصر ، كانت عناصر الضعف المؤسسى، من جانب ، وطغيان الزعامة والجماهيرية ، من جانب آخر ، تطغى على المشروع نفسه . فلم ينمو المشروع كحركة جماهيرية عربية ، لها قوتها الذاتية ، التى تضيف وتحرك مؤسسة الحكم . فقد كان البروز الحقيقى لمؤسسة الحكم . ومن هنا جاء انكسارها فى ٦٧ ، وموت الزعيم ، اسبابا متتالية لبقاء المؤسسة بلا مشروع ، تحاول البقاء اولا واخيرا .

ففى فترة حكم عبد الناصر ، افتقدت الامة لعوامل النهضة ، وبقى التحديث على النمط الغربى ، باعتباره اجراءات مؤسسة فى اتجاه التصنيع . وكان مشروع عبد الناصر ، اى خطابه السياسى ، الاوسع مدى من حدود المؤسسة ، هو الاستقلال والوحدة العربية . وهذه العناصر غابت تدريجيا بعد الهزيمة ، وغابت تماما منذ موت الزعيم . ولم يبقى الا مؤسسة تحاول ان تكون ممثلة لدولة حديثة .

من هنا نستطيع فهم الخط الرابط بين اكتوبر والسلام ، فالحرب ثم السلام ، لم تكن عملية كفاح من اجل / مشروع ، وبالطبع لم تكن عناصر فى نهضة ، بل انها كانت اعادة لهيبة المؤسسة ، كممثل للدولة ، وحاكم للشعب . لهذا ضاع من حرب اكتوبر بريقها التاريخى ، ولم يبقى من السلام الا تميزه كمشهد لزعيم يعبر المتوقع الى ماهو غير متوقع (٣) .

ولعلى اجازف فاقول ، ان حرب اكتوبر فى ضمير مصر ، لم تستطع أن تحيل النصر الى ثورة فى الادارة والفكر والفن ، ولذلك لم يخرج لنا ادب ، فى قصة او رواية ، تعبر عن النصر ، تعبيرا وجدانيا عميقا . بل ان التعبير الفنى عن هزيمة يونيو ، كان ومازال ، أكثر صدقا كتجربة وجدانية أصيلة . ففى يونيو ٦٧ ، انهزم الزعيم والمؤسسة ، والشعب ، أما فى أكتوبر ٧٣ فكان النصر من نصيب المؤسسة ، من دون الشعب . لذلك لم تمحى حرب اكتوبر ، هزيمة يونيو ، بل

ان الشعب ظل مهزوما ، والمؤسسة مازالت منكسرة ، فالهزيمة جاءت لتحطيم مشروع / حلم ، ربط المؤسسة والشعب من خلال زعامة عبد الناصر ، اما النصر فجاء لاعادة الارض ، واعادة هيبة المؤسسة ، دون اعادة المشروع / الحلم ، ودون نشر مشروع اخر ، وبالطبع دون محاولة ، مجرد محاولة ، قيادة نهضة حقيقية فى البلاد .

كان نصرا عظيما للجيش المصرى ، ولكنه كان عبورا للمؤسسة ، ولم يكن عبورا للشعب. ولم تعد الجماهير تؤيد وتتحمس مرة اخرى ، بل تصمت ثم تتمرد ، ثم يختفى التمرد تدريجيا ، وتدخل فى حقبة الصمت الجماهيرى الطويل . وتبقى مؤسسة الحكم بزعامة السادات ، تعى درس الهزيمة جيدا ، وتعرف انها لن تبقى ، الا اذا استعادت الارض اولا ، وتصالحت مع العالم الغربى ثانيا ، وحاولت تحقيق مكاسب ما للشعب ، ثالثا . فدرس الهزيمة ، كان النهاية الفعلية للاستقلال ، وللتنمية المستقلة ، ولم يبقى من انجازات الثورة ، الا محاولة اقامة الدولة الحديثة ، أى " التحديث " أو " التنمية " بغض النظر عن الثمن .

أمريكا والرخاء

كان الخطاب الساداتى واضحا ، فيما يخص قضايا الوطن ، فالسلام مع اسرائيل،والاستسلام لامريكا والثمن هو تحقيق الرخاء للشعب . وحتى اليوم ، لم نخرج عن تلك الاحداثيات ، بل زادها انها اصبحت شعار العديد من الدول العربية ، ومرة اخرى ، يثبت لنا ان لمصر دور قائد ، وانها تقود عالمها العربى ، وتكون رمزه ومثاله ، ولكنها تقوده للنصر احيانا ، وللاستسلام احيانا اخرى .

ان مانتصوره اليوم ، عن قدرة السادات على سباق الزمن ، ليس الا نفعية شديدة ، جعلته يستسلم قبل غيره ، ويمهد لاستسلام الجميع . بل ان سلام السادات جاء ، عندما كان الكفاح من اجل التنمية المستقلة ممكنا ، فالاستقلال فى التنمية كان رهنا بوجود ثنائية ادارة العالم الغربى ، ورهنا بامكانية احداث التنمية المستقلة من خلال التعاون مع المعسكر الشيوعى ، ممثل المعارضة الغربية او ممثل الحلم المثالى الغربى ، التقدم والعدالة . وعندما يقدم السادات اوراق اعتماده زعيما لامريكا ، قبل ضياع فرصة التنمية المستقلة ، فان ذلك ليس الا استسلاما قبل الاوان .

ان ذلك يفتح لنا ملف مؤسسة الحكم فى مصر ، وما اصابها من وهن بعد انكسار المشروع / الحلم . فقد كانت الزعامة ، والمشروع الجماهيرى ، سببا وراء قوة المؤسسة ، الذى غالبا ما كانت تخطئ فى استخدام قوتها . ولكن هزيمة يونيو نالت من مؤسسة الحكم ، مؤسسة يوليو ان جاز التعبير . ولم يكن نصر اكتوبر فتحا جديدا لدور مؤسسة الحكم فى التاريخ المصرى ، فلم يكن سببا يدفع المؤسسة الى اعادة الجماهير من خلال توحد نحو هدف مستقبلى، بل كانت الحرب هى وسيلة السلام ، واستعادة الارض ، واستمرار المؤسسة .

ولعل انهيار المؤسسة فى حد ذاته ، قد عبر عن نفسه فى احداثيات هامة . ففكرة تعظيم الدور الامريكى فى السلام واعادة الارض ، ودوره فى تقديم المنح والقروض ، ودور الاستثمارات الاجنبية فى التنمية ، ثم تعظيم دور القطاع الخاص كلها عناصر تدل على تحجيم دور المؤسسة ، التى أصبحت السلطة المنظمة التى تحدد درجة دور كل جانب ، وتفتح الباب تدريجيا ، ليصبح التحديث فى النهاية ، مشروعا بين القطاع الخاص والغرب ، وتنظم الدولة العلاقة بينهما ، حتى تظل المؤسسة هى الحاكمة ، والمشرعة لكل التوجيهات .

وهنا جاء حلم الرخاء ، وتحت شعار الانفتاح ، أصبح كل شئ مباح . فالبداية كانت انفتاحا على الغرب ، وانفتاحا للقوى غير المنظمة للجماهير ، وانفتاحا على الديون . أى كانت البداية اطلاقا للعناصر بدون ضابط ، تلك العناصر التى اصبحت وسيلة تحقيق التنمية ، وهى تنمية تابعة شكلا ومضمونا . فقضية استقلال القرار السياسى لم تعد ذات جدوى ، بالنسبة للمؤسسة اضعف من ان تعبئ الجماهير لتساندها .

من تلك اللحظة اصبح التغريب هو العنصر الرئيسى الحاكم للتفاعل الاجتماعى الاقتصادى. فالتركيز على الدور الامريكى ، داعب خيال الجماهير نحو تحقيق الرخاء على النمط الغربى ، واصبح الحلم الجماهيرى ، حلما امريكيا ، وحلما غير منظم . ولم يكن ما يحدث بلا اساس ، فمنذ محمد على ، ومؤسسة الحكم تعمل من اجل " التحديث " . وتغيرت المراحل تبعا لقضية الاستقلال / الاستسلام تجاه الغرب . وعندما غابت هذه القضية تماما ، لم يبقى الا التحديث على النمط الغربى . وعبر كل المحاولات السابقة ، كان التحديث يبدأ فنيا ، ثم فى التصنيع ، ثم فى التشريع ، ثم فى الفكر . ولعل هذا يدفعنا الى تسمية المراحل باسماء مختلفة . ولكن الاهم من ذلك ، هو مدى انتشار وقوة النموذج الغربى فى الحياة . ففى عهدمحمد على ، نجد تقنيات فنية غربية ، ومنذ عهد اسماعيل تظهر فئات تعيش بالنموذج الغربى ، ومع ثورة ١٩

تبدأ عملية تحديث التشريعات ، وعملية تطوير الفكر ، ثم فى عهد عبد الناصر ، تستمر العملية اكثر ، فى مجال التنظيم المؤسسى والتشريعى ، وهكذا .

والتغير الهام ، فى نظرنا ، هو فى الكيف والكم معا ، فالاستفادة من النموذج الغربى على مستوى المنجزات والتقنيات والمهارات ، يختلف كيفيا ، عن نقل افكاره وقيمه .

وانتشار الفكر الغربى ، الى شرائح متزايدة من المجتمع يختلف كميا عن انحساره فى فئات محددة . وفى النهاية ، فان انتشار النموذج ، ليصبح مؤثرا على مستوى نمط الحياة السائد فى مصر ، هو تراكم كمى ، يؤدى الى تغير كيفى حقيقى ، اى يؤدى الى انهيار هيكل الحضارة ، وبداية ما نسمية بالتطهير الحضارى ، الذى هو شرط ضرورى لاعادة تنميط العالم من خلال النموذج الغربى ، وبمعنى اخر اعادة تأديب العالم .

ان اخطر ما فى الخطاب الساداتى ، كان حلم الرخاء ، اى مداعبة خيال الجماهير ، بما يمكن ان يتحقق لهم من ثراء ورفاهية . وخطورة ذلك تكمن فى ان الرفاهية المادية هى جوهر الحافز الذى صنع الفكرة الغربية . فكل مفردات الفكرة تهدف الى تحقيق آلية الحياة ، باعتبار ذلك وسيلة لتحقيق رفاهية الانسان . لذلك كان حلم الرخاء تفجيرا لطموح شره لدى الجماهير ، نحو تحقيق السعادة المادية . وبقى موقف الجماهير ، رهنا بمدى ما يتحقق من انجاز فى هذا المجال ، او مدى الاحباط الناتج من فشل تحقيق الرخاء .

لقد اصبحت الرفاهية هى المشروع غير المعلن لنظام حكم المؤسسة فى عهد السادات ومبارك . وهو ليس مشروعا جماهيريا ، بقدر ما هو الشرط الاساسى فى العهد غير المكتوب بين المؤسسة والجماهير . واذا اصبحت الرفاهية ، حلما مستحيلا ، سينتهى العهد ، وينتهى حكم المؤسسة .

مبارك ... !

كانت نهاية حكم السادات على يد فريق اغتيال ، فى وسط العرض العسكرى للجيش المصرى ، فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، ذكرى النصر ، علامة هامة على وهن المؤسسة الحاكمة ، وعلامة على تبلور صوت المعارضة فى التيار الاسلامى المسلح ، وبداية عهد

الاجنحة الثلاثة ، ان صح التعبير . فمنذ ذلك التاريخ ، تشهد الساحه السياسية تفاعل عناصر ثلاثة ، المؤسسة الحاكمة الرخوة (٤) ، والمعارضة الاسلامية المسلحة ، والجماهير الصامتة . ولكل منهم رهانه الخاص ، فالمؤسسة تراهن على استمرارها بقدر ما تستطيع تحقيقه من فكرة " الدولة الحديثة " . والمعارضة المسلحة تراهن على ضعف النظام وقدرتها على هزيمته . والجماهير تنتظر حلم الرفاهية والرخاء ، ولاتراهن ، ولكنها تصمت ، فاذا تحول حلمها الى حقيقة ، ستدافع عنه ، واذا فشل فستكون الصوت الذى يحدد شكل الحكم فى المستقبل . واكثر من ذلك ، اصبح تأييد النظام ، مرتبطا بمدى رؤية بعض فئات الشعب لهذا الحلم وامكانية تحقيقه ، وهو دائما تأييد مشروط ، وليس تحالفا ، وليس اشتراكا فى المسئولية . فالشارع السياسى ، تمزق ، وتواكب ذلك مع حالة التفكك الاجتماعى ، والضعف المؤسسى .

ومع بداية حكم مبارك ، اصبحت عناصر كثيرة ، اكثر وضوحا ، فى الخريطة السياسية المصرية . فالمؤسسة الحاكمة استقلت بالحكم تماما ، وغيرت من شكل الحكم من خلال ما يعرف بنظام الاحزاب . وهو تغيير فى الشكل فقط ، فالحزب الوطنى نفسه ، وهو حزب الاغلبية ، لايحكم مصر ، فهو ليس الا جماعة مصالح تربط مؤسسة الحكم بفئات من الجماهير ، وهى جماعة تقوم بدور الرعاية السياسية الانتخابية للحكم ، وان كان دورهما فى ذلك شديد الضعف . أما احزاب المعارضة ، فهى ليست بديل للحكم ، لآنه حكم المؤسسة وليس حكم الحزب . والاحزاب لن تكون بديلا عن مؤسسة ادارة شئون البلاد .

وهذا الشكل الديمقراطى ، لايحرك الجماهير ، وليس له ان يفعل ذلك . فهو ليس احياء لدور الجماهير ، واعادة الروح للمشروع السياسى ، وليس اسهاما فى تطوير الفكر السياسى الاجتماعى . اما المؤسسة الحاكمة ، فقد اضيف لها بعد جديد ، انها مؤسسة ادارية ، يديرها مديرها العام وهو فى التعبير الدستورى رئيس الجمهورية . بذلك اختزلت الحياة السياسية فى مصر الى عملية ادارية تشرع وتنفذ خطة " التنمية " ، وعملية امنية ، تحمى الجهاز الادارى .

إن خطورة ذلك ، تكمن ليس فى غياب المشروع السياسى ، بعد غياب النهضة ، بل فى غياب الخطاب السياسى نفسه ، ففى فترة حكم السادات ، اقتصر الحكم على الخطاب السياسى الذى يبرر توجيهات المؤسسة وزعيمها . اما فى فترة حكم مبارك ، فقد غاب الخطاب السياسى ، وحل محله الخطاب الادارى ، الذى يبرر التصرفات الادارية لجهاز الحكم ورئيسه .

وقد يتصور البعض ان ذلك هو الطريق الامثل لقيادة الدولة وحل مشاكلها . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالامم لاتنهض من خلال جهازها الادارى ، بل تحمى نهضتها من خلاله . ان الاصل فى تقدم الشعوب ، هو ظهور " حركة " تتحول الى نهضة ، والى ثورة ، ثم تقوم المؤسسة ، ومعها نظام سياسى ، ويكون دور المؤسسة هو تنفيذ مشاريع النهضة ، ودور النظام السياسى هو تطوير النهضة وتجديدها . وهنا تصبح النهضة نتاج حركة الامة اصلا ، وتعبر عن نفسها فى النظام السياسى والادارى ، وتصبح الدولة هى التعبير الامثل عن الامة ، ومنظم حركتها ، ومجدد نهضتها .

اما اختزال الحياة السياسية ، والفكر السياسى الاجتماعى ، وعملية النهضة التى هى أصل التقدم ، الى عملية ادارية بحته لتحقيق التنمية ، فهو مجازفة اتصور انها غير محسوبة ، ومغامرة بمعايير المستقبل ، تتجاوز حدود الامان .

والنمط الادارى لحكم مبارك ، اكسب فتره حكمه طابعاً مميزاً ، فقد اصبحت السنوات الماضية منذ ١٩٨١ ، بلا لون محدد ، فهى تمثل شكلا بلا ملامح ، اى ادارة بلا سياسة .وما يتبقى من ذلك ، فى النهاية ، هو مجموعة من الاجراءات يفترض انها تحقق الافضل للمجتمع المصرى ، وهى اجراءات فى خطة ، لها جدول زمنى . واصبح صمت الجماهير اليوم ، مرتبطا بالجدول الزمنى ، اى مرتبطا بالجرعات المنشطة والمحبطة التى يتلقاها الشعب . وهو نتاج ايضا لذلك الجدول الزمنى ، فالشعب يرقب تغيرات احواله ، تبعا للاجراءات الادارية ، وجدولها الزمنى .

ولعلى اسارع بالقول ، ان العلاقة بين الشعب والجهاز الادارى ، ترتبط بشدة بمدى ما يتحقق من امكانيات الحياة ، ومشكلة ذلك ، ان الجزء الاكبر مما يتحقق مرتبط بالجهد الفردى والحل الفردى ، ومرتبط كذلك بالتنظيم العرفى للاقتصاد ، او تلك المساحة الكبيرة لدور الاقتصاد السرى ، أو غير الرسمى ، وغير المنظم . ولقد بات واضحا أن محك نجاح الجهاز الادارى ، اصبح فى ايدى الافراد انفسهم ، فمدى نجاحهم فى المبادرة الفردية ، هو الذى يمكن الجهاز من الاستمرار ،وفشلهم يعجل بفشل الجهاز نفسه .

إن نظام مبارك ، قد اعتمد التنمية كهدف ونموذج ، يحدد دور المؤسسة تجاه المجتمع . ولكن بدايات عملية التنمية ، تختلف عن نهاياتها ، على الاقل ظاهريا . ففي البداية ، ظهر حسني مبارك ، وكأنه يميل الى التنمية المستقلة ، وذلك من خلال تشجيع التصنيع المحلي ، ووضع الحواجز الجمركية ، وتحجيم الاستيراد . لدرجة انه في الوعي الجماهيري ، أعاد صورة عبد الناصر ، أو طرح سؤال عن عودة الناصرية . ولكن هذه المرحلة شهدت ايضا ، اعادة بناء البنية الاساسية من خلال الديون الخارجية . وشهدت كذلك فترة جفاء بين النظام المصري ، وكل من الحكومة الامريكية (في عهد ريجان) والحكومة الاسرائيلية (في عهد شامير) .

وهنا يمكن ان نلمح محاولة في الاعتماد على الذات في التنمية ، مصاحبة لوجود انظمة حكم متشددة تجاه مصر ، خاصة حكومة ريجان ، مع ميولها الرأسمالية المتطرفة . والمشكلة هنا ، ان هذه الدرجة المحدودة من الاعتماد على الذات ، لم تأتي كتعبير عن مشروع للتنمية المستقلة ، ولم تخرج من خلال تعبئة جماهيرية ، بل كانت تعبير عن ظروف راهنة ، خاصة بعد رحيل السادات ، وما تركه من معارضة قوية ضد التحالف مع امريكا ، وضد السلام مع اسرائيل .

لذلك ، ومنذ نهايات الثمانينات ، تحول الوضع ، ومع تراكم الديون ، لتبدأ حقبه يميزها الدور الامريكي ، والاتفاق مع صندوق النقد الدولي . ومن هذه النقطة بدأنا في التنمية على الشروط الغربية الكاملة . فهل التنمية هي الحل ؟!

ان الصورة المطروحة علينا توحي ان الحضارة الغربية هي افراز لعملية التنمية . ولا اتصور ان التاريخ يؤكد ذلك ، بل ان صفحات التاريخ تؤكد ان الحضارة الغربية ، هي افراز نهضة شاملة ، قامت بها الجماهير ، وافرزت نظم وافكار ومبادئ وقيم ، هي التي تحكم عملية التقدم، وهي التي تحدد مراحل تجديد النهضة وتطويرها .

ثم ان الصورة المطروحة علينا ، توحي ان عملية التنمية ، سوف تجعلنا في النهاية جزء من العالم المتقدم ، ان لم يكن من دول الصف الاول ، فمن دول الصف الثاني ، بدلا من الثالث ، أو في الثالث بدلا من الرابع . وهو تصور يطرح التنمية كعملية ميكنة عالمية ، ليس لها علاقة بمفردات الزمان والمكان .

والتنمية فى عهد مبارك ، هى تنظيم لمفردات الخطاب الساداتى ، وتنفيذ ادارى لتصوراته، ولكن من خلال التخطيط " العلمى " ، والجدول " الزمنى " . والحقيقة ، ان التنمية بذلك ، هى نموذج للتقدم المعكوس ، الذى يبدأ بالبنية الاساسية ، وتحقيق الرفاهية والفرص لفئة من الشعب ، لتمثل الرأسمالية الوطنية . أى اننا نبدأ بمراحل فى سلم التطور ، حدثت متأخرة فى الغرب . والاشكالية الثانية ، فى التنمية ، هى انها مشروع فوقى ينفذه جهاز ادارى ، من خلال نخبة من الخبراء والاداريين ، ويحميه الفرع الامنى من الجهاز الادارى . وهكذا اصبحت القضية لاعلاقة لها بالجماهير ، الا من حيث كونهم مستقبلين لتأثيرات الاجراءات الادارية .

ويجب ان ندقق كثيرا فيما يحدث اليوم ، ونحن على ابواب الخطة الثالثة للتنمية . فالقضية ليست اختزالا ، تحقيق النمو ، ولكنها اصلا تحويل المجتمع . فما يحدث الان ، هو تغيير منظم للحياة المصرية ، من خلال القوانين والنظم والاشكال المؤسسية . والخطاب السياسى المباركى ، ليس خطابا سياسيا ، وليس خطابا عن المضمون ، ولكنه خطابا برجماتيا (نفعى) يتناول الوسائل والطرق ، والاهداف الظاهرية فقط . فنحن الان نعيش ما يسمى بنهاية التاريخ ونهاية الايديولوجية . وهو ليس الا تدويل النمط الغربى فى الحياة ، فى أكبر عملية أممية يقودها الغرب. ان كل قانون يتم تغييره ، يغير الكثير ليس فقط فى سلوكنا وفرص الحياة ، ولكن ايضا فى قيمنا وحضارتنا .

إن خطاب العهد المباركى ، هو خطاب " لامساس " ، فهو خطاب ينكر تماما اننا نتحول تبعا لشروط غربية ، الى نمط محدد سلفا وعلينا قبوله . وهو خطاب يتجاوز ، تجاهلا ، مضمون التغيرات التى تحدث ، والتى ستظهر اثارها أكثر فى المستقبل . بل إن الجدول الزمنى نفسه ، محدد من خلال قواعد وضعها " الخبراء " الاجانب ، وحددتها مؤسسات التمويل . والجدول الزمنى الحقيقى ليس مطروحا على الساحة ، خاصة بنوده الفعلية . ودور الحكومة الحقيقى ، ليس الا اطالة الجدول الزمنى .

فلا اتصور مثلا ان بداية خطة التنمية فى عهد مبارك باصلاح البنية الاساسية ، ثم تحولها فى التسعينات الى التعليم والاصلاح والتشريع ، مجرد ترتيب عفوى . لانه يعبر عن توجه الاموال المخصصة للقروض والمنح ، ويعبر عن اولويات الاجندة الغربية تجاه العالم الثالث . ففى الثمانينات كانت الهيمنة اقتصادية ، ترتبط بفتح ابواب الاستثمار ، وتهيئة المناخ للقطاع الخاص والاستثمار الاجنبى ، وذلك يحتاج الى " بنية اساسية " ، تمثل قاعدة لاستخدام الاستثمارات

الوافدة ، من اموال الاجانب ، أو أموال المصريين فى الخارج . ولكن الامر تغير ، بعد سقوط الشيوعية ، واصبح من الممكن للغرب ان يصبح حلا وحيدا عالميا ، بعد نهاية عهد التنافس بين طرفى الثنائية الغربية . وهنا يتحول الجدول الزمنى الى مراحل متقدمة ، تهدف الى تنميط مجتمعات العالم الثالث ، من اجل اعادة افراز النمط الغربى ، فى بيئات حضارية مختلفة ، ورغم اختلافها الحضارى (٥) . ومن هنا تأتى احلام الاممية والكونية فى المنظومة الغربية ، التى تبشر بعالم جديد ، تتحقق فيه الرفاهية - تدريجيا - للجميع من خلال النموذج الغربى ، ومن خلال التخلص من النماذج الحضارية الاخرى ، التى سببت تخلف شعوب العالم عن الغرب ، وهذا لايمنع من الاحتفاظ بملامح حضارية متحفية (٦) ، ولكنه لايمنع - ايضا - من خطر حدوث التطهير الحضارى ، أى من خطر تمزق الابنية الحضارية المحلية .

وليس من السهل ، من منظور اجتماعى حضارى ، فهم كيفية احداث التنمية فى التعليم على أحدث النظم العلمية المتقدمة ، وهو فى حد ذاته ، استمرار لتحديث التعليم الذى بدأ مع بداية القرن الحالى ، ولكنه وصولا بالتعليم الى مرحلة المطابقة مع النماذج " المتقدمة " . والتعليم حسب تصورى ، هو عملية تنشئة اجتماعية ، وتنميط معرفى وسلوكى ، تقوم بها الدولة ومؤسساتها ، امتداد لدور الاسرة ، ونتاجا لتعقيد الحياة المعاصرة . ولكن ان يكون التعليم ، بديلا عن الاسرة ، وان يكون على النمط الغربى ، بديلا عن النمط الحضارى المصرى ، فذلك - فى تصورى - نقل لمركز صنع القرار المستقبلى ، الى خارج حدود مصر . ولا أتصور ان حلم الرخاء الموعود ، مبررا كافيا ، أو تعويضا مناسبا على ما نحن مقدمون عليه .

إن التعليم فى الحضارة الغربية ، هو تنميط البشر حسب مواصفات قياسية ، تتطلبها حضارتهم ، وتقدمهم ، وقيمهم . وهى عملية تقوم بها الدولة فى حضارة ألغت تماما دور الاسرة ، لصالح الدولة ، بإعتبارها المنظم الاعظم ، والمسيطر الاكبر ، على تحقيق حلم الحضارة الغربية . والتعليم فى مصر ، وفى الماضى القريب وحتى الان ، أصبح نموذجا للتلقين المعلوماتى، الذى يؤدى الى توفير طاقة عاملة ، لديها المعلومات الكافية ، حسب أحدث ما انتجته مراكز الغرب من معلومات . والجوانب السلبية فى التعليم ، هى التى جعلت منه عملية تنميط جزئية ، أو مبتورة ، فظلت الاسرة والكيانات الاجتماعية الاخرى ، قادرة على فرض نمطها فى الحياة . بالطبع ، تواكب ذلك مع ضعف المؤسسات الحاكمة ، كممثل عن الجماعة / الامة ، فى مقابل تزايد قدرة التشكيلات الفرعية فى ممارسة دورها كممثل عن جماعة من الامة ، أو جماعة

مستقلة بذاتها . ولكن حل هذه الاشكاليات ، يجب ان يكون من خلال تحويل التعليم لاداة لنهضة الامة ، واداة لاعادة فاعلية الجماعة / الامة ، أو الامة الجامعة . كما يجب ان يكون التعليم ، هو الاداة الرئيسية فى اعادة احياء الحضارة ، وبالتالى اعادة تحالف عناصر التقدم المفقود ، الجماهير - المؤسسة - القيادة السياسية ، حول النهضة بإعتبارها تطوير التراث وتجاوز معطيات الحاضر ، ومن خلال فكر اجتماعى سياسى ، ينظم العلاقات ، ويحدد القيم ، ويعرف المعايير .

ولكن ان يصبح التعليم ، اداة للتنميط الغربى ، تحت دعوى تحقيق اخر ما وصل اليه العالم المتقدم ، فهذا رهان خاسر ، ومغامرة بمستقبل أجيالنا ، وربما يكون ضياع لآخر أمل . وليس التعليم هو المجال الوحيد للمأساه ، بل هو جوهرها ، ومعه تنتظم القوانين والتشريعات الحديثة ، أى تحديث كل شئ فى الحياة ، وهو ما يعنى ضمنا تحديث قيمنا ، فلا يمكن ان تغير استراتيجية الحياة ، أى منظومة الاساليب ، دون أن تكون بصدد تغيير القيم ، فهل قيمنا ايضا تحتاج الى تحديث ؟! .

دماء الخليج

إذا كنا نتوجه الى تنميه مصر ، وادخالها فى نادى الرأسمالية الغربية ، فان حرب الخليج ليست حدثا فى تلك القصة ، بل رمزا يبقى مع مستقبلنا . فالمؤسسة التى بدأت مرحلتها الاولى بنداء القومية العربية ، أكدت فى مرحلتها الثالثة وهم القومية العربية ووضعت الفصل الاخير فى صفحة الامة العربية .

إن ادانة غزو العراق ، لايجب ان تقل عن ادانة تدميره ، ولا يجب أن تتراجع عن ادانة قيادة أمريكا لحرب ضد دولة عربية ، وبمظلة عربية (٧) ، ومعها جيوش عربية . لقد كان ثمن حرب تحرير الكويت ، نصف ديون مصر ، ومعونات تفجرت فى عامى ٩١ ، ٩٢ (٨) ، ولكن الثمن الحقيقى للحرب ، هو القضاء على احتمال تجمع العرب مرة أخرى ، ذلك التجمع الذى يحمل معه أمة واحدة ، ويبقى بإستمرار كتهديد وخطر فى الادراك الجمعى الغربى .

ان الحرب العربية ، أو المأساة العربية ، تركت وراءها ، أنظمة تستسلم وتقبل كل الشروط، وقيادة فلسطينية مهددة بالافلاس ، وساحة مفتوحة لتكوين وحدة عربية على النمط الغربى ، وبقيادة اسرائيل ، وحماية أمريكا . أن المكاسب التى حققتها الحرب لاسرائيل ، وأمريكا ، كافية بلفت نظرنا الى دلالة تلك الحرب ، والتى لم تكن الا قرصنة أمريكية ، تفتح بها عهد قيادتها للاممية الغربية الرأسمالية . ولم نكن - نحن - فى هذه الحرب الا ادوات مرنة ، بات واضحا انها اصبحت جاهزة للاستسلام الكامل .

ولا اتصور اننا نحتاج أن نتكلم عن الحل العربى ، أو التحرير بجيش عربى ، فحسابات الانظمة أصبحت حسابات المنفعة ، والحل العربى سيكلفنا الكثير ، دون مقابل مادى . أما الحفاظ على أمل الامة العربية ، أن تظل أمة ، فلم يكن ثمنا كافيا .

ان ما حدث ليس تحقيقا لارادة الشرعية الدولية ، لانها لاتوجد اصلا ، والاما كانت دولة اسرائيل ، جرح غائر فى خريطة الامة العربية . فحرب الخليج كانت بالفعل اعادة تنظيم الاوراق العربية ، بعد أن اصبح انضمامها للرعاية الغربية ، ضرورة يفرضها الواقع ، فى نظر نظم واهنة . ان الخسائر الحقيقية لحرب الخليج ، تتمثل فى اضعاف الامة ، والقضاء على احساسها بذاتها التاريخية ، ووجودها الجغرافى .

لذلك كان اتفاق غزة - أريحا ، نتيجة طبيعية لحرب الخليج . ففى غفلة من الزمن ، اكتشفنا ان القضية الفلسطينية وهم ، وان الدولة الفلسطينية لم تكن هدفا ، وان الاعتداء الاسرائيلى هو عمل تستحق عليه اسرائيل المكافأة ، وان وجود دولة اسرائيل هو الاصل ، اما قيام دولة فلسطين فهو افتراء على التاريخ . وان المشكلة كلها فى الترتيبات الامنية ، والمصالحات الجزئية ، التى تتيح تدفق الاموال ، والاسراع بالتنمية ، وقيام السوق العربية الموحدة ، التى ماكان لها ان تقوم الاّ بسبب وجود اسرائيل ، التى مهدت لنا الطريق لنصالح الزعيم الغربى الامريكى ، ونصبح من رعاياه المخلصين .

واذا كان هذا المشهد يبدو جنونا ، فما يحدث يدفع للجنون . فمن حرب الخليج حتى اتفاق غزة / اريحا ، عرضنا كل قضايانا وشعاراتنا وتاريخنا ، وتبعا لآليات السوق ، حصلنا على الثمن المناسب . فهل هى قضية أم صفقة (٩)؟! وهل الثمن المناسب ، سيصنع لأمة العرب ، مستقبل أفضل ، ورخاء أعظم ؟!

ان حسابات النظم السياسية العربيـة ، والنظـام المصـرى ، لم تضـع فـى ترتيباتهـا متغـيرات المستقبل ، بل ان اصــرار النظـام المصـرى علـى تـأكيد الـدور الامريكـى ، ومعارضتـه لدعـاوى الانكفاء على الذات التى تخرج من امريكا نفسها ، لدليل علـى اننـا وضعنـا معظـم أوراقنـا فـى رهان على الحصان الامريكى ، وأى تغير جذرى فى موازيـن القـوى الدوليـة ، لكفيـل بضيـاع مستقبل أمتنا .

المشهد الخامس

وكلاء الغرب ... نخبة بلا أمة

إن مشاهد التاريخ لاتحكى فقط دور المؤسسة والشعب ، ولكنها تحكى الكثير عن المجتمع نفسه . ولن تكتمل الصورة ، الا بعرض نماذج ومشاهد من قلب التشكيل الاجتماعى المصرى ، خاصة تلك النماذج التى تمثل النخبة ، أو تمثل مؤسسات المجتمع غير السياسية . فى محاولة للاقتراب اكثر من نسيج المجتمع نفسه . تسجيلا لازماته ، وكشفا عن اسباب تراجع فاعليته . فنهضة اى امة ، او تقدمها ، تعبير عن فاعلية المجتمع وقدرته فى النمو ، وتفوقه فى تطوير امكانياته ومعطياته الحضارية والتاريخية والجغرافية .

ان النهضة ، هى وصف لحركة مجتمعية شاملة ، ابداعية فى اسلوبها ، تراثية فى جذورها ، جديدة فى نتائجها . فهى ببساطة ، توليد اشكال وتراكيب جديدة ، مستمدة من التراث ، تتجاوز مراحله السابقة ، فتؤدى الى انجازات جديدة ، والدخول فى مراحل حضارية جديدة ، من شأنها أن تكون أكثر فاعلية فى تحقيق الافضل للمجتمع . وهى آليات يعرفها التاريخ ، فى الثورات والنهضات الكبرى ، ويعرفها فى الثورات العلمية والتطورات المرحلية . ولسنا استثناء من هذا فى تاريخنا ، وفى مستقبلنا . وأى تطلع لمستقبل افضل ، يدور حول ظروفنا السياسية ، والاجتماعية معا ، أى يرتبط بفاعليات المجتمع ، بدأ من الدولة ، ومرورا بالنخب ومؤسسات المجتمع ، حتى الشعب نفسه . واذا كانت مؤسسة الحكم قد مرت بهذا التاريخ الحافل بالمحاولات السلبى منها والايجابى ، واذا كانت ايضا لم تصل فى مرحلة من المراحل الى تحقيق النهضة ، فان لذلك علاقة قوية بالطرف الاخر للتفاعل التاريخى السياسى ، وهو الامة ، وفى مقدمتها طليعتها من رموز ومؤسسات .

ربما يكون هذا المشهد ، اكثر المشاهد تعقيدا . ولكن يمكن الوصول الى بعض الملامح الهامة فيه . فالنخبة القائدة للامة ، ومنذ عهد محمد على مرت بالكثير من المراحل ، وتغيرت ملامحها مع ملامح المرحلة نفسها . ولكنها ظلت تتراوح بين نخب تجتهد ، ونخب تستغل الواقع .

والنخب فى النهاية ، تعبير عن المرحلة التاريخية التى يمر بها الشعب نفسه ، فهى افراز تطوره ، وافراز حركيته وحراكه ، وهى ايضا نتاج التفاعل بين اوضاع النظام السياسى ، وظروف الامة نفسها . ونتصور ان اى تطور حقيقى ، يبدأ بظهور تشكيل احتماعى جديد من داخل الامة ، يتطور بسرعة ، ويقدم رؤيته الجديدة ، ثم يقود الامة ، ويشكل نظامها السياسى . وهذا ما لم يحدث لنا ، منذ الصدمة الحضارية الاولى مع الحملة الفرنسية ، وهو فى نفس الوقت ، الامكانية التى يحملها المستقبل ، والتى تدعونا للبحث عنها ، ومدى احتمالها ، وكيفيه دفع أى بذور او توجهات أولية نحو ظهور نخبة تقود الامة .

فإذا كانت البداية بعهد محمد على ، فإن الحديث عن النخبة العثمانية الحاكمة ، قبله وبعده، هو حديث ذو شجون . فقد كانت النخبة العثمانية ، هى أخر حكام الامبراطورية العربية الاسلامية . وهى نخبة غير عربية ، وتمثل تشكيلات من أصول أوربية وأسيوية ، كما انها اقامت الامبراطورية العثمانية ، لا العربية . وبعد ذلك كان لها دور فيما عرف بعمليه التتريك ، ومما أدى لظهور الفكر القومى العربى فى الشام كدفاع ضد التتريك . كما ان القوة العثمانية ، فتحت المجال بين العربية والاسلامية ، فالاولى لاتجمعها ، والثانية تجمعها مع العرب .

ولا اتصور ان تقييم الدولة العثمانية ضرورة ، بقدر ما ان الخروج من الازمات التى طرحتها ضرورة . وقد تكون تلك الدولة ، هى نموذج لصعود نخبة عسكرية فتيه ، قادت الامبراطورية العربية الاسلامية ، فى بداية مراحل ضعفها . فأضافت لها انجازات فى مجال السلام والمعارك . ولكنها لم تضف لها جديد فى مجال النهضة ، التى توقفت منذ ذلك الحين ، و اغلق باب الاجتهاد ، ودخل العقل العربى الاسلامى فى ظلمة طويلة .

وفى حدود ذلك ، فهى نخبة عسكرية قادت الامبراطورية فى مراحلها الاخيرة . ولم تكن نخبة تحيى أو تجدد نهضة الامة ، التى كان اوانها فى الزمان قد جاء .

وتجربة محمد على ، استمرار لذلك ، ولكنها تمثل نموذج اكثر قدرة على التطوير ، مزج بين القوة العسكرية ، وتحديث الجيش ، وبين تحديث الدولة ، الذى جاء فعلا من المرتبة الثانية ، وربما نتيجة لتحديث الجيش . وبعد انهيار محمد على ، ترك مصر بلا طليعة تقودها .

ومنذ الحملة الفرنسية على مصر ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، سنجد رموزا كثيرة للكفاح الوطنى ، وهى علامات على نبض الامة ، وعلى مراحل كفاحها . ولكن التكون

النهائى لفئة ، او تشكيل اجتماعى ، قادر على قيادة الامة ، ظـل - ومـازال - الحـدث الغـائب فى قصة الصراع الطويل مع التخلف ، وأعداد الوطن ، معا .

ومع دخول الاستعمار ، بدأت تتشكل نخب تابعة للاسـتعمار ، وتكـون بذلـك تشـكيلات احتماعية متنوعة فى اصولها . فقد ظل هناك كيان يعبر عـن الامـة ، بمفكريـه وقادتـه ورمـوزه ، ولكنه ظل كيانا يتوارى تدريجيا ، وأضيف له كيان مقابل ، ينتمى للاستعمار أكثر مـن انتمـاءه للامة .

وأتباع الاستعمار هم فى النهاية فئة متعاونة معه ، وقضيتهم تنحصر فى دورهم فى مساندته وتأييده . ولكن مع تزايد عملية التغريب، أو التحديث ، أصبح للحضارة الغربية ، لاعملاء ، بل وكلاء وهم الفئة التى تبنت النموذج الغربى، وساعدته على نشـره ، وتصـورت - ومـازالت - انه الحل الامثل لمستقبل الوطن .

ولكنها نخبة بلا أمة ، فلم تتحول الى طليعة تقود الأمة ، ولم تقف وراءهـا الجماهـير ، بـل ظلت جزء من النظام الفوقى للمجتمع ، تتحالف معه من أجل تحديث مصر ، وتجد فـى الغـرب نموذجا تحتذى به ، ومصالح تتفق عليها . والادوار هنـا تختلـف . فـالمثقف الـذى ينـادى بـالفكر الغربى ، غير رجل الاعمال الذى يدخل فى منظومة التنمية الاقتصادية ، وتحالفاتها عـبر خيـوط النظام الراسمالى العالمى . ولكن الكل يشترك فى اقتناعه بالنموذج الغربى فـى الحداثـة ، وتختلـف الادوار بعد ذلك . ويهمنا هنا ان نقترب اكثر من ظاهرة النخبة بلا أمة ، بإعتبارها احد عناصر الواقع الحالى .

الوكيل الغربى

عندما نتناول الصراع بيننـا وبـين الغـرب ، او الصـراع بـين اتبـاع نمـوذج الغـرب فـى التنمية، وبين ابداع نموذجنا فى النهضة ، نتعرض مباشرة لاشكالية التحالف الذى يحمـى عمليـة تطبيق النموذج الغربى . فالقضية ليست حـول قـرار سياسـى ، ولكنهـا حـول آليـات معقـدة ، تتشابك فى نسيج المجتمع ومؤسساته . والتحالف النخبوى الذى يتبنى المشـروع الغربـى ، يمثـل فى الحقيقة الجزء الغالب من القوى المسيطرة على مقدرات المجتمـع . ولذلـك فـإن البحـث عـن مشروع أخر ، يعنى البحث عن نخبة جديدة .

وحدود ذلك التحالف الغربى ، تبدأ من خلال تبنى معظم الفئـات الصـاعدة فـى المجتمـع ، ومنذ بداية هذا القرن ، للنموذج الغربى ، بإعتباره مضمون مشروعها ، ووسيلة نجاحها . لذلك فهم وكلاء للغرب ، وهم مثل التاجر الذى لم يجد صناعات محلية يتاجر فيها ، فاستورد بضاعتـه من الخارج ، حتى يستمر عمله . والازمة الحقيقية ، تكمن فى ان تلك الفئات الصـاعدة ، هـى مشاريع ، او فرص محتملة ، للنهضة . ولكنها مشاريع لم تكتمل ، لان تلك الشرائح تحولـت الى تبنى النموذج الغربى ، واصبحت " تساير " العصر ، ولا تخلقه ، اى تســاير الظـروف المعـاصرة لها، ولاتحاول التغلب عليها (١) .

وعندما يكون التقليد مفضلا عن الابداع ، والاستيراد عن الانتـاج ، والانتـاج بالمواصفـات والاسباب العالمية ، عن أى انتاج مختلف وبمواصفات محلية ، عندئذ نكون بصـدد آليـات يسـهل ملاحظتها . فالنمو التدريجى لفئات متفرقة ، أو النمو السريع لفئة عريضة ، من أهم اسباب هذه الظاهرة .

بتعبير أخر ، فإن ظاهرة عدم انجاب المجتمع لنخبة يكون لها دور طليعى (٢) تجاه الأمة ، هو فى أحد أوجهه ، نتاج لعملية التنمية المشوهة ، اى عملية التحديث على نموذج تقليدى للغرب، دون أن يكون بالفعل مطابقا لنهضـة الغـرب .فمـع الصعـود الاجتمـاعى ، تتفتـح الفـرص امـام الفئات الطموحة ، فى اتجاه الدخول في النمـط السـائد ، والنمـط الاكـثر نجاحـا . ومـع تـوالى عملية التحديث ، أصبح الدخول فى النموذج الغربى ، هو الوسيلة لتحقيق الطموح .

والاختلاف بين عصر وآخر ، يكمن فـى مـدى الاندفـاع تجـاه النمـوذج الغربـى ، ومـدى التمسك بالتراث الذى لايسمح بكمال عملية التنميط . واذا كان الانفتاح على الغرب وفكره ، من أهم عناصر التطور فى مطلع هذا القرن ، فإن نفس الانفتاح لم يعـد لـه هـذا الـدور ، ونحـن على مشارف نهاية القرن . وايضا ، فإن تطوير الفكر السياسى على نمط غربـى ، ولكـن داخـل مشروع للاستقلال ، يختلف عن تطوير الفكر داخل مشروع للتبعية .

والاختلاف هنا ، من مرحلة الى أخرى ، أن البدايات تدخل فى لـزوم النهضـة ، والتعلـم ، والاحتكاك ، ولكن النهايات تعبر أكثر عن الخضوع للنموذج الاقوى . ففى بداية القـرن (٣) ، كان نشر الفكر الغربى ، وسـيلة لانهـاض العقـل ، وتثقيفـه وتعلمـه ، ولكـن تحويـل الفكـر الى عقيده، يمثل خطأ الانبهار الى درجة انكار الـذات . وفـى الحـاضر فـإن نشـر المفـاهيم الغربيـة ،

باعتبارها محكا للحياة ، هو تسويق لافكار ، من شأنها أن تشوه نمط حياتنا ، وتفقدنا القدرة على الحفاظ على قيمنا ، بل وتفقدنا القدرة - ايضا - على تمييز قيم الآخر .

وهنا يصبح دور الوكيل الغربى اساسيا فى الحفاظ على الوضع الراهن ، واستمرار مشروع تطبيق النموذج الغربى . واذا كان بعض مفكرو النصف الاول من القرن العشرين ، قد استقدموا الفكر الغربى ، فان بعض مفكرو النصف الثانى يتبادلون نشر الفكر مقابل تحقيق المصالح الخاصة .

وتلك ليست اشكالية فكر فقط ، بل هى اشكالية فى مجال العمل الاقتصادى ، والتربوى ، والعلمى (٤) ، وغيرها . فارتباط وكلاء الغرب بالنموذج الغربى ، يصاحبه ارتباط مصالحهم بالغرب ، وارتباط مصالح الغرب بهم . ومن هنا ينشأ التحالف القوى ، الذى يعد الاساس الحقيقى الذى يحافظ على عملية التغريب ، ويجعلها تستمر الى درجات خطرة .

ولعبة المصالح هنا ، تربط فئات من النخبة ، بمصالح عابرة للحدود ، وبذلك تعرض مصالح الوطن للخطر . وفى ذلك شكل من التضحية الحادة ، والتى قد تأخذ صوراً تتراوح بين العمالة مقابل المال ، الى القيام بدور الوكيل الغربى ، مع توفر النزعة الوطنية الكاملة ، أى مع الاعتقاد بأن تطبيق النموذج الغربى هو الحل الامثل لمستقبلنا . واذا كان الخطاب العربى قد درج على القاء اتهامات العمالة ، فإن الخطر الحقيقى ليس فى العميل لانه خائن للوطن ، بل فى الوكيل لانه وطنى ، وينتمى الى وطنه .

من جانب آخر ، فإن الوكيل التجارى ، الذى يرتبط نشاطه ونوعه ، بتحقيق مصالحه الخاصة ، ومصالح الشركات الاجنبية ، دون النظر الى المصالح الاقتصادية الوطنية ، هو نموذج أقل ضررا ، من الوكيل الفكرى ، الذى يريد للمجتمع أن يتغير فى حضارته وعاداته وقيمه . والقضية ليست فى القاء النقد فى وجه كل من يتعامل مع الغرب ، بل على العكس فى ذلك ، فإن التعامل والاحتكاك والتفاعل مع الآخر ، هو سمة الحاضر والمستقبل ، وهو ما نسميه بكونية النظام العالمى ، أى ارتفاع معدل التفاعل عبر الدول . ولكن المشكلة الحقيقية فى أساس التفاعل وهدفه ، وايضا فى معيار الحكم على أى علاقات تبادلية ، أى حدود التأثير والتأثر .

ولا يفهم من السياق ، أن الترجمة جريمة ، أو أن استيراد السلع خيانة . فإن تبسيط القضية يفسدها ، بل اننى أزعم أن تبسيطها جعل التعامل معها أصعب ، وشدة الصراخ تجاه الغرب ،

سمح للنموذج الغربى أن ينتشر أكثر ، فالصراخ فى مواجهة نموذج جاهز للتطبيق ، جعل الصراخ تعبيرا عن التخلف ، دون أن يكون وسيلة للحل .

ولذلك نحتاج الى ضبط المفاهيم أكثر . فالوكيل الغربى فى تصورنا ، هو من لا يجد من وسيلة لتحقيق طموحة ودوره ، الا من خلال تبنى المعطيات الغربية . وهو فى نفس الوقت ، من لايجد معيارا للتقدم غير المعيار الغربى . هنا يفقد الوكيل دوره أساسا ، لانه يتحول الى نخبة تقوم بدور اسقاط النموذج الغربى من أعلى ، دون أن يكون نخبة تقود الامة وتصلح أحوالها .

والمقابل للوكيل الغربى ، هو وكيل الامة ، الذى يحمل همومها ، كما يحمل قيمها ، ويحاول أن يقودها ، كى تخرج امكانياتها فى أشكال متطورة تحقق قيمها . ولكن الوكالة للغرب ، وكل أليات تطبيق النموذج الغربى ، باتت تقنعنا أننا أمة قد أفلست . وأكثر من ذلك أصبحت تصوراتنا السياسية الاقتصادية عن السوق الشرق أوسطية ، ليست فقط تراجع للخلف ، بل تراجع لاسفل ، واهدار لاخر مانملك ، موقعنا الجغرافى (٥) .

وتبقى النظرة النفعية المباشرة ، كدافع رئيسى لتفجر ظاهرة الوكالة للغرب . وذلك جزء من سياسة الدولة منذ عهد السادات ، التى وجدت أن التحالف مع الغرب يحل المشكلات الاقتصادية التى عجزت الدولة عن حلها . فالتحالف الغربى فى حملته ، عالج افلاسه ، وضراوة التحديات التى يواجهها ، وخروجه من انماط مشوهة للتنمية ، تفقده المعنى الحقيقى للكفاح ، وتغلب المصلحة العاجلة ، عالج ذلك باستيراد حل جاهز للتطبيق ومحدد المواصفات ، ومدفوع الثمن .

بين الاقتصاد والمال

إن مجال العمل والاقتصاد ، يمثل أحد الجوانب الهامة التى ساعدت على انحسار بدائل المستقبل . ففى فترة الاستعمار الانجليزى ، كان الاقتصاد رهين الاستعمار والقوى المتحالفة معه. ولذلك فإن فشل التنمية الرأسمالية فى السنوات الاولى لحكم عبد الناصر ، يعد نتاجا لترهل البناء الاقتصادى فى ذلك الوقت ، وانفتاحه وتحالفه مع المصالح الغربية ، عدا بعض النماذج المنفردة . ومع الاشتراكية ، تكون بناء اقتصادى على اسس غربية ، وظل فى يد الدولة ، مرتبطاً

بجهازها الادارى . وفى تلك الفترة ، قدمت الدولة فرص الترقى ، على نمط التحديث ، ولكنها كانت فرص منضبطة داخل سياق خطة الدولة ، وداخل سياج الاستقلال السياسى .

ولان الدولة فشلت – فى النهاية – فى القيام بهذا الدور والاستمرار فى ، فإن مجال العمل والاقتصاد ، انتقل تدريجيا ليد القطاع الخاص . ومن حيث الاساس التشريعى ، فإن هذا المجال تحكمه قواعد الاستثمارات الاجنبية ، ثم أليات السوق ، والتنافس الدولى ، وهكذا . أى أن الاسس نفسها تفتح الباب للنجاح ، بقدر تحقيق التفوق على معيار غربى .

هذا المناخ ، أثر كثيرا على الفئات الصاعدة فى المجتمع . فنتاج الحراك االطبقى السريع الذى شهدته مصر فى السبعينات ، بدأت تصب داخل احياء النموذج الغربى ، وتوسيع قاعدة انتشاره . ورغم تغير معدل الحراك فى الثمانينات والتسعينات ، الا ان النتيجة واحدة فى النهاية. فهناك نموذج تم فرضه بالقانون ، ثم فرص للحراك السريع غير المنظم ، تدفع فى النهاية بالجميع للحاق سريعا بركب الطبقات الاعلى ، وامتثال نموذجهم فى الحياة ، وهو ايضا نموذج التفوق العلمى والاقتصادى (٦) .

ان هذه العملية لم تضف للواقع وكلاء جدد للغرب فقط ، بل اضافت انماطا مشوه تخلط ملامح التراث بالنموذج الغربى ، فى اشكال ممسوخة . وذلك نتاج للتبنى السريع للنموذج الغربى ، ودون أصول عائلية ممتدة فى هذا الاتجاه . والغريب أن النظرة السائده لهذه العملية ، تميز ثرى الحرب عن الارستقراطى ، مميزة فى ذلك النموذج الذى توارث مفردات العصر ، وملامح الغرب ، عن النموذج الذى يحتفظ بملامح التراث والغرب معا .

واذا كان تجار السبعينات قد مثلوا قوة دفع تجاه مزيد من الانفتاح ، فإن تجارة الاستيراد نفسها ، ومع ضعف الحالة الاقتصادية ، أصابها الركود ، وتحول التاجر الى صانع . وأصبح هو نفسه ينادى بعدم فتح ابواب الاستيراد حماية للمنتج المحلى . والقضية ليست بالطبع فى الاستيراد، ولكنها بجرد نموذج هام . فالدولة وخضوعا لشروط صندوق النقد ، تعرض الصناعة الوطنية الناشئة للخطر ، ورجال الاعمال ، وهم من أهم وكلاء النموذج الغربى فى التحديث ، يضعون شروطا ما للتعامل . وان كان لذلك من دلالة ، فهو يكشف عن الادوار المتباينة ، بين الدولة والنخب . فجماعات رجال الاعمال ، تدفع نحو تطبيق النموذج الغربى ، ولكنها ومع تزايد قوتها ، تحاول أن تدخل بندية فى نادى الراسمالية العالمى . ولكن الدولة فى المقابل ، تطبق الاجراءات الاصلاحية الغربية ، دون أن تكون وعاءً حقيقياً للفكر الغربى ، ودون أن تكون

مؤهلة للمنافسة مع الدول والانظمة الاخرى . فمازال كيان الدولة خاضعا لتاريخه ، مرتبطا بمصالحه ، أكثر من كونه يخضع هو نفسه " للتحديث " .

على الجانب الاخر ، فأن جماعة رجال الاعمال ، تعمل من أجل نقل النموذج الغربى كاملا . فتنادى بالديمقراطية والليبرالية ، وتنظم نفسها كجماعة ضغط (٧) ، تعمل على تحويل جملة النموذج الحياتى المصرى ، الى نمط آخر حسب مواصفات النموذج الغربى (٨) . وتلك التباينات فقط بمجرد تنويعات على نغمة واحدة ، ولكنها جزء من الصراع داخل النخب الحاكمة .فالدولة المصرية ، من حيث هى مؤسسة لادارة شئون البلاد ، تعلم ضمنا أن التغريب الكامل ، سوف ينهى عمرها فى قيادة مسيرة الحياة ، وسوف يفتح المجال أمام الديمقراطية بأحزابها ، ومن خلالها تصبح جماعات المصالح والمؤسسات الكبرى هى الحاكم الحقيقى ، من خلال تحالفها ، وتنافسها على أصوات الناخبين ، كما يحدث فى العالم الغربى (٩) . وهذا يعنى تغير فى تصور الدولة نفسها ، من النمط المؤسسى الادارى ، الى النمط السياسى ، حيث يعبر عن نفسه فى تحالفات رجال السياسة والمال والاقتصاد مع مؤسسات الحكم ، وشركات انتاج السلاح ، وغيرها . ويصبح الجهاز الادارى هو المنوط به تنفيذ ما تقره تلك التحالفات من سياسات .

وتلك القوة الاقتصادية الدافعة الى تغيير نمط الحياة ، والضاغطة على النظام السياسى ليسرع فى التغيير ، أصبحت حلقة الوصل ، ، أو حلقة وصل بديلة ، بين النظام الغربى ، والنظام السياسى فى مصر . وهى سمة هامة فى علاقات اليوم ، حيث نجد أن بين شرائح المجتمع ومؤسساته ، بعض القوى الهامة فى التحالف مع الخارج ، وهى احيانا بديل يراهن عليه الغرب، عندما يكون النظام السياسى عقبة امام تطلعات الغرب لمستقبلنا ، ومستقبل العالم .

والامر لايتوقف عند هذا الحد ، فالمجال الاقتصادى أصبح من أكثر المجالات حساسية ، بسبب ذلك الكم الكبير من المفاهيم بإعتبارها بديهيات علمية ، أو نتائج عملية لايدخلها الشك. ولان الحكومة قد أقرت التصورات الغربية الراهنة ، والتى يروج لها رسميا من مؤسسات الغرب ، فإن ذلك طرح تصور مشترك للعمل ، بين الدولة والغرب ، وبين النخب والغرب ، ثم بين الدولة والنخب . واقتصاديو اليوم ليس هم اقتصاديو الانفتاح فى السبعينات ، بل أصبحو أكثر نظاما وقوة ، وأصبح لهم معطى فكرى ، وطرح سياسى .

تلك العناصر معا ، والتى تغرقنا فى تفاصيل الاساليب الاقتصادية المثلى للتطور ، تدفع عجلة المجتمع نحو التغير السريع والمنظم ، وهو سريع رغم تدريجية القوانين ، لانه بمقياس التأثير ، يترك بصماته على المجتمع كله ، وعلى مستقبله ايضا . والحقيقة ، ان المهندس الحقيقى لهذه العملية هو عاطف صدقى رئيس الوزراء(١٠) . والذى يعد استمراره ، تأكيدا على استمرار الخطة حتى مراحلها النهائية . ولانتصور أن المراحل النهائية ، هى خفض معدل التضخم ، أو الخروج من الكساد الاقتصادى ، أو ارتفاع معدل الدخل القومى الاجمالى .. الخ . لان النتائج النهائية ، هى تغيرات هيكيلة لافى بنية الاقتصاد فقط ، بل والاهم فى بنية المجتمع المصرى . وهو ما يسمونه البعد الاجتماعى للتنمية ، وهو فى تصورنا الاثر النهائى والحقيقى للتنمية . وترك هذا الجانب دون أن يتم تخطيطه ، ودون تحديد الشكل الاجتماعى الجديد لمجتمعنا ، هو تفكيك لخطة التنمية الاقتصادية من مضمونها ، وهدفها . فالتغير الاجتماعى هو الهدف النهائى، لانه ببساطة هو التحول الى نموذج حياتى جديد يعبر عن نفسه فى الاشكال الاقتصادية التى يتم تشكيلها الان ، فتصبح التنمية الاقتصادية – بعد ذلك – افراز طبيعى لهذا النموذج الجديد . ولكن تغير المجتمع بهذه الصورة .، عمل محفوف بالمخاطر ، لانه ليس تغيرا للمجتمع حتى ينهض، ولكن تغيرا للمجتمع حتى يتلائم مع النموذج المفروض عليه ، والذى لايعبر عنه ، وبالتالى فهو تغيير قصرى لبناء المجتمع ، ودفع عنيف للكيان الاجتماعى للامة ، نحو تحول يخرجها عن ذاتها ، ويخرج عن اطار كيانها التاريخى الحضارى ، وايضا كيانها الجغرافى .

صناعة عقل الأمة

إن المناخ الثقافى المعاصر ، هو المسئول عن صناعة مفردات عقل الامة ، وطرح امكانيات اكتشاف مستقبلها . وما يحدث الان فى الوسط الثقافى ينذر بالكثير من الخطر فى المستقبل . والحديث عن عقل الامة ، له طبيعته الخاصة فالنخبة المثقفة هى فى التحليل الاخير، تعبير عن احوال الامة كلها . وهى صورة مصغرة لكل ما يحدث فى حياتنا .

فإذا كانت اشكالية ازدواجية الموقف من الغرب ، هى الجذور التاريخية لتكون عقل الامة ، فإن أوضاع النخبة حاليا ، تطرح الازدواجية فى صورة مخيفة . فمفردات الخطاب الثقافى اليوم، تقدم العديد من الصور المتباينة فى درجاتها . وكلها تتفق حول رفض الغرب وقبوله فى أن

واحد . وكأن الاختيار فى النهاية ، أصبح بين بدائل غربية ، واقتصرت القضيـة علـى أى بديـل أفضل ، او ايهما يتيح لنا قدر من الوجود المستقل .

وأصبح من السهل أن تجد من ينـادى بالديمقراطيـة ، ويهـاجم امريكـا لاسـتخدامها سـلاح الديمقراطية للتدخل فـى شـئون الاخريـن . وأخـر يؤكـد علـى توحـد الكـون ، وسـيادة النظـام الشرعى العالمى ، ويرفض مسخ الحضارات المحلية . وكأنها مشكلة وأزمة السباق العالمى ، التـى تدفعنا للدخول سريعا فى تيار العصر وفـى نفـس الوقـت الخـوف مـن أن يجرفنـا التيـار فينتهـى وجودنا من خريطة العالم .

لقد أصبح الغرب ، فى عقل الامة ، ضرورة نتوحد معها ، وضرورة نهـرب منهـا ، وبقـدر شدة الاتجاة نحو التوحد والهرب معا ، بقدر ما تزيد أزمة العقل ضراوة ، وبقدر ما ينبئنا بخطـورة المستقبل . فالتوحد مع نمط الحياة العالمى ، والهروب فى هيمنة الغرب ، هو درب من المستحيل. فكلاهما جزء من منظومة واحدة .

إن اشكالية النظام العالمى الجديد ، أو الكونية العالمية الواحـدة ، نبعـت مـن سـيادة امريكـا اولا، ثم من سيادة نمط التقدم التكنولوجى الاقتصادى ثانيا . ولكن الاطروحة تخلط بين التصور المثالى ، لكون واحد منظم متعاون ، وبين تنميط العالم على النمـوذج الغربـى . فـالمطروح علـى الساحة الان ، هو تنميط العالم ، او اعادة تنشـئته حضاريـا ، فـى نمـوذج واحـد ، تحـت هيمنـه غربية / أمريكية .

أما اعادة تنظيم العالم ، فى سياق التعددية ، فهى فكرة تحتـاج منـا أن نتبناهـا ونضيـف لهـا معانى جديدة . فتصور العالم فى سياق التعدد الحضارى ، والتفـاعل الـدولى المنظـم ، يمكـن أن يكون شكلا جديدا ، يحـول الصـراع الاسـتعمارى النزعـة للتنـافس الحضـارى ، لعـالم متعـدد الحضارات ، ومتعدد النماذج .

ولكن معطيات الواقع ، تؤكد على مثالية الصورة السابقة ، وان مـا يحـدث الان ، يفـترض فيه أن يكون وسيلة لتسييد النمط الغربى ، وفىافضل التصورات ، هـو تسـييد لهـذا النمـط مـن أجل رخاء العالم أجمع ، وان كان الثمن هو التضحية بالتميزات الحضارية . وهـى فكـرة تصـور النمط الغربى على انه نهاية انجازات البشرية . ولا اتصور لإنجازات البشرية مـن نهايـة ، الا مـع نهاية الحياة على كوكب الارض .

أما تصور المستقبل باعتباره تجاوز للتميز الحضارى ، فهو تصور يتجاوز قوانين الطبيعة نفسها ، ويتجاهل قوانين الجغرافيا ، ومهما كان دور التكنولوجيا ، فلن يكون توحيدا للظروف الجغرافية على مستوى العالم ، الارض والماء والمناخ ، وبالتالى فإن صناعة الانسان الاقتصادى العالمى ، ليست الاتنميطا قصريا لجموع المنتمين للحضارات الاضعف .

ان المشكلة الحقيقية ، فى النخبة المثقفة انها تطرح فى الواقع المشكلة ، ولاتقدم طرحا تقود به الامة فى المستقبل . فالخطاب الثقافى المعاصر ، يقدم مفردات الحلم الغربى ، مع تحفظات محلية ، هى ربما تحفظات من أجل دورنا العالمى فى هذا الخطاب ، او تحفظات من اجل التحذير او التنبية من احتمال سقوطنا فى نموذج يفقدنا كل ما يميزنا .

ولكن جملة مفردات الخطاب الثقافى ، جعلت من الصعب ، وربما من المستحيل ، ان نميز بين نظام القيم الخاص بنا ، واى نظام قيم اخر ، وجعلت مفردات الحوار نفسها ، تخرج عما تحمله من دلالات اجتماعية تاريخية ، لتصيربعض مفردات اللغة العربية حاملة لمفردات النموذج الغربى .

وتمتد تلك المشكلة الى المجال العلمى ، الذى وقع اسيرا للمناهج الغربية ، فاصبح وسيلة لا لإكتشاف حضارتنا ، أو إكتشاف انفسنا ، بل وسيلة لقياس اوضاعنا على المعيار الغربى ، اى قياس درجة نمونا ورشدنا تجاه تحقيق النموذج الغربى . فالعلم الموضوعى المعاصر ، متحيز للحضارة التى خرج منها ، ومتحيز للنموذج الذى وجد من اجل تطويره . ولذلك أصبحت لغة " مؤشرات التقدم " من أشد اللغات خطورة ، فهى تسمح بقياس التقدم على معيار واحد ، متحيز أصلا ، وغير متلاءم مع الطبيعة الاجتماعية للمجتمع المصرى . ولذلك فقدت الالية العلمية دورها ، بإعتبارها احد عناصر النهضة ، واسلوب لتقنين معارف الامة عن نفسها وعن مستقبلها .كذلك فقدت الالية العلمية قدرتها حتى عن كشف نتائج الاصلاح الاقتصادى الحالى، على بنية المجتمع المصرى فى المستقبل .

مع هذا فإن النخبة المثقفة ، مازالت تجادل حول مفردات المستقبل ، وحول شروط الانضمام لنظام الكون المفتوح ، ومازالت تتحفظ تجاه تجاهل تراثها . وهو استمرار لانجازات ثقافية طويلة ، عبر القرن العشرين ، تلك الانجازات التى تعبر عن نفسها – فى تصورى – فى الادب والفن بمختلف روافدهما . ففى مجال الادب والفن ، هناك عشرات النماذج التى تعلمت من فنون الغرب ، واخرجت فنا مصريا عربيا صادقا . ولعل نجيب محفوظ ، يكون رمزا لذلك ،

فمحلية ادبه التى يتحدثون عنها ، هى فى النهاية تعبيرا صادقا عن ذاتها الحضارية . ولم يكن نجيب محفوظ ، عبر تاريخه ، نجما فى وسطنا الثقافى ، لانه كان فى نظر البعض يقدم فنا شعبيا ، وللاسف فقد رفعنا قدره ، بعد اعتراف العالم به . وللاسف ايضا فإن تجربته لم تنل حظها من الدراسة ، وتحولت المعارك حوله فى نطاق ذلك الصراع التقليدى فى مناخنا المعاصر ، اى الصراع بين العلمانية والدينية . فى حين أن نجيب محفوظ ، يطرح فى تصورى ، اشكالية الخصوصية الحضارية فى مواجهة التغريب ، وهو على اية حال ، جزء هام من الظاهرة الادبية الفنية ، التى استخدمت منجزات الآخر ، فى صنع انجاز " محلى " يعبر عنا بصدق .

المجتمع المدنى

إن الحديث عن المجتمع المدنى ودوره فى التنمية والتقدم ، ودور المؤسسات الاهلية فى مستقبل مصر ، يفتح المجال أمام دراسة دور المجتمع ، وكذلك أمام إطلاق قوى المجتمع . وامام ذلك التعبير " المجتمع المدنى " ، عبر كثير من الفرقاء عن تحيزهم للمصطلح ، وظلت بعض المخاوف كامنة .

والغريب أن النخبة عندما أطلقت هذا المصطلح ، كغيره ، أطلقته بسبب تزايد الاهتمام " العالمى " بالمصطلح وتخصيص قدر كبير من الاهتمام به . واذا تابعنا مصدر المصطلح ، فإن المخاوف الكامنة ستنفجر . فنتصور اننا نبحث عن الفرصة الضائعة ، فرصة خروج نخبة تقود الامة نحو التطور . ولكن الحديث عن المجتمع المدنى ، جاء من خلال دراسات غربية ، فتحت هذا المجال ، اعتقادا منها ان قوى المجتمع المدنى ، قد تكون من أهم عناصر " دمقرطة " العالم و " تنمية " العالم . ومرة أخرى يصبح المجتمع المدنى أحد وسائل ترويج النموذج الاوحد . بل ان ذلك تواكب مع رغبة المؤسسات الدولية فى التعامل مع المؤسسات الاهلية ، وتخصيص مزيد من الاموال لها .

فالمجتمع المدنى فى التصور المعاصر ، هى نخب نشطه شعبيا ومنظمة ، تدفع المجتمع لتبنى الديمقراطية . فى حين ان دول العالم الثالث ، تتوقف عند شكل الديمقراطية أكثر من مضمونها. كذلك فإن المجتمع المدنى يشمل المؤسسات الاجتماعية ، التى اصبحت تمثل محرك مهم لعملية

التنمية . وفى نفس الوقت ، فإن الدولة تقتصر على اجراء التنمية ، دون ان تركز علـى " قيـم " التنمية .

وتواكبت تلك الموجه ، فى مصر ، كما في غيرها ، مع ضعف الانظمة الحاكمة ، وضعـف تأثيرها الجماهيرى . واذا كان ضعف المؤسسة يدفع المجتمع للحركة ، كمـا فـى ثـورة ١٩١٩ ، فإن ضعف المؤسسة الان ، دفع لتحريك الشعوب من خلال التعـامل المباشـر مـع المجتمـع، ومـع التخطى النسبى للدولة . وايا كانت درجات تحقق هذا التصور ، فهو ينطوى على مخاطر كثيرة. لانـه يعنـى دفـع المجتمـع نحـو التنميـط الكـامل مـن الدولـة والنخـب والمؤسســات الاجتماعيــة والاعلامية، اى انها عملية تنميط شـامل ، وهـى ايضـا عمليـة " غسـيل مـخ " متكاملـة . ومـن جانب اخر ، فإن دفع عناصر مختلفة من قبل الغرب داخل المجتمع ، قد يؤدى الى تعجيل تفككه، وخلق صراعات حادة داخلة ، خاصة عندما يتخلف فريق عن عملية التنميط ، وينقلب عليهـا ، وخاصة اذا كان هـذا الفريـق هـو الدولـة / المؤسسـة نفسـها . فهنـا سـتأتى قـوى التنميـط مـن تكوينات اجتماعيبة ، وتدفع فى اتجاه الرؤية الغربية ، وضد كيان الدولة . وان لم تحدث الصورة بهذه الحدة ، فالعملية نفسها ، تضيف تفكك جديد ، وضعف جديد لكيان الدولة (١١) .

وهكذا ، فإن التحول للاهتمام بالمجتمع المدنى ، ومؤسساته ، ليـس الا تحـولا فـى القنـوات والاساليب ، ودفعاً للديمقراطية والتنمية ، من خارج نطاق الدولة ونفوذها ، ومن خارج النخبـة الحاكمة . وهى محاولة تؤكد على أن الغرب يتصور للانظمة الحالية بديل ، فـى نخـب جديـدة ، وجماعات ضغط ، تكون قادرة بحكم توحدها مع النموذج الغربى ، على تحقيق التنميط الكامل، ونزع الاشكال التقليدية والتراثية .

فالمجتمع المدنى الصاعد اليوم ، هو النخب الليبراليـة ، التـى تدفـع فـى اتجـاه طـرح الليبراليـة كتصور مستقبلى لمصر . وتدفـع الحكومـة نفسـها لمزيـد مـن الاندمـاج السـريع ، مـع مفـردات النموذج . ولهذا ظهرت علـى السـطح ، نخب ورمـوز ومؤسسـات ، أصبـح لهـا دور متزايد ، وأصبحت قـادرة على إكتشـاف مسـاحة معقولـة لحركتهـا . والحكومـة هنـا ، تؤيـد أحيانـا ، وتتخوف احيانا اخرى . فهى تؤيد لان الدولة والنخب وقوى المجتمع المدنى ، تعمـل فـى نفـس الاتجاه . ولكنها تتخوف من منافسة القوى الاخرى ، لقوة المؤسسة ، أو صعود النخب الجديدة لتكون النظام السياسى الذى يحكم المؤسسة نفسها ، ويهمش النخب الحاكمة الآن ، والتى تدير شئون المؤسسة ، وتمارس سيطرتها على شئون البلاد .

واذا كان الحديث عن المجتمع المدنى ، فأين الجماهير ، أعنى ملايين المصريين . ان الرهان على حركة المجتمع المدنى ومؤسساته – فى تصورى – هو رهان على كسب الجماهير فى صف عملية التنميط ، فلا تبقى كمجرد مشاهد ينتظر ما يتحقق من رخاء ، بل تصبح قوة تدفع فى اتجاه التنميط الكامل ، وفى ذلك ان تتنازل عن اشكالها التراثية ، وتندفع فى النموذج العالمى للحياة ، محققة بذلك التطهير الحضارى .

ويبدو ان الجماهير ، ستكون الحكم فى النهاية ، فإذا قبلت نمط الحياة الجديد ، وقبلت النموذج العالمى للحياة ، متصالحة مع الغرب ، فإن التنميط سيتحقق وربما الرخاء . ولكن ان ظلت الجماهير ترى الحياة بمعنى مختلف ، وترى السعادة بمفهوم مغاير ، وترى المستقبل بأحلام خاصة ، فإن الصدام بين القوى الدافعة للحركة فى المجتمع ، سيكون عنيفا .

نخبة الأمة

إن الرؤية المباشرة للشارع المصرى ، تطرح عشرات الصور من التراث ، كما تطرح صور متنوعة للنموذج الغربى . وفى قلب المجتمع ، أو قاعدته ، أمة لها تراث ، ولكنها ممزقة ، وتعانى من ظروف الحياة الصعبة . وفى عقل المجتمع ، أو قمته ، نخبة مالت بدرجة أو أخرى الى التوحد مع النموذج الغربى . تلك هى الصورة ، وفى بساطة عناصرها ، تكمن واحدة من ملامح الازمة . فبين العقل والقلب ، وبين القمة والقاعدة ، شرخ يحمل الكثير من قصة الصراع، ومشاهد التاريخ .

فهل تحول النخبة المجتمع الى نموذج جديد للحياة ، أم تخرج من المجتمع نخبة تحمل هموم الامة معها ، وتخرج التراث القابع فى القاعدة ، وفى القلب ، لتصنع منه نهضة حقيقية ؟ وهل ندخل العالم الكونى الجديد ، كقوة حضارية تدفع نحو التعدد الحضارى ، وتقاوم الصراع الحضارى والتطهير الحضارى ، أم نستسلم للتطهير الحضارى ، ونتوحد مع الانسان الاقتصادى العالمى ، المعطى النهائى ، والمشروع الاممى للحضارة الغربية ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال تكمن فى محاولة ، يمكن ان نعتبرها رياضة للعقل ، والاصح انها رياضة للارادة ، وهى محاولة النظر الثاقب داخل ذاتنا الحضارية ، وقيمنا ، وصور التاريخ ،

ونماذج الحياة االمصرية والعربية ، وداخل الطبقة الشعبية ، والكيان الريفى ، وربما داخـل قصـص نجيب محفوظ عن الحارة المصرية .

فإذا خرجنـا مـن تلـك الرحلـة بصـورة للمصـرى ، تؤكـد أنـه سـلبى ومتخلـف ومتبلـد ، وكسول، وغير متحضر ، فإن ذلك يعنى أن عقـل الامـة قـد انفصـل عنهـا ، وعـن قلبهـا ، وان سنوات التغريب الطويل قد نجحـت ، وان التطهـير الحضـارى لـن يفـرض علينـا ، بـل سـيكون اختيارنا .

ولكن اذا خرجنا من الرحلة ، بمعطى اخر ، عن كفاح المصـرى وصلابتـه ، وقيـم التضـامن الاجتماعى ، والتكافل بين فئات المجتمع ، ودور الاسرة المحورى ، ومعنى الشهامة ، وعن النظـم الاجتماعية المنظمة للحياة ، وعـن الجماعـة التـى هـى اسـاس الفـرد ، والامـة التـى هـى اسـاس الجماعة، فإن ذلك يعنى أهمية ان نعمل من اجل النهضة ، قبل ان نفقد اخر فرصة للنهضة .

المشهد السادس

الكنيسة ..... مؤسسة بلا أمة

الكنيسة المصرية ، ليست واحدة من مؤسسات المجتمع فقط ، ولكنها واحدة من اشكالياته ايضا . وهى رمز وموضوع معا ، فهى رمز للمسيحية والجماعة المسيحية فى مصر وهى ايضا موضوع يدور حول " القبطية ". وهناك مساحة فى الوعى ، بين " الكنيسة المصرية " و " الكنيسة القبطية " . والمساحة فى الوعى ، وفى الادراك ، وفى المفهوم ، قبل أن تكون مساحة فى حقائق الاجتماع ، رغم انها مساحة – ايضا – فى حقائق التاريخ .

والكنيسة المصرية تعبير غير شائع ، فلا يستخدم للاشارة الى الكنيسة الارثوذكسية أو الكنائس المسيحية الاخرى فى مصر . وبالطبع فإن أى من الكنائس المصرية ، لايحمل فى عنوانه تعبير " الكنيسة العربية " ، فالمصطلح الاخير ، ليس فقط غير شائع ، بل هو ايضا غير جائز . واذا كانت الكنيسة الارثوذكسية ، هى " الكنيسة القبطية " ، فإن الكنائس الاخرى هى حسب التعبيرات الشائعة ، هى الكنيسة الانجيلية ، او البروتستانتية ، او المسميات الفرعية الاخرى . اما الكنيسة الكاثوليكية فهى " الاقباط الكاثوليك " .

وتلك ليست رحلة فى الاسماء ، بقدر ما هى رحلة فى العنوان ، الذى يشير الى المضمون ، او الذى يختار كتعبير رمزى عن دلالة احتماعية وتاريخية . ولعل تعبير الكنيسة العربية ، يعد مدخلا ملائما لتحليل الكنيسة فى مصر . فذلك التعبير استخدم ، ويستخدم حتى الان ، للاشارة الى كنائس المشرق العربى . وفى ذلك اشارة الى تاريخ فكرة " القومية العربية " التى ظهرت كنتاج لتفاعل الشوام مع حركة التتريك . اذن فى القومية العربية ، حركة تمييز عن الدولة العثمانية ، وحركة تؤكد هوية الشام فى مواجهة الامبراطورية العثمانية ، وتوجهاتها التوسعية .

ومع نشوء فكرة القومية العربية فى الشام ، ظهر معها نشاط واضح لمسيحى الشام (١) ، فكان منهم باقة من ألمع مفكرى الحركة ومنظريها . كذلك لمع منهم أسماء كثيرة فى قيادة

الحركة والانضمام لها ، عبر تاريخها الطويل ، الذى ظهرت اثاره فى حركة سياسية قادتها بعض احزاب الشام ، ومنهم حزب البعث العربى .

تلك التجربة ، تؤكد ان الكنيسة العربية فى المشرق ، قد اشتركت فى قيادة حركة ، تجمع عناصر " الامة " ، فى مواجهة تحديات العصر . ولكن حركة القومية العربية ، اهتمت فى المقام الاول ، بالاستقلال السياسى / اولا فى مواجهة التتريك ، ثم ثانيا فى مواجهة الهيمنة الغربية بمختلف صورها ، الامر الذى تبلور بعد ذلك فى المشروع الناصرى .

مع هذا ظلت القومية العربية ، وعاء لما يمكن ان نسمية التحديث المستقل ،وهو بمعنى أو اخر ، نوع من التغريب المستقل . فالقومية العربية ، حسب واقعها التاريخى فى المشرق العربى ، لم تكن وعاء لذاتنا الحضارية ، بقدر ما كانت وعاء استقلال سياسى ، فى مواجهة هيمنة الاخرين ، وهى بذلك وعاء حضارى للتحديث ، وهو فى التحليل الاخير ، مواكبة العصر ، على نمط النموذج الغربى .

ولعل ذلك هو السبب التاريخى ، لجدلية العلاقة بين العروبة والاسلام (٢). فالقومية العربية، حملت الجماعة ، دون أن تحمل تراث الجماعة ، فأصبح مضمونها هو العلمانية الغربية ، اما الاسلام ، فيحمل الجماعة ، ومعها تراثها وذاتها الحضارية ، فيصبح حركة للاستقلال السياسى والحضارى معا . نتصور اذن ، ان المضمون العلمانى الغربى ، لفكرة القومية العربية ، هو الذى اقام مساحة للجدل حول العلاقة بين العروبة والاسلام ، أما الرؤية التاريخية الواعية ، فهى تعلمنا ان العروبة هى وعاء حضارتنا ، ووعاء الاسلام ، كما ان الاسلام وعاء العروبة وحضارتها معا. بمعنى اخر ، فأن الاسلام دين ، ولكنه فى ذات الوقت تجربة تاريخية ، ونظام للقيم ، وتلك التجربة وذلك النظام ، هو تعبير عن جملة عناصر متلاحمة ، صنعت الحضارة ، وصنعت المحيط العربى الواسع ، وايضا نقلت الذات العربية ، كاطار مرجعى عام ، لكل الدول الاسلامية غير العربية (٣) .

من هنا كانت القومية العربية ، بمضمونها الحضارى الجديد، تنتمى الى ايمان مفكرى العرب، بأن التحديث هو وسيلة التقدم. وما كان بالامس مقبولاً، لم يعد اليوم كذلك. ففى ذهن الامة، فان التحديث عملية من عمليات التقدم، لاترتبط بالضرورة بحضارة معينة، ولا بحضارة المصدر.واذا صح هذا الفهم فيالقرن التاسع عشر، فإنه لم يعد صحيحاً فى نهايات القرن العشرين.فقد بات واضحا ان التحديث ينقل معه حضارة الغرب بدأ من الآلة حتى القيم.

ولعل الجدل حول العلاقة بين العروبة والاسلام ، والذى ينتهى دائما بانهـا جوهـر واحـد ، لعل هذا الجدل كان محاولة للمصالحة بين حاضر الامة وماضيها ، ومحاولـة ايضـا للمصالحـة بـين مختلف القوى التى تنادى بالاستقلال ، وتعتبر الكفاح طريقهـا للنهضـة ، ولكـن هـذا الجـدل لم يدفعنا الى حقيقة الاختلاف الحضارى ، لا بين العروبة والاسـلام ، ولكـن بـين القوميـة العربيـة كمشروع ، والاسـلام كمشـروع . فـالاختلاف الحضـارى بـين كـلا المشـروعين ، هـو اصـل الانشقاق بين الحركات الممثلة لكلا المشروعين .

إن تلك الصورة تدفعنا، رغم عنا ، الى الاقتراب من خط المواجهة ، أو من المنطقة المحظورة. فالعلاقة بين المسلم والمسيحى فى عالمنا العربى ، هى علاقة أخـوّة ، افـترق بهـم طريـق الحيـاة . وهى بمعنى اكثر تحديدا ، علاقة المتمـاثلين حضاريـا ، وغـير المتمـاثلين فـى الموقـف الاجتمـاعى السياسى . والخطاب الراهن ، فى الساحة المصرية خاصة ، يحاول أن يؤكد التمـاثل والوحـدة ، كإطار مرجعى ، دون أن يعالج أهم قضية ، وهى تأثير هذا الاطار المرجعى رغم وجوده .

فإذا كنا نواجه الان ، حسب أطروحة هذا الكتاب ، عملية تطهير حضارى واسع النطاق . فعلينا اذن ، أن نواجه كل الجراح المؤلمة فـى جـدار الامـة القـوى ، فتلـك الجـراح ، ليسـت الا التصدعات ، وهى بالتالى بداية تصدع الجـدار ، وممكـن ضعفـه ، وأول مراحـل سـقوطه . انهـا المواجهة التى دفعتنا لكتابة الصفحات السابقة ، وتدفعنا لكتابة الصفحات التالية ..

والطرح القومى العربى لمفكرى الشام ، هو تزاوج بين النزعـة التحديثيـة فـى تاريخنـا ، مـع الرغبة فى الاندماج من قبل مسيحى الشام . فالقوميـة العربيـة بالنسـبة لمسـيحى الشـام كـانت الغلاف الذى يضمهم مع أخوانهم ، من اجـل الاسـتقلال والتحديـث . ان الجـامع هنـا ، كـان القومية العربية كوعـاء للاسـتقلال الحضـارى ، والعلمانيـة ،والتحديـث ، والتقـدم علـى النمـط الغربى كمضمون للحركة . لذلك ، ليس غريبا ان نجـد دور لمـدارس الارسـاليات البروتسـتانتية الاجنبية ، فى حركة القومية العربية ، وليس غريبـا ان تظهـر بعـض جماعـات هـذه الحركـة فـى أوساط متأثرة بالغرب (٤) . وأصبحت الحركة فى حد ذاتها ، مؤشرا على ان العلمانية الغربية، يمكن أن تكون وعاء لوحدة الامة المستقلة ، مسـلميها ومسـيحييها ، مـن اجـل الاسـتقلال عـن الغرب .

وهنا اشـكالية التعـارض ، أو ازدواجيـة الموقـف مـن الغـرب، وهـى ليسـت ازدواجيـة فـى الكلمات ، ولكنها ازدواجية فى الموقف السياسى والحياتى ، فـالتحديث علـى النمـط الغربـى ،

يؤدى بالضرورة الى تبعية الغرب ، بل هو افضل وسيلة لاخضاع الشعوب للهيمنة الغربية . ولكن حركات التحديث التى بدأت فى الماضى ، تواكبت مع فكر الهيمنة العسكرية الاستعمارية . ففى ذلك الوقت ، لم يكن الغرب يستخدم اعادة تنميط العالم حضاريا ، كوسيلة للهيمنة . وهو ما اعطى مساحة لوجود التحديث والاستقلال معا ، تلك المساحة التى ضاقت ، ومازالت تضيق ، حتى اصبح التحديث هو طريق التطهير الحضارى ، ثم تنميط العالم تحت المظلة الغربية .

لهذا سنجد أن فكرة " القومية العربية " ، كمحرك لحركة الاستقلال ، تضعف تدريجيا ، حتى تتوارى ، وتظهر فكرة " الاسلام " كمحرك لحركة الاستقلال . ولعل ظهور الحركة الاسلامية ، ورغم تعدد اسبابه ، يعد مؤشرا لتنامى حركة الاستقلال فى عنفها وجمودها . فالاسلام ، الحضارةوالقيم ، هو وعاء حافظ للتراث . والعودة للاسلام ، هى بتعبير أو أخر ، عودة للوعاء النقى للحضارة . هكذا اصبح الاسلام سلاح ضد التغريب ، وفكرة مقاومة للتغريب ، يصعب او يستحيل اختراقها. لذلك جاءت الحركات الاسلامية ، بنزعة اصولية متشددة ، وصلت الى جمود عنيف مع تطور الحركة عبر الزمن، فأصبح " الجمود " و" العنف "، افضل الاسلحة للصمود فى مواجهة التطهير الحضارى ، ولكنها ليست افضل الاسلحة لتحقيق النهضة . فحركات الغضب الاسلامى المعاصرة ، هى حركات مقاومة ، قبل ان تكون حركات نهضة .

وهذا التحول من مرحلة المقاومة تحت مظلة " القومية العربية " ، الى مرحلة المقاومة تحت مظلة " الاسلام " ، يتفق مع العديد من الاطروحات المتقدمة ، ومن مسيحى الشام ايضا ، حول العلاقة بين القومية العربية والاسلام . فبعض مفكرى حركة القومية العربية ، ومنهم ميشيل عفلق ، اكتشفوا أهمية المكون الاسلامى باعتباره وعاءً حضارياً ، يجعل من القومية العربية (٥)، حركة استقلال سياسى وحضارى معا . وهو إكتشاف يؤكد ضمنا ، ان الاستقلال السياسى ، لايجوز بدون استقلال حضارى .

ومن هنا تكمن ازمة الخوف من المكون الحضارى الاسلامى ، لدى مسيحى الامة ، فإذا كانت القومية العربية ، هى صمام واطار الامان لدى مسيحى الشام ، فإن القومية المصرية ، هى صمام واطار الامان لدى مسيحى مصر . وفى العقل المسيحى المصرى الارثوذكسى ، تظل " القبطية " هى الاطار الجامع للجماعة المسيحية ، وهى وشائج الصلة بالقومية المصرية ، اى المعبر

الذى يربط المسيحى بالمصرى غير المسيحى . فالقومية العربية ، كانت مفهوم موحد فى المشرق العربى ، يترك وراءه اشكالية العلاقة بين العروبة والاسلام ، اما القومية المصرية ، فكانت المفهوم الموحد فى مصر ، النابع من تجربة الوفد فى ١٩١٩ وما بعدها ، وهو يترك وراءه اشكالية العلاقة بين المصرية والعروبة والاسلام .

وفى مصر ، كانت ومازالت ، الفكرة القومية العربية ، هاجساً لدى المسيحى ، بإعتبارها فى احسن الاحوال معبرا الى الفكرة الاسلامية ، ولن تكون بديلا عنها . والحقيقة ، ان تاريخ الامة ، يؤكد ان المصرية معبر للعربية ، والاخيرة معبر للاسلامية ، وكلها عناصر واسماء واطر ، يتشكل منها وعى الامة بانها امة ، ولذلك فانها توجد معا عندما توجد الامة نفسها .

أمة الكنيسة

فإلى أى أمة تنتمى الكنيسة المصرية ، فإذا كان الحديث عن الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، فإن الاجابة أوضح من أن نبحث عنها ، فهى تنتمى حسب الاطروحات السائدة الى الامة القبطية ، التى هى أمة / جماعة فرعية ، لها تاريخها الممتد المتصل ، عبر القرون، تحفظ بداخلها تراثها ، كما انها تحفظ الاستمرار والتواصل للقومية المصرية ، لذلك فهى درع واقى ، ومدافع عنيد ، وجزء اصيل من الاستمرار التاريخى للقومية المصرية . ولهذا فهى جزء من القومية المصرية ، ولكنها لاتذوب تماما ، ولاتنصهر كلية ، بل تظل " امة قبطية " ، باعتبارها فى لحظة ما من التاريخ كانت " كل القومية المصرية "، والان هى " جزء " القومية المصرية ، الاكثر صلابة والاطول عمرا .

تلك الرؤية تشرح لنا ، مفردات الخطاب القبطى ، فهو من أكثر الخطابات غموضا فيما يخص تميزه واندماجه مع المجتمع . فالحديث عن التاريخ والتراث القبطى ، والحديث ايضا عن الامة واللغة القبطية ، وكذلك الحديث عن رموز التاريخ القبطى ، والدور القبطى فى السياسة المصرية ، ودور الاقباط فى حياة المجتمع ، كلها فى النهاية احاديث تميز الجماعة القبطية عن المجتمع .

أما الحديث المتصل عن وحدة عنصرى الامة ، ووحدة الوطن ، وأن الاقباط جزء من الوطن، وانهم أخوة للمسلمين ، وهم بالضرورة أقباط ، والقبطية لاتعنى الا المصرية ، ولذلك

فهم عنصر متحد مع الامة ، أم هم كغيرهم ممثلين للامة ، دون ان يكونوا عنصرا ، كل تلك العناصر والتعبيرات ، تؤكد بشدة على الوحدة والاندماج . هنا يصبح التميز مؤشرا ، والاندماج مؤشراً ثانياً ، فتصبح الجماعة لها كيان ، وهى أمة " صغرى " ، او أمة " فرعية " ، وهى فى ذات الوقت تعبيرا عن الامة " الاكبر " ، أو الامة " الرئيسية " ، وفى كل الحالات نحن نتكلم عن الامة القبطية ، ثم الامة المصرية ، والقبطية هى الارثوذكسية ، وهى المصرية معا ، ففى شق منها تؤكد التميز ، وفى شقها الاخر تؤكد الاندماج .

وبين التميز الانفصالى ، والاندماج الالتحامى ، عنصر هام يحرك الخطاب القبطى ، ويحرك الفعل القبطى . انه العنصر الرابط بين " القبطية " و " المصرية " ، ليس طبقا للتاريخ ، بقدر ما هو تعبير عن الاختيار السياسى المعاصر . وهذا العنصر ، ليس الا العلمانية الغربية ، والتحديث . وهى نفس اشكالية القومية العربية لدى مسيحى الشام . ولكن حساسية مسيحى الشام تجاه الفكرة الاسلامية ، أقل بكثير من حساسية مسيحى مصر تجاه نفس الفكرة . فالاطار الجامع لدى مسيحى الشام هو " العروبة " وليس " الشامية " ، وبالتالى فإن المساحة الفاصلة بينهم وبين الفكرة الاسلامية ، أقل من نظيرتها لدى مسيحى مصر ، فإطارهم الجامع هو " المصرية " ، والتى تأتى بعدها " العروبة " ثم يأتى " الاسلام " . ونجد لديهم خوف من الاولى ، وبعدا عنها، نتيجة الخوف الحقيقى من الثانية ، ومحاولة تجنبها .

واذا كان عرب الشام ، أكثر حساسية تجاه الاستقلال ، لانهم يمثلون أحد مداخل الامة ، واحد حدودها الخارجية ، فان ذلك يدفعهم الى تطوير فكرة الاستقلال ، فتظهر القومية العربية لديهم قبل ظهورها فى مصر ، ثم تظهر عملية الربط بين العروبة والاسلام ، قبل ظهورها فى مصر ، ولكن الاشكالية الحقيقية مازالت معلقة ، فالمشكلة فى الاستقلال الحضارى ، الذى يؤدى الى الاستقلال السياسى ، فى حين ان معظم الاطروحات تدور حول الاستقلال السياسى، وتستخدم المفاهيم المساعدة عليه ، والتى تعطى للحركة عنوانها ، أكثر مما تعطى لها مضمونها . لذلك تستمر جدلية الاختلاف بين الاطر القومية ، واطار العروبة ، والاطار الاسلامى . وتبقى أطروحات كل طرف مختلفة ومتباينة عن الاخر ، وتظل الامة ممزقة ، لانها مختلفة فى معاركها مع الاخر ، بدلا من أن تتوحد فى مواجهة الاخر . وهذا ليس حالنا فقط ، بل هو حال معظم حركات الاستقلال والتحرر ، التى تصبح مع الوقت فرق تتناحر وتفتح الباب امام القوى الغربية لتكون المساوم الاقوى ، الذى يستقطب احد التيارات ، ثم يتحالف

معه ، فيصبح التيار الحاكم ، دون ان يظل قوة تدافع عن الاستقلال . واكثر من ذلك ، نتصور ان الاختلاف بين التيارات الوطنية ، هو اختلاف حول مضمون الحركة ، وهو اختلاف حول العلمانيه التحديثية الغربية ، وهو ليس اختلافا بين العلمانية والدينية ، بل ان هذا التصور ومعركته هو احد أهم وسائل تفريقنا وتفكيك مجتمعنا ، واكمال تطهيرنا الحضارى . فالمعركة بين العلمانية والدينية ، تحمل فى طياتها معركة مع تراثنا الحضارى نفسه ، وحين نحاول الانتصار على مانسميه الفاشية الدينية ، سنجد اننا انتصرنا على تراثنا ايضا ، وبتعبير ادق انتحرنا ، ولن تنفع هنا سلامة النية ، وحسن القصد ، والرغبة الوطنية ، لان الخطر ليس استعمارا ، ولاهو عسكريا ، بل يكمن فى التغير التدريجى ، لافكارنا وقيمنا ومبادئنا .

هنا جوهر الخطر . فالقبطية تدفع اولا الى عزل الجماعة ثم الى اعادة ادماجها مع المجتمع ، على محك العلمانية والتحديث . فتصبح بذلك وسيلة ، ومكون ، فى ركب عملية التغريب الكبرى التى نتعرض لها .وهى ليست ايديولوجية تهدف للتغريب ، بل هى سياق حضارى ، وخطاب يهدف الى حماية الجماعة ، ولكنه يؤدى فى النهاية الى عزل " المصرية " عن امتها العربية الاسلامية . ويعرضها اكثر لمخاطر الذوبان فى عملية التنميط العالمى الغربى .

ويضاف لذلك ، اهتمام الغرب بالورقة التفكيكية ، ونقصد بها ورقة الاقليات ، فالغرب يضع مشكلة الاقليات على جميع الموائد ، ويقدم لها حلا حضاريا غربيا . فهو يستخدمها اذن ، لدفع الدول نحو قبول عملية التنميط الغربى ، ويعتبر احوال الاقلية معيار لمدى ما تحقق من تطبيق الشروط الغربية . فكلما كانت الدولة تعترف " بحقوق " الاقلية ، كلما كانت تسير على النهج الديمقراطى السليم ، وكلما كانت تتبع قواعد حقوق الانسان .

بهذا تصبح الجماعة القبطية عنصرا يدفع نحو العلمانية الغربية ، بجانب انها ورقة يستخدمها الغرب للضغط على الدولة حتى تتطبق العلمانية الغربية . وهذا لايعنى ان الجماعة القبطية هى عدو الامة ، ولكنها عنصر لم يستطع بعد ان يكتشف الامة ، ودوره فيها .

ولايمكننا ان نهمل اثر الاضطهاد فى العصور الاسلامية ، على الموقف القبطى ،بل لعل هذا الاضطهاد هو المخزون الجمعى لدى الاقباط ، الذى شكل منهم جماعة / امة . واذا كان التاريخ القبطى يحفل بفترات ازدهار للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين ، فهو يحفل ايضا بفترات من الاضطهاد الاسلامى للمسيحيين ، ويحفل بمحاولات مسيحية لتسييد الجماعة / الامة وتعظيم دورها واثرها ، على الاغلبية المسلمة .

والمشكلة فى التاريخ ، اننا لانقرأه اصلا ، نهاينا على ان نفهمه . والمشكلة فى واقعنا المعاصر ، اننا لانواجه القضية اصلا ، ونترك عناصرها تتفاعل ، فتأتى مرة بالوحدة ، ومرة بالفتنة . ويبقى عنصر العلمانية / التحديث ، كمحرك اساسى لمشاهد الحاضر ، وربما المستقبل.

فالتعاطف القبطى الشعبى لم يكن من نصيب عبد الناصر ، فالاشتراكية من جانب ، والقومية من الجانب الاخر ، ظلت هاجس فى الوعى القبطى . والتعاطف مع السادات جاء مواكبا للانفتاح الاقتصادى والانفتاح على الغرب ، وانتهى مع بروز الفكرة الاسلامية فى خطابه . ثم عاد التلاحم اخيرا ، بعد حرب الخليج . والدخول مع عملية التغريب الواسعة . بل ان التلاحم زاد ، عندما تحولت معظم القوى من الحرب من أجل المستقبل ، الى الحرب مع التيار الاسلامى المسلح .

وهكذا تندمج القومية المصرية ، مع القبطية كلما كان المشروع تحديثيا علمانيا ، وتنفصل عنها ، كلما كان المشروع استقلاليا تحت مظلة عربية ، أو اسلامية . وهنا اصل المشكلة فى أمة الكنيسة . فالامة المصرية ، التى تعمل من اجل العلمانية والتحديث ، ليست امة بأى معنى من المعانى ، بل هى مجرد " طرف " فى نظام عالمى ، لم تنشئه ، وليس لها فيه اسهام ، وليست قوة مسيطرة فيه ، بل هى مجرد " تابع " .

وتلك ليست فقط مشكلة الكنيسة ، بل هى مشكلة البناء الفوقى للمجتمع ، مشكلة الدولة والنخبة ايضا . وهى مشكلة النخبة العلمانية المتغربة على وجه الخصوص . فالعلمانية الغربية ليست ضد الدولة الاسلامية ، بل هى ضد الحضارة العربية نفسها ، وهى ضدها لانها تختلف معها فى المضمون الحضارى وتختلف معها فى القيم .

أتصور ، فى ذلك ، ان " الدنيوية العربية " هى تيار بديل عن " الدينية الاسلامية " ، وكلاهما ينتمى للحضارة العربية الاسلامية . فالدنيوية تنتمى للاسلام كحضارة وقيم ، والدينية تنتمى له كعقيدة . فإذا كنا بصدد تيارات تختلف حول " الدينية " ، فأتصور انها تيارات تختلف حول دور " العقيدة الاسلامية " فى الحياة . ولكن لايجب أن تكون تيارات مختلفة حول " الحضارة الاسلامية " ، والتى يمكن أن نسميها " الحضارة العربية " بعدا عن حساسية اللفظ . بمعنى أخر ، أتصور ان التيار العلمانى المصرى والعربى ، يحمل الحضارة العربية ، ويقف ضد تطبيق العقيدة كنظام سياسى ، وليس ضد تطبيق القيم والمبادئ . اما ان يكون التيار العلمانى

حاملا للحضارة الغربية فى وجه الدولة الاسلامية ، فهو بذلك يحارب الحضـارة ، يحـارب ذاتنـا الحضارية ، بكل اسمائها وعناوينها ، مصرية كانت أم عربية ، أم اسلامية .

لذلك فالطرح القبطى ، إن اراد فى خطابه ، ان يقدم نفسـه جـزءا لايتجـزء ، مـن القوميـة المصرية ، فعليـه ان يقـدم الحضـارة المصريـة ، والامـة المصريـة ، لاان يقـدم طرحـا يـتزاوج مـع التحديث والعلمانية ، التى تقود للتنميط الغربى .

وحتى لايكون الحديث نظريا ، نؤكد ان المصرية والعربية الاسلامية ، هـى اطـار حضـارى واحد ، والمصرية هى حالة من العربية ، والعربية حالة من الاسلامية (٦) . واى طرح حضـارى مصرى ، هو طرح عربى ، وهو طرح اسلامى . والتاريخ الاسلامى ، بـل والحضـارة الاسـلامية نفسها ، تعلمنا أن مراحلها واطروحاتها تتراوح بين التطبيق العقائدى ، وبين الطـرح الدنيـوى . والدنيوية ، هى حصر لمجال تأثير العقيدة ، لا لمجـال تأثـير الحضـارة . والاسـلام ، عقيـده وحيـاة معا، وفى الحياة قيم ، وفيها حضارة .

فإذا كان الاختيار بين الدينية والدنيوية ، هو اختيار بين حضارتنا وبـين الغـرب فـى واقعنـا الراهن ، فهو حسب تصورنـا ، وحسـب اطروحـات علمانيـة كثيرة (٧) ، اختيـار حـول دور العقيدة فى الحياة ، وليس اختيارا حول الحضارة ، فما موقف الكنيسة ، اليوم ، وغداً ؟!

حضارة الكنيسة

إن إشكالية الحضارة لدى الكنيسة الارثوذكسية المصرية ، أعقد مما تتصور . فالكنيسة تقدم نفسـها بإعتبارهـا حـامى المسـيحية الشـرقية ، فـى مواجهـة المسـيحية الغربيـة ، التـى هـى الكاثوليكية اساسا . ولكن العودة الى التاريخ ، تضيف لذلك بعدا هاما . فالصراع فـى المجـامع المسكونية ، وحتى مجمع خلقدونية فى القرن الخامس الميلادى، كان صراعا بين مدارس كنسية، منها مدرسة روما وانطاكيا والاسكندرية ، وكان صراعـا سياسـيا حـول أى مدرسـة هـى التـى تقود الكنيسة ، وكان فى الوقت نفسه صراعا حضاريا ، بين المدرسة الهيلينية الشرقية (البيزنطية الشرقية) والمدرسة الهيلينية الغربيـة (الرومانيـة الغربيـة) . وهـو صـراع يتواكـب مـع انفصـال المملكة الرومانية ، الى شرقية وغربية (٨) . وكانت الاسكندرية منارة للعلم اليونانى ، فالهيلينية،

ثم أصبحت ضمن الاطار البيزنطى الشرقى . ولهذا فإن مجمع خلقدونية ، قسم الكنيسة الى ثلاثة أقسام رئيسية ، هى الارثوذكسية الشـرقية (ومنهـا روسـيا) والارثوذكسـية الشـرقية القديمـة (ومنها كنيسة الاسكندرية) والكاثوليكية الرومانية (وفيها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) (٩). والارثوذكس الشرقيين ، مثل روسيا ، خلقدونيين ، أى وافقوا على مقررات مجمع خلقدونيـة ، مثلهم فى ذلك ، مثل الكنيسة الكاثوليكية ، وظل بين الأثنين إختلافات أخـرى . أمـا الكنيسـة الأرثوذكسية فى الأسكندرية فقد رفضت مع غيرها مقـررات خلقدونيـة . وقـد دار الحـوار فـى هذا المجمع حول طبيعة المسيح .

وما يهمنـا ، ان الكنـائس الارثوذكسـية الخلقدونيـة وغـير الخلقدونيـة ، قـد عقـدت إتفاقـاً لتجاوز خلاف خلقدونية ، والاعتراف بانهما على اتفاق ، وهو ما يعنى اعتراف كـل كنيسـة ، بمسيحية الكنيسة الاخرى ، وهو يتضمن الاعتراف المتبادل بالطقوس التى تقيمها كـل كنيسـة ، خاصة العماد والزواج . وهذا الاتفاق ، هو اعادة لجمع شمل الكنائس الشرقية ، التـى تـأتى مـن الميراث البيزنطى الشرقى (أى الكنائس الشرقية ، والكنائس الشرقية القديمة).

فى هذا السياق ، فإن الكنيسة الارثوذكسية المصرية ، تحمـل ميراثـا تاريخيـا يعـود للمكـون الحضارى الهيلينى الشرقى . ولكنها لاتمثل " حضارة مصرية مسيحية أصيلة " .

والسبب فى ذلك ، يرجع للقرون الاولى ، التى ظهر فيها المكون القبطى ، وهو مكون عـبر عن نفسه فى الفن القبطى الشعبى (١٠) ، وعبر عن نفسه ايضا فـى المسـيحية المصريـة الشـرقية (١١) ، التى كانت احتهادات ترتبط بالنموذج الشرقى الجنوبى للمسـيحية ، أى النمـوذج غـير الهيلينى . ودون الدخول فى تفاصيل صفحات التاريخ ، فإن ذلك المكون القبطى غير الهيلينـى ، لم ينضج ، ولم يصبح تيارا مسيحيا ، بسبب محدودية الفترة الزمنية التىعاشها ، وكذلك بسـبب تكاتف كل الكنائس ، بما فيها كنيسة الاسكندرية ضد المسيحية غير الهيلينية .

وتلك قضية شائكة ، وتحتاج لمعالجة خاصة ، فهى احد مناطق الخطر ، وضمن مساحة غـير مسموح بدراسـتها ، أو ابـواب لايجـوز فتحهـا . ولكـن مـن التـاريخ ايضـا ، نعـرف ان بعـض مكونات الاجتهاد المسيحى غير الهلينى ، قد تم ادماجها فى كنيسة الاسـكندرية ، اى اصبحـت من الانجازات التى استقطبت داخل الميراث المسيحى البيزنطى الشرقى لهذه الكنيسة ، مما أضاف لها تميز خاص ، عن مجموعة الكنائس البيزنطية الشرقية الاخـرى . ومـن أهـم تلـك الانجـازات ، كانت " الرهبنة " ، حسب تصورنا .

فما هى حضارة الكنيسة المصرية ، كنيسة الاسكندرية ؟ هـى فـى الواقـع ، ذلـك المـيراث التفاعلى ، بين الحضـارة البيزنطيـة الشـرقية ، وبـين المنجـزات القبطيـة خـارج الاطـار المدرسـى للاسكندرية . أى انها نتاج تفاعل " المدرسـة اللاهوتيـة " مـع الشـعب المسـيحى نفسـه ، ومـع السياق المصرى ، ومع البيئـة الزراعيـة . فـى ذلـك التفـاعل ، أصبـح للكنيسـة ميراثهـا الهيلينـى الشرقى ، وميراثها المصرى الشعبى ، ومنها أُصبح " للقبطية " وجودا .

لذلك أصبحت " القبطية " عنوان خطاب موجه للاخر المسيحى ، وموجه للاخر المصـرى. فهـى مسـيحية ارثوذكسـية (هيلينيـة شـرقية) فـى مواجهـة المسـيحية الهيلينيـة الغربيـة ، وهـى ارثوذكسية مصرية مسيحية ، فى مواجهة العربية الاسلامية . هى اذن ذات ابعـاد دينيـة وقوميـة معا ، وهى ايضا ليست ممثل للحضارة المصريـة الخالصـة نسـبيا ، نظـرا لوجـود المكـون الهيلينـى الشرقى ، الذى ينتمى للحضارة الغربية ، ولكن لجناحها الشرقى (ونموذجه روسيا) .

ذلك الخليط الحضارى ، يطرح تساؤل حول فكـرة القبطيـة ، بإعتبارهـا معـبرا للمصريـة ، لانها حالة دينية حضارية خاصة ، مما يجعلها ليست اطارا لكل مصرى ، وكذلك يجعـل المصريـة اطارا لايشملها كلما برز المكون العربى الاسلامى ، واطارا يشملها كلما برز المكون الفرعونى. ولكن ذلك على مستوى الخطاب السياسى فقط ، أما على المستوى الواقع ، فإن المشكلة أعقـد من ذلك .

فالمكون المصرى فى القبطية ، هو مكون ذو تاريخ خاص ، بدأ مـن العنـاصر المصريـة التـى أضيفت على المسيحية الهيلينية الشرقية لمدرسـة الاسـكندرية ، واسـتمر مـن خـلال التفـاعل مـع العربية الاسلامية ، كجماعة فى مواجهة اخرى . ثم ظهر التراث المسيحى العربى فى كل انحـاء الامبراطورية العربية ، وهو تراث قاومته المسيحية المصرية ، ولم تقاومه مسيحية الشام . فظل فى الوجدان القبطى اشكالية العروبة ، أما الوجدان المسيحى فى الشام ، فاندمج أكثر مع عروبته .

فالقبطية اذن ، تقوم على الانقطاع التاريخى ، وتقـوم علـى الاعتمـاد علـى الاصـل الاول ، فيما قبل دخول الاسلام ، أى على الميراث البيزنطى الشرقى . أما على المسـتوى الخـاص ، فـأن الانقطاع التاريخى حدث من خلال خلق الكنيسة لاستمرار تاريخى خاص داخلها ، يحافظ علـى الميراث الاول لمدرسة الاسكندرية ، وظل الشعب المسيحى ، هو المعبر الحقيقى والمحرك الاول ، لدخول العناصر المصرية اولا ، ثم العناصر الاسلامية العربية ثانيا . وظلت الكنيسة فى كل هـذه الحالات تتأرجح بين ميراث الاسكندرية ، وبين الذوبان فى المحيط الحضارى الخارجى ، وظلـت

فى النهاية تخشى الذوبان ، وتعتمد الجمود الميراثى وسيلة للحفاظ على التراث ، ولكن لم يحدث حفاظا على التراث بهذا المعنى ، فكان الورق يحفظه ، اكثر من العقول .

وعلى الجانب الاخر ، سنجد المصرية فى المكون القبطى ، ترتبط بحضارة المجتمع المصرى ، عبر اجزاء منه دخلت فى المكون الحضارى الكنسى . وترتبط بحضارة المجتمع ، من خلال الشعب نفسه ، لكنها تمثل حالة خاصة ، تمت فى ظروفها الخاصة . فالمجتمع المصرى اليوم ، فرعونى بالتاريخ ، عربى اسلامى بالواقع . فعبر التاريخ يتم نقل الحضارة من جيل لاخر ، وتتغير، وتتطور ، ولكنها تظل محافظة على جوهر مستمر ، ويتركز الانقطاع فى الفروع ، دون الاصول . وهكذا فنحن لانعرف الفرعونية ، ولكنها توجد بداخلنا ، من خلال ما وصل لنا، من حضارة عربية اسلامية ، وهى كذلك بالاسم ، نسبة الى اسم آخر مراحلها التاريخية . وبهذا المعنى ، لاتوجد حضارة مصرية ، ليست عربية ، ولااسلامية . ولايوجد احتمال ، حول احياء الفرعونية ، فالحضارة لايتم احياؤها ، بل تصل الينا من جيل لاخر ، وما وصل الينا هو الحضارة العربية الاسلامية ، وهو الشكل الاخير لميراثنا التاريخى ، الذى يبدأ بالضرورة بالحضارة الفرعونية العظيمة ، ولكن الذى يحمل معه ، بالضرورة ايضا ، الحضارة العربية الاسلامية العظمى ، التى تبرز فى وعينا ، بقدر اقترابها من حاضرنا . والتى يراد لنا الان أن ننقطع عنها قرونا ، فتصير ماضى بعيد ، فنكتشف بعد ذلك أن ماضيناالقريب ليس منا ، بل ينتمى لغيرنا ، ذلك ما نسميه بالتطهير الحضارى .

بهذا ، فإن " القبطية " معبر للمصرية ، عندما تكون المصرية علمانية ، ولذلك فإن التغريب كسياق عام للمجتمع ، يربط القبطية بالمصرية ، كأمة تتوجه نحو الاخر ، والتغريب الذى يحقق ذلك ، يؤثر على المجتمع اكثر من تأثيره على الكنيسة ، التى يمكنها أن تضع خط فاصل ، يفصل فى الواقع بين الميراث الهيلينى ، الشرقى والغربى ، ويتيح لها قدر من الاندماج مع الاخر مع بقاء الفاصل الذى يمنع التنميط الغربى الكامل .

ولكن صورة الواقع ، تنبئ بغير ذلك ، فمع اختلاف الدرجة والسرعة ، فإن الدخول فى النمط الغربى ، هو النتيجة النهائية . وما تصمد امامة المؤسسة ، من خلال ميراثها ، ليس الا اطار اللاهوت والعقيدة ، أما فى مجال الحياة ، فشعب هذه المؤسسة يفرض عليها واقعا أخر ، وهو التنميط الغربى ، الذى سينال الكل الكنيسة والمجتمع معا .

هنا جذور المشكلة ، فالامة القبطية مشروع لم يكتمـل تاريخيا ، وظـل ميراثهـا المؤسسـة ، وجماعتها . والقومية المصرية ، ليست مشروعا حضاريا متكاملا ، مادامت طرحا غير عربى ، وغير اسلامى ، بل هى فى النهاية علمانية وتحديث على النمط الغربى . فهـل الكنيسـة مؤسسـة بلا أمة ؟

القبطية .... !

فماذا عن الجماعة القبطية فى مصر ؟ منذ ثورة ١٩١٩ ، تظهر توجهات هذه الجماعة بشكل واضح . وعبر الزمن يختلف دور الكنيسة من مرحلة الى أخرى ، ليظهر واضحا منذ السبعينات من هذا القرن . والبداية تظهر توجه الجماعة القبطية نحو العلمانية والتحديث ، تحت شعار المصرية . ويظهر بذلك توجهها نحو الاستقلال السياسى ، دون الاستقلال الحضارى . ولانستطيع تبين محاولات جادة نحو الاستقلال الحضارى ، كقضية محورية ، سواء من الجماعة القبطية ، أو من الكنيسة ، كما ظهر فى المشرق العربى ، فيما عدا بعض الحالات الفردية ، مثل أطروحات أنور عبد الملك (١٢).

فى هذا السياق ، نكتشف أن الجماعة القبطية ، أقـل دخـولا فـى معركـة الحضـارة ، رغـم دخولها فى معركة الجماعة نفسها . فعلى الرغم من ممارستها لقضية الاستقلال السياسى ، وعدم ممارستها لقضية الاستقلال الحضارى ، الا انها ارتبطت بقضية الدفاع عن الجماعة . وفـى زمـن ثورة ١٩١٩ ، اى فى تلك الحقبة عندما ضعف تأثير الكنيسة ، كانت الجماعة تحاول من خـلال قيادات الاقباط السيطرة على الكنيسة عن طريق المجلس الملى العام . امـا منـذ حقبـة السـادات ، فان الكنيسة بقيادات من جيل الرهبان ، تسيطر على الجماعة القبطية .

إن تعبير " الامة القبطية " الذى ظهر مـع بدايـات القـرن الحـالى ، بصـورة واضحـة ، ليـس تعبيرا عن الرغبة فى الانشقاق على وعن المجتمع المصرى ، بقدر مـاهو تعبـيرا عـن الحفـاظ علـى الجماعة فى كل الظروف التى تمر بها . وكلما زاد الصـراع بـين الجماعـة والمجتمـع ، كلمـا زاد التأكيد على هوية الجماعة ، وكلما قل الصراع ، قل معه ذلك التأكيد .

والجماعة القبطية ، التى انحازت لتجربة الوفد ، ومافيها من علمانيـة وتحديـث ، هـى ايضـا الجماعة التى تنحاز حاليا ، لتجربـة الاصـلاح الاقتصـادى والانفتـاح علـى الغـرب والعلمانيـة ،

والسلام مع اسرائيل .. وغيرها . وهنا سنجد ان الجماعة تحتفظ بالقبطية عنوانا لها ، وتندمج تحت شعار المصرية من اجل التنمية والتحديث . ولكن دون وجود معركة استقلال سياسى ، وهى معركة لم تعد توجد ، بعدما أصبحت التنمية والتحديث طريق الىالنظام الكونى الجديد ، رغم انه حتى الان نظام للتنميط الغربى العالمى ، أو نظام للتطهير الحضارى .

فهل تضحى الجماعة القبطية بالهوية المصرية ؟ وكيف تحافظ الجماعة على هويتها ؟ الواقع ان الجماعة القبطية لاتضحى بالهوية المصرية للمجتمع ككل ، ولكنها تختار بين البدائل المطروحة وترفض أى بديل لايكون الابديلا مصريا فقط ، دون أن يكون عربيا او اسلاميا . ولذلك فقد رفضت البدائل الاسلامية ، واختارت البديل المصرى ، قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فكانت اقرب الى الوفد ، دون مشاريع الجامعة الاسلامية ، فى الاحزاب الاخرى ، ومنها الحزب الوطنى. ولذلك ايضا ، ورغم وجود عدد من الاقباط فى حركات مختلفة منذ ثورة أحمد عرابى، الا ان الالتحام الحقيقى للاقباط لم يتحقق الا مع ثورة ١٩ وحزب الوفد . وفى ذلك الوقت ، كانت مصر تتأرجح بين الفكرة الاسلامية ، والفكرة المصرية ، دون وجود للفكرة العربية . وارتبطت الفكرة الاسلامية بالميراث الحضارى ، اما المصرية فقد ارتبطت بالعلمانية والتحديث .

وفيما بعد ثورة ٥٢ ، وظهور الفكرة العربية ، فإن الجماعة القبطية لم تلتحم بقوة ، الا بالنموذج العلمانى التحديثى . ظهر ذلك من خلال مشاركة بعض الاقباط فى الحركة الشيوعية، ومشاركة بعضهم فى حركة عبد الناصر الاشتراكية ، ثم ظهر الاندماج الاقوى منذ فترة حكم السادات ، مع النموذج الرأسمالى الغربى . واذا تصور البعض ان فترة حكم السادات وما بعدها ، تمثل فترة اضطهاد للمسيحيين ، وانعزال لهم ، فهذا التصور خاطئ . فمنذ حكم السادات شهدت الجماعة القبطية بروزا على الساحة ، تحقق فى الثمانينات للجماعة ، وفى السبعينات للكنيسة . اما احداث العنف ضد الاقباط ، فهى جزء من صراع تيارات المعارضة المسلحة مع النظام ، ومع نموذج الحياة المعاصرة فى مصر . بل اكثر من ذلك ، نتصور ان التحام الاقباط فى النموذج العلمانى الغربى ، هو احد الاسباب لتزايد العداء تجاههم من المعارضة المسلحة ، وسبب تلك التصورات المفترضة عن المؤامرة القبطية . أى ان الموقف القبطى ، جعل الكفاح من اجل الاستقلال الحضارى ، ايا كان تقييمنا لادائه ، يعتبر الاقباط ضمن القوى المعادية له ، لاالمتحالفة معه .

اذن نتوقع ان تنضم الجماعة القبطية ، لعملية الاستقلال الحضارى ، تحت الشعار المصرى فقط ، عندما توجد هذه الحركة على الساحة المصرية ، وعندما لاتكون ذات ابعاد عربية واسلامية، او تكون ذات ابعاد عربية مانعه للعنصر الاسلامى . وذلك فى الواقع ، مستحيل ، فاى حركة للاستقلال الحضارى ، بهذا المعنى الشامل ، ستكون مصرية وعربية واسلامية ، فايا كانت مسمياتها ، فتلك هى عناصرها ، لانها عناصر حضارتنا ، التى ان اردنا ان نقيمها من جديد ، فسنقيم – فى الواقع – نهضة مصرية عربية اسلامية ، نهضة امتنا .

ويبقى السؤال الثانى ، عن كيفية محافظة الجماعة القبطية على هويتها فى مواجهة الاخر المصرى ، والاخر غير المصرى . فالجماعة القبطية ، هى احساس بالذات ، وهو احساس مصرى فى عمومه ، يتبلور بالاحساس بالمؤسسة الكنسية . فخط الدفاع هنا ، تجاه الاخر غير المصرى ، يكمن فى الميراث الهيلينى الشرقى ، مع نزعته ، أو مميزاته المصرية . وهذا التراث تحميه الكنيسة، من خلال احتفاظها بمنطوق لاهوتى عقيدى مميز ، حتى وان كان هذا المنطوق لايتفاعل مع حياة الاقباط انفسهم ، اى لايجعلهم هيلينيين مثلا ، ولكنه يظل خطابا عقائديا حمائيا ودفاعيا ، يتغير بتأثير التجربة الحياتية للاقباط انفسهم ، من خلال تهميش بعض اجزاءه . ولكن يبقى اللاهوت الارثوذكسى ، خط دفاع ضد الاخر ، خاصة الاخر المسيحى . ورغم تقارب خطوط كثيرة على المستوى المسيحى ، الاان العقيدة تظل سلاح المؤسسة ويأتيها الاختراق بعد ذلك من جانب الممارسة الحياتية أو من جانب الشعب القبطى نفسه ، ونمط حياته.

تلك الصورة تؤكد اننا بصدد مؤسسة ، فى هيكلها الخارجى لاتتغير ، وفى خطابها العقائدى ، لاتتغير ، لكنها وفى الداخل ، تندمج وتتوحد مع عناصر اخرى ، هى المصرية فى التاريخ الماضى ، والذى اعطاها لقب القبطية وميزها عن الكنائس الشرقية الاخرى ، ثم هى الغربية فى التاريخ الحديث ، من خلال تغير نمط حياة الاقباط أنفسهم ، وبسبب أن النمط الغربى ، كان خلال هذا القرن ، ومازال ، هو السياق الذى يخرج الكنيسة والاقباط للحياة العامة ، سواءا مع وجود معركة سياسية للاستقلال (ثورة ١٩) او مع عدم وجودها (منذ السبعينات) .

ولذلك سنجد الكنيسة القبطية ، ذات تاريخ طويل فى معارك الاستقلال تجاه الطوائف المسيحية الاخرى ، وتجاه الغرب المسيحى ، وكنائسه . ولكن موقف الكنيسة يضعفه ان ميراثها البيزنطى الشرقى ، أصبح جامدا ، فهو لايتفاعل مع الحياة ، وليس ميراثا يمكن ان يحقق لها

النهضة لانقطاعها عنه . بل اكثر من ذلك فإن هذا الميراث ، يتحول الى خطاب عقائدى تمييزى، ولكنه ليس فاعلا اجتماعيا .

وتبقى المشكلة واحدة ، بالنسبة للجماعة والكنيسة ، فهى متميزه بحكم توجهها ، ولكنها تتأرجح بين التميز الجامد المنعزل ، والانخراط المنفتح التغريبى . أما نهضة الجماعة والكنيسة ، تلك النهضة الحضارية ، فهى غير ممكنة اذا كانت نهضة قبطية ، أى للمزيج القبطى فى حد ذاته، لانها ستكون انفصالا بغير رجعة عن المجتمع المصرى ، وهى مستحيلة اذا كانت جزءا من نهضة حضارية ، لان الفرعونية لن تعود حية ، ولان العربية والاسلامية لن تذهب ميتة . فإذا كانت الجماعة / الكنيسة تقف فى مواجهة " العربية الاسلامية " ، خوفا على مسيحيتها ، فإنها تعانى ايضا من مشكلة العلمانية والتحديث ، ولكن فى هذه القضية يختلف موقف الجماعة عن موقف الكنيسة . فالجماعة لاتخشى العلمانية ، على الاقل فى بعض فئاتها ، بل ترى انها حماية لوجودها فى المجتمع . وهى فكرة ناتجة عن التغريب ، الذى صور العلمانية باعتبارها الحل الوحيد لحماية الاقلية الدينية ، رغم وجود حلول اخرى فى حضارتنا وتاريخنا ، بعضها قد يكون دنيوى عربى اسلامى ، وبعضها اسلامى دينى .

وعلمانية الجماعة القبطية ، هى بالنسبة لبعض فئات الجماعة ، حالة المجتمع ، دون ان تكون حالة الجماعة / الكنيسة . ولكنها ، لدى بعض الفئات الاخرى ، الاكثر تحديثا وتغريبا ، هى حالة للمجتمع ، ويجب ان تكون حالة للجماعة / الكنيسة . وهنا تعود العلمانية ، كسلاح موجه للكنيسة ، بعد ان كانت شعارا تعمل من خلاله الكنيسة . ولدى الفئة الاخيرة ، فإن تحديث الكنيسة وعلمانيتها ، ومحاربة نزعتها الكهنوتية ، هدف يجب العمل من اجله . ولان تلك الجماعة ، صغيرة وقليلة الاثر ، لذلك فان المشكلة بين الجماعة والكنيسة مازالت محدودة . ولان هذه الفئة المتغربة ، كثيرة بين اقباط المهجر ، لذلك فإن المشكلة بين الكنيسة وجماعة اقباط المهجر ، أكثر حدة .

أما عن التحديث فقد اصبح سائدا لدى الجماعة والكنيسة معا ، وهو بالنسبة للجماعة مجال تفوقها ، وفرصتها فى النهوض وتحقيق الطموح ، وهو بالنسبة للكنيسة وسيلتها ، كى تنافس المجتمع والدولة ، وتنافس الطوائف الاخرى ، والمسيحية الغربية ، أى انه وسيلتها حتى تظل فى ذلك المشروع التحديثى ، منتمية للعصر ، ولاتحارب بدعوى جمودها وتأخرها .

لهذا تغير وضع اقباط مصر منذ عهد السادات ، فقد فتح امامهم المجال خاصــة فـى العمـل الخاص، وفتح المجال امام اتقان فنون العصر ، والتفـوق المهنـى ، وهـو مجـال اثـير لـدى الجماعـة القبطية . واصبح اقباط مصر ، قوة تحسب لعملية التحديث ، ومـع ضيـاع معركـة الاسـتقلال ، أصبحت الجماعة قوة تحسب لعملية الانضمام فى النمط الكونى العالمى . و لم تظهر بين الاقبــاط قـوى تقـاوم عمليـه التنميـط الغربـى الحضـارى ، الا الرمـوز التـى تنتمـى للفكــر الشـيوعى او الاشتراكى او للفكر التنموى الرأسمـالى المسـتقل ، وكلهـا اطروحـات غربيـة ، يميزهـا الاهتمـام بالاستقلال السياسى والاهتمام بالتحديث معا . ولكن ظهور تيـار داخـل الاقبـاط ، يعمـل مـن اجل النهضة الحضارية ، اصبح اشكالية لايمكن تجاوزها . وهنا خطر كبـير ، لان نجـاح التنميـط الغربى ، أو الدخول فى نمط عالمى لاحضارى ، سيتواكب مع نمو الجماعة القبطيـة ودفـع قوتهـا للامام ، اما الدخول فى نمط التعدد الحضارى سواء نمط التعاون او نمـط الصـراع الحضـارى ، فسيتبعه دخول الاقباط فى مأزق كبير ، لان نمو الذات الحضارية لامتنا فى مواجهـة الاخريـن ، تعاونا او صراعا ، سـيحمل الاقبـاط ثمـن اشـتراكهم كجماعـة وكمؤسسـة فـى عمليـة التنميـط الحضارى ،بالطبع ، كما سيحمل غيرهم ، من مؤسسات ونخب المجتمع .

الكنيسة والتحديث

فى عمق تجربة الكنيسة الارثوذكسية ، الكثير من مشكلات المجتمع ، ونظامه السياسـى ، وان كان فى تجربتها مساحة من حريـة الحركـة ، وحريـة الاختيـار ، دون صـراع دولى . كمـا حدث ويحدث مع الدولة المصرية . فهل لنا ان نعيد التاريخ ، تاريخ النظام المصرى ، مـع تـاريخ الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، لنرى حكمة التاريخ نفسه ؟

إن اعادة المشاهد وصور التاريخ فى حالة الكنيسة ، تعفينا من الكثير مــن الاعتبـارات التـى نقشناها فى المشهد الثالث ، أى فى مشاهد النظام السياسى . وإن جـاز لنـا أن نعقـد مقارنـة ، فهى لاتعنى التطابق ، بقدر ماتعنى كشف التوجـه العـام لتـاريخ الكفـاح مـن أجـل المسـتقبل ، والصراع من اجل البقاء ، والحرب من اجل الاستقلال .

فإذا كان محمد على ، هو بداية تلك المشاهد ، فإن البابا كيرلس الرابع ، ابو الاصلاح ، هو بدايتها فى تاريخ الكنيسة ، وبينهما قرابة نصف قـرن أو أقـل ، وبينهمـا ايضـا مـابين الدولـة /

المجتمع من جانب و الكنيسة / الجماعة من جانب آخر ، من مسافة فى توقيت الصراع ، دون أن يكون بينهما من مسافة فى مضمون الصراع ، وهى مسافة تقل وتزيد ، ويحددها فى كل الاحوال سقوط نظام وقيام آخر ، بالنسبة للدولة ، أو تغير البابا بالنسبة للكنيسة ، ويبقى فحوى الصراع ومشاهد التاريخ هدفنا الاساسى .

فمع عهد البابا كيرلس الرابع ، بدأت الكنيسة عصر التحديث ، وبدأت عهدها مع انماط التحديث واشكالية الغرب . واذا كان التحديث فى عهد محمد على ، لم يتجاوز حدود بعض الانماط والاساليب الفنية ، فهو فىعهد البابا كيرلس الرابع لم يتجاوز هذا الحد . بل إن تجاوز هذا الحد ، ليس الا دالة لمرور الزمن ، فالاقتباس المرحلى ، هو فقط البداية ، والمراحل التالية لايحددها الا عنصر الزمن فى حد ذاته ، فإحلال نمط حضارى ، بدلا من النمط الاصيل ، عملية تستوعب الكثير من الزمن ، ولاتنجح تماما ، ولايهدف لنجاحها الكامل ، الا فئة قليلة ، ولكن نجاحها شبه الكامل ، أو المؤثر بقوة ، تحدثه قوانين التفاعل ، ومعايير المجتمع ، لاارادة الافراد .

وفى صفحة التاريخ ، سنجد اوراق عن علاقة البابا كيرلس الرابع بالكنيسة الارثوذكسية الروسية ، وغيرها من الكنائس الغربية (١٣) . وهى صفحة من التاريخ اصابتها عوامل التعرية ، فأصبحت صفراء ، مهلهلة الاطراف ، باهتة الحروف ، لاتجدها الا فى الخزائن ، اوراق تتوارثها الاجيال ، فهى - ببساطة - صفحة لم يعاد نشرها ، وليس مسموحا أن تعاد طباعتها .

وتلك صفحة من التاريخ البعيد ، وغيرها صفحات من التاريخ القريب ، وكلها تقدم الآن فى ثوب جديد ، فتاريخ الكنيسة ، كتاريخ الدولة ، تكتبه اللحظة الراهنة ، وتمسح من على جبينه ذكريات ، اذا ادركتها الامة ، ما بقيت فى ثباتها ، وما استطاع احد ان يقف امامها .

وتاريخ الكنيسة الارثوذكسية حافل بالصفحات المطوية تلك الصفحات التى دفع ثمنها كل من حاول اعادتها للحياة . وستظل الكنيسة تعيش عصرا يحركها ، دون ان يكون عصرا تحركه، طالما ظل التاريخ ذلك الماضى المجهول . وأكثر من ذلك ، ستظل الكنيسة تدفع ثمن أخطاء تعاد مع مرور التاريخ ، لانها لم تتعلم من التاريخ ، لانها ببساطة لاتقرأه .

وفى مشهد البابا كيرلس الرابع ، أول حركات الاصلاح ، والتحديث ، وهى أول حالات الاتصال مع الكنيسة الغربية ، بتجربة الصدمة الحضارية ، مثلها مثل صدمة المجتمع بعد الحملة الفرنسية . وهى صدمات تتوالى ، وان كانت بالنسبة للدولة نتيجة الاستعمار والهيمنة ، فهى بالنسبة للكنيسة نتيجة محاولات الاختراق والتبشير والاستقطاب . واذا كان التاريخ قد دفع

الدولة المصرية من الحملة الفرنسية ، الى النظام العالمى تحت غطاء الامم المتحدة ، فإن تاريخ الكنيسة يدفعها من بداية الحملة الكاثوليكية فى بدايات القرن التاسع عشر ، حتى المسكونية المسيحية تحت غطاء المجلس العالمى للكنائس .

ومنذ عهد البابا كيرلس الرابع ، أصبح التحديث نقلا لبعض الوسائل والاساليب التحديثية الغربية ، ثم بعد ذلك سيصبح نقلا لبعض الافكار ، وان كنا نرى ان التغريب فى المجتمع والدولة والجماعة القبطية ، أكبر مما يحدث فى الكنيسة ، وهى لانها تأتى تالية تاريخياً ، فلا تجبرها العناصر الخارجية فقط على التغير ، ولكن العناصر الخارجية والداخلية معا ، أى يحركها التغريب القادم من قوى خارجية ، والقادم من المجتمع عن طريق الجماعة القبطية داخليا .

وهو ما ظهر واضحا ، بعد ذلك ، فى حركة المجلس الملى بقيادة بطرس باشا غالى . ففيه محاولة واضحة لتحديث الكنيسة ، عن طريق القيادات القبطية (الاراخنة) . وهذه المحاولة كانت تفرض على الكنيسة تغيرا سريعا تجاه التحديث والتغريب ، وهى تذكرنا بالمشاهد التاريخية الكثيرة ، التى تكشف عن دور النخبة السياسية الاقتصادية . المتغربة ، فى فرض تغيرات على نمط الحياة من خلال ضغطها على الدولة .

لكن الكنيسة كانت مستعدة للتحديث ، بدرجة محدودة ، ولذلك أصبحت قصة العلاقة بين المجلس الملى القبطى ، والصفوة القبطية من جانب ، والكنيسة ورجال الكهنوت من جانب اخر ، قصة صراع حقيقى . وفى النهاية ، فإن التحديث كان ياتى من الكنيسة ورجالها ، أو من الاقباط المتحالفين مع رجال الكهنوت (١٤) ، فالامر ظل بيد رجال الكهنوت الارثوذكس. وأصبح التحديث رهنا بموافقتهم ، خاصة موقف البابا .

واذا كان البابا كيرلس الرابع ، مقارب تاريخى ، لمحمد على ، فإن حركة المجلس الملى بقيادة بطرس غالى ، كانت مقارب تاريخى ، لعهد اسماعيل . ولكن احداث التاريخ تختلف فى تفاصيلها ، نظرا لاختلاف طبيعة المعارك نفسها . ففى عهد البابا كيرلس الرابع ، واجهت الكنيسة الارثوذكسية الحملة التبشيرية البروتستانتية ، التى كانت من اهم واكبر الحملات ، تأثيراً وضراوة .

إن تلك الحملة التى بدأت بمحاولة غزو الكنيسة الارثوذكسية نفسها ، أنتهت بإنشاء الكنيسة البروتستانتية المصرية ، اولا الكنيسة الانجيلية ، ثم فى مراحل تالية ، الكنائس البروتستانتية الاخرى . والصراع بين الكنيسة الارثوذكسية والحملات التبشيرية البروتستانتية ،

كان صراعا دينيا وحضاريا فى آن واحد . اما الصراع الدينى ، فقد شهد أعنف مقاومة من الكنيسة الارثوذكسية ، فالعقيدة بالنسبة للكنيسة ، هى مكونها الاساسى ، كما انها الحامى الرئيسى لها . اما الصراع الحضارى ، فتحول الى تنافس حضارى . ففى عهد البابا كيرلس الرابع ، ومع بداية التبشير البروتستانتى ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت الكنيسة تتجه بخطى نحو التحديث ، الذى انجز منه بعضه، وقاومت قوى المحافظة داخل الكنيسة بعضه الاخر .

وفى عهد البابا كيرلس الخامس ، ومع تزايد الحملة التبشيرية ، كان نجم حبيب جرجس (١٥) يلمع داخل الكنيسة ، بوصفه احد قياداتها الهامة ، واهم رموز التحديث داخل الكنيسة . وفى تلك المرحلة ، استمرت عملية تحديث الكنيسة من الداخل ، ومنافسة البروتستانت فى الاساليب والانماط ، والاختلاف معهم فى العقيدة لحد الصراع . وهنا ظهرت مدارس الاحد ، ومهما اختلفنا حول مصدر الفكرة ، فإن هذا النموذج قد ظهر قبل ذلك بفترات طويلة كجزء من عملية الاصلاح البروتستانتى فى الغرب (١٦) . ومن التبسيط المخل ، ان نقول ان مدارس الاحد هى فصول للتعليم الدينى، فهى وسيلة ، كان لها دور كبير فى صناعة المستقبل ، بل هى ايضا وسيلة تحديثية ، كان من نتائجها ادخال التحديث لعمق الكنيسة ، ولفكرها ، واخراج قيادات للتحديث ، كان لها أن تقود الكنيسة بعد ذلك .

ومدارس الاحد ، هى مؤسسة تعليمية تتبع الكنيسة ، وتربى الاجيال الجديدة على نمط الكنيسة . وهى فكرة استخدمتها الحركة البروتستانتية فى الغرب ، لتكسب ارضا جديدة لها ، فى مواجهتها مع الكنيسة الكاثوليكية . وهى تعنى اخراج الطفل من اى بيئة قد تعيق تكوينه على النموذج المرغوب من الكنيسة . لذلك فإن حملات التبشير البروتستانتى فى مصر كما فى غيرها ، استخدمت هذا الاسلوب فى مواجهة الكنائس المحلية ، كما استخدمته فى مواجهة الاديان الوثنية فى الدول التى لم تكن تدين بالاديان السماوية . وهو نفس الاسلوب الذى استخدمته الكنيسة الارثوذكسية فى مصر فى مواجهة حملات التبشير البروتستانتى (١٧) .

ومدارس الاحد ، تمثل بديل عن الاسرة ، أى انها تربى الطفل على نموذج يختلف عن نموذج الاسرة ، الا اذا كانت الاسرة نفسها على علاقة قوية بالكنيسة . لذلك ، فمدارس الاحد، هى استخدام لاسلوب يعتمد على المؤسسة فى مواجهة الافراد ، دون اعتراف بوجود تكوينات اجتماعية اخرى ، ودون وجود وسطاء اجتماعيين . وهى نفس الفكرة التى تستخدمها الدولة فى مواجهة الافراد ، لاحداث التنميط التحديثى المطلوب ، دون وجود عائق

من الجماعات او الأسرة ، التى هى اصغر الجماعات . وهـو بهـذا اسـلوب استخدمته ، الدول الغربية ، ثم الدول السائرة على نمط التحديث ، ومنها مصر .

وهكـذا كـان حبيب جرجس ، بداية جديدة لعملية التغير والتحديث داخل الكنيسة الارثوذكسية المصرية . وهى بداية تواكبت مع فكرة النهضة كما جاءت على يد مفكرين كثيرين ، ومنهم الامام محمد عبده ، وهـى ايضا تلك البداية التى سمحت بدرجة أعلى من التحديث ، كما حدث فى المجتمع ايضا .

فبعد ذلك ، وقبل منتصف القرن العشرين ، يظهر القمص ابراهيم لوقا ، وهـو ليس مجرد اسم ، بل هو رمز لاتجاه ،له دلالة كبيرة . فالقمص ابراهيم لوقا (١٨) ، بدأ عملية تحديث شاملة ، وكان على علاقة بالكنيسة الانجليكانية (كنيسة انجلترا) .

ومن خلال تفاعله مع النمط الكنسى الغربى ، بدأ فى ادخال العديد من الاصلاحات فى كنيسته بمصر الجديدة (كنيسة مارمرقس - كليوباترا) . وهو اول من بدأ العلاقة مع مجلس الكنائس العالمى ، بحضوره الجمعية العامة الاولى فى عام ١٩٤٨ . وعندئذ كان القمص ابراهيم لوقا ، خائن الكنيسة الذى يريد دمجها مع الكنيسة الانجليزية . أما الان وعندما تشوه صفحات التاريخ ، فقد اصبح اول من اقام علاقة مع مجلس الكنائس العالمى ، واصبح للكنيسة الارثوذكسية تاريخ طويل للعلاقة ، يبدأ بالقمص ابراهيم لوقا ، ثم الانبا صموئيل ، فالعلاقة لم تبدأ - اذن - مع البابا شنودة الثالث .

هكذا يكتب تاريخ الكنيسة ، دون اعادة الاعتبار لمن دفع ثمن التحديث اولا . ويعاد التاريخ وتشوه ذاكرة الجماعة ، فتقبل المزيد من التحديث ، دون أن تراجع طريقها ، ودون أن تحذر من مرحلة التنميط الغربى الكامل .

وعندما جاء البابا كيرلس السادس ، كانت الكنيسة تموج بتيارات التحديث ، تيار المجلس الملى ، وتيار الرهبان الجدد ، الذى هو وليد لحركة حبيب جرجس التحديثية ، أما البابا كيرلس السادس ، فكان البابا المحافظ ، الذى أطلق العنان لقوى التحديث ، واختلف معها ، ولكنها كانت الاقوى ، وكان لها الغلبة فى الشارع القبطى ، فبدأت مشروعها الاوسع للتحديث ، حتى يأتى البابا شنودة الثالث فى ١٩٧١ ، ويجلس على الكرسى البابوى ، راهب عاش حياته ، وتشكلت صراعاته ، ما بين التحديث ، والمحافظة على تراث الكنيسة . فكان أول بابا ، يولد

فى رحم عملية التحديث ، التى أنجبت بعد ذلك معظم رهبان وقيادات الكنيسة من خلال رجال الكهنوت ، ومن القيادات القبطية .

المأزق البروتستانتى

فى الصفحات السابقة ، ركزنا على الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، والجماعة القبطية. وسنحاول التعرض هنا ، للكنيسة البروتستانتية ، خاصة الكنيسة الانجيلية . والواقع ان بعض عناصر القضية تتشابك وتتداخل ، وان كانت الحالة فى النهاية لها تميزها ، بين الارثوذكس والبروتستانت والتميز هنا بسبب " القبطية " التى تمثل سياق للتميز الدينى والقومى معا ، وهو السياق الذى لانجده فى الحالة البروتستانتية .

فإذا كان الصراع بين الكنيسة الارثوذكسية ، والتبشير البروتستانتى ، قد دار حول العقيدة والحضارة ، فإن التبشير نفسه قد دار حولهما ايضا ، فارساليات التبشير ، جاءت ومعها منظومة عقائدية جديدة ، ومنظومة حضارية جديدة ايضا ، وكلا المنظومتين نتاج الحضارة الغربية . والبروتستانتية فى حد ذاتها ، ترجع الى حركة اصلاح كبرى ، نابعة من خط هامشى مسيحى ، وجد عبر تاريخ المسيحية ، وهو تيار الاطهار ، أو تيار التطهر . فالبروتستانتية – اذن – حركة اصلاح داخل الهيلينية المسيحية ، وقد جاءت من داخلها ، على يد راهب أغسطينى هو مارتن لوثر . فهى تنبع من الهيلينية المسيحية ، ومن الاغسطينية (نسبة للقديس أغسطينس) . وكما كان بين حركة الاصلاح والكنيسة الكاثوليكية من صراع ، هكذا كان بينها وبين الكنيسة الارثوذكسية . اما عن الحالة البروتستانتية المصرية ، فعلينا أن نميز بين الجانب الدينى ، وذلك الحضارى .

فعلى الجانب الدينى ، تميزت حركة الاصلاح ، بالتركيز على التطهر الفردى ، والايمان الفردى ، فهى نابعة من حضارة فردية ، سبق لها فى جذورها الهيلينية ، أن طبعت المسيحية بطابع مقارب . ونتصور أن فكر التطهر كان وراء نشر الفكر البروتستانتى فى مصر ، خاصة وان الانتشار الحقيقى لم يحدث فى القاهرة ، بل حدث فى اسيوط ، حيث صعيد مصر ، أول من افرز فكر الرهبنة ، داخل الكنيسة الارثوذكسية (١٩) . من هنا ، جاء عنصر التقابل ، الذى

مهد ارضية لانتشار البروتستانتية فى الصعيد ، ومنه الى باقى انحاء مصر ، فى الفترات الزمنية اللاحقة .

وتواكب هذا الانتشار ، مع الحالة التى وصلت لها الكنيسة الارثوذكسية نفسها . حيث كانت فى مرحلة الجمود والتأخر ، وتشرف على بداية مرحلة التحديث على يد البابا كيرلس الرابع ابو الاصلاح (٢٠) . فمهد ذلك لانتشار البروتستانتية ، وتواكب الصراع بين الكنيستين، مع اندماج التحديث والتطهر فى الكنيسة البروتستانتية ، ومواجهة الكنيسة الارثوذكسية لذلك من خلال مزيد من التحديث . مما جعل الكنيسة المصرية ، فى ذلك الوقت تشهد بداية دخول أنماط تحديثية إلى ثوبها المسيحى .

وفى فترة لاحقة ، تبدأ مدارس الاحد فى الكنيستين ، والغريب أن بعض الكتاب من الطرفين ، يتنافسون على حق " الابداع " ، فكل كنيسة تؤكد انها صاحبة المبادرة فى نشر فكرة مدارس الاحد . رغم ان التاريخ يؤكد انها بدأت مع حركة الاصلاح البروتستانتى ، مع نهاية القرن السادس عشر . فالكنيسة الغربية البروتستانتية ، هى صاحبة فضل " الابداع " ، وعلينا أن نتنافس حول فضل " النقل " ، اذا كان النقل امر يدعو للتنافس .

واذا كانت الكنيسة الارثوذكسية قد اتجهت الى التحديث منذ عهد البابا كيرلس الرابع ، كما اتجه نحوه المجتمع المصرى ، منذ عهد محمد على ، فالكنيسة البروتستانتية ولدت ومعها بذور التحديث ، أى بذور النمط الغربى . ومع ذلك فإن البدايات تفرق بين الجانب الدينى والجانب الحضارى ، كما ان النهايات تفرق ايضا .

فعلى الجانب الحضارى ، ظهر منذ بداية التبشير البروتستانتى ، نواة لجماعة غلب عليها الانتماء للطبقة العليا ، وتشابهت مع الصفوة القبطية صاحبة مشروع المجلس الملى ، وهذه الفئة الصغرى ، ومعظم رموزها من اسيوط والقاهرة ، فى البداية ، تمثلت النموذج الدينى والحضارى معا ، وربما غلب عليها النموذج الحضارى ، وظهر فيها قدر كبير من التغريب ، بل ان بعض افرادها عملوا قناصلة للسفارات الاجنبية ، وارتبطوا بمصالح عمل مع الغرب (٢١).وهو ما تواكب مع تداخل عمل الارساليات مع عمل السفارات والاستعمار ، وما ظهر من حماية من قوات الاحتلال للمرسلين الاجانب ، بوصفهم رعايا أجانب ، الامر الذى حمى عملية التبشير ، خاصة فى ذروة صراعها مع الكنيسة الارثوذكسية ، وكذلك فى صراعها مع الكنيسة والمسلمين معا ، بعد ذلك .

وانقسام البداية البروتستانتية ، الى تيارين ، له أهمية كبيرة فيما حدث بعد ذلك . فالتيار التطهرى ، المتأثر بالرسالة الدينية ، شكل بعد ذلك تيار المحافظة البروتستانتى ، واقام الكنيسة الوطنية على هذا الاساس ، مع احتفاظه بالبذور التحديثية منذ البداية ، بل ان هذا التيار ، حجم - فى النهاية - من التأثير التغريبى للمرسلين ، كما انهى وجود التيار الآخر ، المتمثل فى الجماعة البروتستانتية المتغربة . فكما فشلت حركة المجلس الملى الارثوذكسى فى قيادة حركة التحديث فى الكنيسة الارثوذكسية ، كذلك فشلت أدوار الصفوة البروتستانتية فى قيادة حركة التحديث بها . وهكذا جاء التحديث فى النهاية ، من داخل الكنيسة ، فى الحالتين . وان كانت درجة نمو وتطور التحديث ، ودرجة سرعته تختلف ، فالكنيسة البروتستانتية أصبحت مؤهلة لدرجة أعلى من التحديث ، وكذلك درجة أعلى من الانخراط فى النمط الغربى .

الأممية المسيحية

إن هذه المشاهد التاريخية السريعة للحالة البروتستانتية ، تنقلنا سريعا لموطن الازمة ، وقبل اكتمال التاريخ . فالتبشير البروتستانتى ، ومع مرور الزمن ، اخرج الجماعة البروتستانتية من فكرة القبطية ، ولكنه اسلمها فى النهاية ، الى فكرة الاممية المسيحية . فالكنيسة البروتستانتية، ومنذ بدايتها ، ليس لديها مانع عقائدى ، يعرفها ويميزها عن الآخر المسيحى . لذلك أصبح توجه الكنيسة الاممى ، علامة عبر تاريخها ، تظهر أولا فى شعورها بالرابط المسيحى الاممى ، عبر الطوائف البروتستانتية فى العالم ، ثم تسلمها فى النهاية لمحاولات اختراقها وضمها الى عملية تنصير العالم ، التى تتواكب مع عملية تغريب العالم . واذا كانت الاصولية المسيحية تتحالف مع الراسمالية المتطرفة ، فإن الليبرالية المسيحية تحالفت مع الفكرة الغربية الليبرالية ، أو مشروع الرفاهية لكل العالم . وتأثر كل تيار فى الواقع الراهن ، بصعود وهبوط القوى السياسية الغربية ، الليبرالية والمحافظة .

فهل استطاعت الكنيسة البروتستانتية الوطنية ، أن تخلق هوية لنفسها ؟! إن الهوية المتفردة للكنيسة البروتستانتية فى مصر ، لم تظهر الا فى جناحها المحافظ (٢٢) ، ذلك الجناح الذى ينتمى تاريخيا الى شيوع التطهر ، كأحد أهم أسباب انتشار البروتستانتية .

ومن التطهر ، ظهر المزج بين التطهر الديني ، والتقاليد المصرية المحافظة ، فأصبح الرابط بينهما هو التشدد . ومن ذلك الرباط ، كونت البروتستانتية المصرية هويتها الخاصة ، التى جعلتها تنفصل عن بعض تيارات البروتستانتية العالمية ، ومنها الكنيسة المشيخية الامريكية ، التى هى صاحبة الارساليات التى انشأت الكنيسة الانجيلية المصرية . وكذلك الحال ، بالنسبة للطوائف البربوتستانتية الاخرى ، التى تميل للمحافظة ، وتتعلق بجذورها الغربية المسيحية ، أكثر من حاضر بعض الكنائس الغربية المؤسسة لها ، والتى اتجهت الان الى الليبرالية .

ولكن هذه النزعة المحافظة ، جعلت الكنيسة عرضه للاختراق الاصولى الغربى المعاصر ، الذى جاء على ارضية تنتمى له تاريخيا ، وتتلاءم معه فى تشددها .

ولكن التيار المحافظ البروتستانتى ، لم يقدم لنا رؤية حول انتماءه للمجتمع ، بل انه مع مزج التطهر البروتستانتى بالتقاليد المصرية المحافظة ، جعل محكات توجهاته ، تقتصر على محك المحافظة، فكلما كان المجتمع اقرب الى المحافظة ، كلما تكيف معه . وكلما كانت التيارات الغربية ، أقرب الى المحافظة البروتستانتية ، كلما كانت اطاره الامى الواسع .

أما عن القومية المصرية ، والعربية ، والاسلامية ، فقد كان هذا التيار أقرب الى الانعزال ، أو العزل المقصود عن تلك الاشكاليات ، لذلك لم يتبلور بداخله خطاب سياسى ، ولم يحدد موقعه من الحياة ، وقضايا السياسة ، الا فيما يخص حكمه الاخلاقى على الحياة ، أى على " العالم " الذى ينعزل عنه .

ولكن المستقبل كان يحمل معه ، تيارات جديدة ، تبدأ فى الظهور منذ النصف الاول من القرن العشرين ، وتظهر بصورة حادة بعد ذلك ، خاصة فى سبعينات القرن العشرين، وتحمل معها تيار الاصولية المسيحية ، وتيار الليبرالية (الإستنارة) المسيحية . ومع الأول تظهر الأممية المسيحية فى اشد صورها عنفا ، متجاوزة بذلك حدود الوطن نفسه من احل عالم مسيحى غربى واحد . ومع الثانى ، يظهر التوجه نحو التحديث الشامل ، او التنميط الكامل للحياة ، داخل النموذج العالمى " الغربى " .

وندر الخطر تبدأ من حيث بداية التاريخ البروتستانتى . فالكل يتجه نحو النموذج الغربى ، والكنيسة مع هذا " الكل " ، ولكن الكنيسة الارثوذكسية تحتفظ بحاجز ، لاالحضارة ، بل العقيدة الدينية ، فيصبح اعادة صنعها على النموذج الغربى أصعب ، أما الكنيسة البروتستانتية ، فإن العقيدة نفسها تساعد على اختراقها ، ولا يبقى لها كشعب ، الا ما لدى المصرى من تراث

اخلاقى يحاول المحافظة عليه ، ولكنه يتعرض الى ابشع عمليات التنميط الاخلاقى ضراوة ، حتى بات جميع المصريين ، وبلا استثناء ، يبكون على الاخلاق المهددة ، حتى النخب والمؤسسات القائدة لعملية التغريب ، تبكى ايضا على اخلاق الماضى ، ولم تفق من غفلتها بعد لتعلم ان عملية التغريب ، تحت دعاوى التحديث والتنمية والكونية ، هى التى أهدرت قيمنا واخلاقنا .

فى هذا السياق ، فإن قدرة الكنيسة البروتستانتية على المقاومة تضعف سريعا . ففى تاريخها لاتحتاج لادانة أول من شارك فى مجلس الكنائس العالمى ، وإن كان التيار المحافظ يدين ليبرالية المجلس الحالية . ومن تاريخها ايضا ، يأتى التحديث تدريجيا ، دون مقاومة ، الا فيما يخص الاخلاق فقط . وهنا فإن دور التيار المحافظ ، بإعتباره مدافعا عن التطهر البروتستانتى ، والاخلاق المصرية معاً ، يتضاءل تدريجيا ، مع تزايد التحديث والتغريب معا للجناح الاصولى والجناح الليبرالى للكنيسة المصرية ، كما ان هذا الدور يتضاءل ايضا بسبب اندماج الجذر البروتستانتى بالتحديث والغرب ، منذ بدايته كحركة وافدة .

وهكذا اصبح ميراث الكنيسة البروتستانتية المصرية ، هو مزيج من التراث المصرى الاخلاقى، والتراث الغربى البروتستانتى . واصبحت مصريتها تأتى من شعبها أكثر مما تأتى من فكر المؤسسة . ولذلك كان لها أن تعيش من خلال تيارها المحافظ الذى أدمج المصرية والبروتستانتية معا ، على محك الاخلاق ، ولكن ما كان لها أن تعيش اذا قامت على أكتاف الفئة ، التى توحدت مع التغريب منذ بدايتها . وهنا تأتى المصرية من الشعب نفسه ، الذى هو مصرى بالضرورة ، وبالميلاد ، دون أن يأتى من مكون حضارى تراثى ، تمثله المؤسسة نفسها (٢٣) . وتوازى ذلك ، مع توجه الارساليات البروتستانتية الغربية ، نحو ترك الكنيسة المحلية تنمو مستقلة عن الكنيسة الغربية التى انشئتها (٢٤) . وهو تحول تواكب مع انتقال الغرب من الاستعمار العسكرى ، الى الهيمنة ، لذلك تعود الكنيسة الغربيبة للتأثير مرة أخرى ، ولكن فى ثوب الهيمنة الفكرية ، وذلك مشهد أخر .

المشهد السابع

الأقلية القبطية ...... جماعة بلا مشروع

رأينا في التصور السابق ، كيف أصبح النموذج العلماني / التحديثي وعاء لصهر الجماعة المسيحية مع المجتمع ، وكأن المشروع الغربي هو مشروع المجتمع ككل . ويبقى شعار المصرية ، شعار أجوف ، أو عنوانا بلا مشروع ، أو أمة بلا حضارة . المشكلة هنا أن المشروع التحديثي ، أعطى عبر تجارب قرنين من الزمان ، مساحة للحركة والتفوق والظهور ، للجماعة المسيحية ، ونعني بها مسيحي مصر ، بكل طوائفهم . بل أن توحد الاتجاه والتوجيهات ، يجعلنا نتكلم عن جماعة قبطية ، تضم كل مسيحي مصر ، ويبقى الفرق بين الارثوذكس وغيرهم في التاريخ ، والميراث التاريخي ، الذي هو مصري ممزوج بالمسيحية ، الهيلينية الشرقية بالنسبة للارثوذكس ، والهيلينية الغربية بالنسبة للكاثوليك ، والبروتستانتية الغربية بالنسبة للبروتستانت .

وتظل مشكله الجميع ، هي عدم قدرة المسيحيين ، أو الكنيسة ، على إقامة نهضة حقيقية ، تمثل حضارة المجتمع ككل ، وتوحد الجماعة / الامة . وتظل تجربة مسيحي الشام ، تجربة هامة في الاذهان ، وتمثل النموذج الامثل لكل المسيحيين العرب ، وان كانت تجربة غير كاملة ، وقفت على الحدود بين العروبة والاسلام ، والاهم من ذلك انها جاءت داخل الوعاء العربي بدون الحضارة العربية نفسها ، فقد تغلب على هذه التجربة ، وعلى القومية العربية ، النموذج العلماني / التحديثي . اذن هي نماذج تختلف في الدرجة ، من السياق العربي ، حتى السياق المصري ، وتظل مشكلة كل المسيحيين العرب ، تكمن في الانتماء الحضاري للامة ، الذي هو انتماء يعوقه اندماج العروبة والاسلام ، كما يعوقه ايضا ذلك المكون الغربي الضارب في تيارات الفكر المسيحي ، نتيجة الانتصار التاريخي في القرون الاولى ، للمسيحية الهيلينية على المسيحية غير الهيلينية ، رغم أن الاخيرة هي الاصل ، ورغم أن الوعاء الحضاري الاصيل للمسيحية ، كان شرقيا ساميا ، مصريا وعربيا أكثر من كونه هيلينيا .

وحتى لاتتمادى فى التصورات حول الدين والحضارة ، نتصور أن الدين يأتى حاملا الوعاء الحضارى لمنشأه ، ثم فى الاديان التبشيرية العالمية ، أى المسيحية والاسلام ، تخرج الرسالة الدينية الى العالم ، فتندمج العقيدة ومبادئها الاساسية مع أنماط حضارية أخرى . فالرسالة الدينية عابرة للحضارات فى جوهرها . ولكن فى نصها تأتى حاملة الوعاء الحضارى الذى جاءت منه ، لذلك تصبح دين وحضارة بالنسبة للسياق الذى جاءت منه ، وتصبح دين لأى سياق أخر تصل اليه . وهو شأن المسيحية والاسلام ، وكلاهما ينتمى الى جذور تاريخية حضارية واحدة . ولكن الاسلام نصا ، حمل وعاء حضارياً واحداً ، أما المسيحية ومن خلال رسائل تلاميذ المسيح ، فحملت وعائين حضاريين ، الاول شرقى ذو جذور يهودية ، والثانى غربى ذو جذور هيلينية . وصراع المجامع الكنسية الاولى ، وقبل أن يتحول الصراع بين الهيلينية الشرقية والغربية ، كان الصراع بين الشرقية اليهودية والغربية الهيلينية ، وهو صراع بدأ بين تلاميذ المسيح أنفسهم . ولذلك قصة أخرى .

نعود لمشكلة الجماعة المسيحية ، التى لم تستطع اقامة جذور لنهضة مشتركة مع كل عناصر الامة العربية الاسلامية . وبات تعبير " الامة العربية الاسلامية " ، وبالطبع تعبير " الدولة الاسلامية " ، لايحمل معه فى الذهن المسيحى ، سوى الأسلمة . وكأن الاسلامية لاتعنى سوى الايمان بالعقيدة الاسلامية . بل أن هذا الامر أصبح أكثر انتشاراً فى المجتمعات العربية ، فأصبحت الاسلامية هى أسلمة بالنسبة للعلمانيين ، أسلمة للنظام السياسى ونمط الحياة . وهى كذلك ايضا بالنسبة للملحدين ، أسلمة للفرد نفسه .

ولكننا نتصور فى المقابل أن الفكرة العربية الاسلامية ، هى الوعاء الحضارى ، لذاتنا الحضارية ، وتاريخنا ، وحتى جغرافية وطننا . وأن الموقف من العقيدة غير الموقف من الحضارة ، وان الاول اختيار يعنى الايمان الفردى بالعقيدة ، اما الثانى فهو مصير يعنى الايمان الحضارى بالميلاد . فلايوجد " فرد " أو " جماعة " تنتمى بالميلاد للامة العربية ، دون أن تنتمى لها حضاريا كجزء أصيل منها ، بالميلاد والتنشئة الاجتماعية والحضارية . وحتى من يستطيع تغيير دينه ، فإنه لايستطيع تغيير حضارته ، الا اذا اعاد عجلة الزمن ، وبدأ تاريخه فى أرض أخرى ، ووطن مختلف ، واسرة جديدة ، أى فى حياة أخرى تماما .

واشكالية التداخل بين المصرية والعروبة والاسلام ، أن الاسلام يحمل الوعاء الحضارى العربى ، والمصرية هى حالة خاصة من العروبة ، وجزء لايتجزء منها ،ولكن هذا التداخل حول

الاختيار الحضارى ، من اختيار مصيرى حتمى ، الى اختيار صراعى ، تدور حوله الصراعات ، فلا نصل بالجدل والصراع ، الا الى أمة مفككة .

تلك هى أزمة العلمانية ، وأزمة الجماعة المسيحية ، وأزمة القبطية . فالعقل المسيحى ، يتجه خارج إطار الفكرة العربية ، ويتوحد مع العلمانية ، ويجد سنده فى العلمانيين ، وتتوحد الامة ولكن بلا مشروع ، تتوحد كى تتغرب ، ولا تتوحد كى تنهض .

واذا كان الاندماج مع الغرب ، هو بالنسبة لبعض العلمانيين والنخبة والدولة من أجل التحديث ، وبالنسبة للبعض الاخر من العلمانيين مواجهة لفكرة الدولة الاسلامية ، فقد أصبح هذا الاندماج الحياتى ، هو حصن الامان للجماعة المسيحية . والمشكلة أن كل فئات المجتمع تملك البديل ، الذى قد تتحول له وهو النهضة الشاملة للامة ،بدلا من الدخول فى عملية التنميط الغربى ، وهوتحول سيحدث ، ان كان تصورنا عن عملية التطهير الحضارى ، ومدى سرعتها واقترابها، صحيحا فعند هذا الحد، سيشعر المجتمع، انه يقترب من " الموت الحضارى "، وعند ذلك تظهر شرارة النهضة الحضارية . وهنا ستواجه الكنيسة والجماعة المسيحية ، أزمة حادة ، ستدفعها الى العزلة الكاملة ، وعدم معارضة التيار النهضوى الناشئ ، وكذلك عدم المشاركة فيه ، ويفوتها لحظة تاريخية أخرى ، ليصبح الاندماج كاملا وللابد .

كما أن اندفاع الجماعة القبطية نحو الاندماج الحياتى مع الغرب ، واندفاع الجماعات المسيحية الاخرى ، نحو الاندماج الحياتى و الدينى مع الغرب ، يلقى حول الجماعة ظلا من الشك ، من قبل التيارات الاسلامية ، وخاصة المسلحة . مما يجعل الجماعة المسيحية ، تدفع نحو العلمانية ، وتدفع الدولة ، ويتقابل دفعها للدولة مع دفع الغرب للدولة ، وهنا تتشابك خطوط تبدو انها مؤامرة ، وهى ليست مؤامرة ، بقدر ماهى اختيار البديل الغربى ، لدى الجماعة المسيحية والدولة ، وبالطبع لدى الغرب نفسه . ومرة أخرى يصبح النموذج الغربى ، موحدا للفرقاء ، ولكنه رهان على نجاح عملية نمذجة العالم ، على النمط الغربى ، ورهان على أن النموذج الغربى نفسه سيستمر وانه نهاية التاريخ ، وانه سيحقق الرفاهية للجميع .

وذلك الاندماج مع الغرب من قبل الجماعة القبطية ، يتوازى مع وعى الجماعة بأنها تسير فى أمان لانها تسير مع قوى كثيرة فى المجتمع ، كذلك يتواكب مع وعيها بانه تمثل " الامة القبطية " ، بحدود الدين والطائفة والحضارة ، وانها بالتالى قابلة للاستمرار والحفاظ على هويتها الخاصة . ويزداد هذا الوعى خاصة لدى الكنيسة القبطية التى تتصور انها ستظل محتفظة

بتميزها، داخل السياق المصرى ، والسياق المسيحى العالمى ، لانها مصرية وارثوذكسية ومسيحية هيلينية شرقية . رغم ان آلة التنميط الغربى ، اذا نجحت فى القضاء على تميز امة العرب ، فأنها ستنجح بالتالى فى القضاء على اى تميزآخر ، وتحقق بذلك سيادة الغرب ، وسيادة المسيحية الغربية ، وانتصار للهيلينية الكاثوليكية ، أو انتصار للبروتستانتية الغربية .

وهنا تظهر مشكلة الجماعات المسيحية غير الارثوذكسية ، فالاطار الاممى المسيحى يجذبها، وتبقى قدرتها على المقاومة، وقابليتها للتبعية أكثر ، ولذلك يمكن أن تنهزم سريعا فى عملية التنميط الحضارى الغربى، وتفقد مصريتها وتفقد مزيج التطهر البروتستانتى والاخلاق المصرية. مما يجعلها تبدو وكأنها تابع بالضرورة للغرب. وهى ليست الاجماعات مسيحية مصرية، لم تستطع بنفسها أو خلال كنيستها، أن تحقق النهضة بمعناها الشامل، وهو انهاض المسيحية على جذور مصرية عربية كاملة، والاندماج الكامل مع الامة.واذا كانت الجماعة المسيحية عامة، تبتعد عن ذلك الاندماج فإن الامة ايضا ليست الاواقع يتفكك و لم تملك بعد مقومات النهوض.

لعل مشهد حرب الخليج العربى ، يظل فى وجدان الامة ، بداية النهاية ، أم بداية النهضة ، فهو فى التحليل الاخير بداية لخطة الاختيار التاريخى . وعندما دخلت الدولة المصرية فى التحالف الامريكى، المسمى دولى ، فى أكبر عملية للقرصنة والهيمنة على الامة العربية ، المسماة بالشرعية الدولية ، فى هذه اللحظة ، توالت برقيات التأييد من الكنائس المصرية ، ثم التهنئة بعد ذلك بتحرير الكويت، ثم صمت كامل ، مع صمت الدولة ، تجاه عملية تدمير العراق .

وليس فى ذلك من دلالة ، سوى أنه تعبير عن دخول الجماعة المسيحية بكل ثقلها الى المشروع الغربى ، فالتأييد جاء مكتوبا من الكنيسة ، ومسموعا من الجماعة ، دون أى تحفظات فى أى مرحلة ، وحتى مرحلة تدمير العراق . بهذا وضعت الكنيسة نفسها مع الدولة وبعض النخب ، واختارت الرهان الاخير ، على أن يكون النمط الغربى ، هو نهاية التاريخ والايديولوجيا ، ومتمم حضارة البشرية ، وبعده لاتوجد حضارات أخرى ، فهو نبى البشرية الاخير ، وبعده كلنا بشر بلا أنبياء .

إن الجماعة / الكنيسة بموقفها هذا ، تعلن عن دخولها فى عملية التنميط ، تحاول اعادة رسم وجودها من خلال تأمين نفسها ، باعتبارها جماعة مضطهدة تطالب بحقوقها فى السياق العلمانى ، ويحمى حقوقها تلك ، التحالف العلمانى ، والغرب ايضا . فالغرب يستخدم الورقة المسيحية بوصفه حامى الاقليات ، وله حق التدخل فى الشئون الداخلية حماية للاقليات والمبادئ

السياسية العامة . والكنيسة الغربية ، تجد لنفسها الدور تجاه الكنيسة المصرية ، كحامى لها ، ومؤيد ومناصر سياسى لها فى الازما ت، وحتى الكنيسة المحلية ، قد أكتشفت هذا الدور خاصة وانه كان دورا مؤثراً ولكن فى حدود ، فى أزمة السادات والبابا شنودة (١)، وظهر أنه يمكن أن يكون دوراً مؤثراً فى المستقبل . ولكن ، اذا كان للغرب شروطا سياسية ، فإن للكنيسة شروطها السياسية ، خاصة بالنسبة للتيار المسيحى الليبرالى ، الذى يلعب على نفس ورقة الديمقراطية والليبرالية وحقوق الانسان . واذا كان الغرب السياسى الليبرالى ، ينادى بالانسان الاقتصادى المعلوماتى ، كنموذج دولى ، فإن الغرب المسيحى الليبرالى ، ينادى بالمسيحى المسكونى (العالمى) ، كنموذج دولى ، وفى النهاية فإن كلاهما ينشر القيم الليبرالية الغربية .

لهذا فإن الكنيسة عندما تنفتح على الغرب ، تدخل فى عملية لها ثمن وكذلك لها عائد . وثمنها المزيد من التنازل عن أسوار التميز ، وهو ثمن فادح بالنسبة للكنيسة الارثوذكسية ، وهو مغامرة قد تنهى ماحققته الكنائس الاخرى من استقلال . أما العائد فهو التأييد والدعم الدوليين، معنويا وماديا . ولكن كل من الثمن والعائد ، مجرد عناصر التفاعل ، أما نتيجته النهائية ، فستكون التنميط الشامل على النموذج الغربى .

ولعل المجال الاجتماعى ، قد أصبح أهم مجالات " الصفقة " ، فمع دخول الكنيسة لمجال العمل الاجتماعى ، تصبح أكثر اغراقا فى التحديث ، ليس فقط لانه يوفر الاساليب المناسبة ، ولكن لان ذلك يتمشى مع اوضاع المجتمع، ويتمشى بالتالى مع المفهوم الاعم للعمل الاجتماعى، أى " التنمية " .

لهذا فإن الجهود المؤسساتية المسيحية فى مجال العمل الاجتماعى - تصبح أهم العوامل التى تدفع نحو النموذج الغربى . وهوما نجده واضحا فى المؤسسات الاجتماعية المسيحية ، وفى الانشطة الاجتماعية للكنيسة ، فهى أكثر الجوانب التى تظهر فيها أكبر درجة من التغريب . وحتى فى نموذج الكنيسة الارثوذكسية ، سنجد أن العمل الاجتماعى ، والذى بدأ بجهود الراحل الانبا صموئيل فى الستينات ، يمثل أكثر مجالات العمل الارثوذكسى ، التى خرجت من عباءة الميراث الارثوذكسى المتميز . وعندما نقارن العمل الاجتماعى لدى الارثوذكس والبروتستانت والكاثوليك ، سنجد أن الفرق الرئيسى فى اقتصار العمل الارثوذكسى على شعب الكنيسة الارثوذكسية فقط ، أما فى المجال البروتستانتى والكاثوليكى فيمتد ليشمل كل فئات المجتمع المصرى عامة مسلمين ومسيحيين .

ولهذا الفرق دلالته ، فالجماعة المسيحية غير القبطية تخرج للاندماج مع النموذج الغربى التحديثى ، دون أن يكون لديها " جدار " القبطية فى مواجهة المجتمع المصرى . وان كان هذا الفرق يختلف عندما نقارن عمل الكنيسة ، بعمل المؤسسات الاجتماعية ، فالاخيرة تتحرك نحو المجتمع ، والاولى تتحرك نحو شعبها ، باعتبارها مؤسسة / جماعة ، لامؤسسة عامة فى المجتمع .

وعندما نصل الى النصف الثانى من القرن العشرين ، ستظهر لنا نماذج ورموز كثيرة للتحديث ، بل أن قيادة الكنيسة الارثوذكسية والبروتستانتية ، تصبح فى يد قيادات تحديثية ، مما يؤدى الى الاسراع فى عملية التحديث . وفى الوسط البروتستانتى تواجه القيادة تيار محافظ يرفض التحديث بهذه الدرجة والسرعة . وفى الكنيسة الارثوذكسية فهى مؤسسة واحدة ولا تتحمل كثيرا صراع التيارات ، فى حين أن المؤسسة البروتستانتية هى مجموعة مؤسسات ، ليس لها رئاسة قابضة واحدة . لذلك سنجد أن التحديث والمحافظة كلاهما يندمجان فى الكرسى البابوى نفسه ، فيأتى التحديث اسرع كثيرا من ذى قبل ، ولكن فى الوسائل والاساليب والعلاقات والموضوعات ، دون أن يكون تحديثا مباشرا لصلب الفكر نفسه . وتبقى الكنيسة الارثوذكسية ، أقل فى توجهها نحو التحديث ولكن درجة توجهها تزيد مع تغير الجالس على الكرسى البابوى ، ونتوقع لها فى مرحلة قادمة ، ان تشهد درجة عالية من التغير ، سوف تأثر جذريا على تكوينها " القبطى " واسوارها العقائدية .

بهذا فإن الكنيسة الارثودكسية تستخدم آليات الجمود لحماية الذات ، وآليات التحديث للدخول فى النموذج العالمى . أما فى الكنيسة البروتستانتية ، فتأتى آليات للجمود من تيار ، وآليات التحديث من تيار أخر . ولهذا فإن الكنيسة الارثوذكسية ، ترتبط بعلاقة تعاون مع المجالس العالمية ، ومنها مجلس الكنائس العالمى ، على أسس سياسية اساسا ، ثم يأتى تأثير فكر المجلس تدريجيا . اما فى الكنيسة البروتستانتية ، فإن المجلس يجد تيار تابع له ، وتيار معارض له .

وفى الكنيسة الارثوذكسية ، فإن أكبر تحول نحو التحديث قاده الراحل الانبا صموئيل ، الذى أقام علاقات قوية مع الغرب ، ومع مجلس الكنائس العالمى ، وقد وضع الاسس ، التى عارضها أنذاك الانبا شنودة ، واستمر فيها واكملها البابا شنودة ، والفرق ليس الا بين مرحلة وأخرى فى حياة الراهب / البابا شنودة الثالث . أما فى الكنيسة البروتستانتية ، فيظل اسم رئيس الطائفة البروتستانتية ، القس صموئيل حبيب ، رمزا لحركة التحديث ، وعلما للعمل الاجتماعى فى الوسط المسيحى .

ولكن تلك الآليات فى مجملها ، دفعت الكنيسة نحو التحديث ، وفى الوقت نفسه كان المجتمع يندفع نحو التحديث ايضا ، والجماعة المسيحية كذلك . ونتصور أن الجماعة فى النهاية ، هى الاساس البشرى ، الذى تحدث فيه التنمية . وهكذا نتصور أن الجماعة كانت معبر للتحديث من المجتمع الى الكنيسة ، ثم معبرا من الكنيسة للمجتمع . فهى اذن تدفع الكنيسة حينا ، وتدفعها الكنيسة احيانا . لذلك يمكنا أن نرى ملامح التغريب وهى تشتشرى فى الجسم البروتستانتى ، ثم تشتشرى فى الجسم الارثوذكسى ، وكثيرا ما كانت الكنيسة البروتستانتية عاملا منافساً يدفع الكنيسة الارثوذكسية لمزيد من التحديث . وهكذا يمكنا أن نتصور العوامل التى عجلت من عملية التغريب فى السنوات العشرين الماضية. والصورة الان فى الكنيسة الارثوذكسية تبدو هيكل شديد المحافظة ومظاهر وانماط تحديثية وغربية تخترق عظام هذا الهيكل.

وفى هذا الشأن ، فإن خبرة الاحتكاك " بالخارج " الغربى ، وخبرة ممارسة النمط الغربى فى " الخارج " المصرى ، تكمل آليات تحديث الكنيسة ، والتى تسير بقوة الدفع الذاتى . وهى تكتسب قدرتها من إكتشاف الكنيسة للنمط الغربى ، بإعتباره طريق تحقيق الإندماج ، ووسيلة تحقيق الانجاز والطموح. بهذا يصبح أى دافع للحركة هو فى النهاية دافع نحو النموذج الغربى . ومع خبرة الاحتكاك بالغرب، تنقل المفاهيم والخبرات ، ويتحقق قدر من النجاح والانجاز ، للقيادات والمؤسسات معا ، كما تتولد أموال غربية تدعم أنشطة الكنيسة ، مما يجعل الآلية مكتملة من حيث العائد فى مقابل الجهد ، وهى خبرات تسرب النمط الغربى تدريجيا الى حسم الكنيسة ، ومهما اشتدت المقاومة فى الكنيسة الارثوذكسية ، أو من الجناح المحافظ فى الكنيسة البروتستانتية ، فإن حركة التحديث بكل مالها من عوامل دفع ، وسياق ملاءم تستمر فى تغيير الهيكل وتحويل النموذج الحياتى للجماعة / الكنيسة .

وتلك كانت - ومازالت - لعبة المحافل والمؤسسات الغربية ، التى تعرف أن الطريق للكنيسة العالمية الواحدة ، تحت زعامة الغرب ، هو الوصول الى القيادات ، وتحويلهم الى قيادات تابعة فكريا ، ومؤمنة بالنموذج التحديثى . ويصبح هؤلاء القادة ، رموز للفكر المسيحى الليبرالى والمستنير (فى حالة البروتستانتية) ، أو رموزا للتحديث كوسيلة حياة (فى الحالة الارثوذكسية) .

وهم فى النهاية يقدمون تصورا يفترض فيه ، أنه " العصر " ، وانه " المدينة الفاضلة " ، للبشرية ، والمسيحية ، ولكن الصورة / النموذج ، ليست الا نمطا غربيا يصلح فى الغرب ، وهو

نمط يتدهور حتى فى الغرب ، وهو فى صورته الواقعية يختلف عن صورته الفكرية المثالية ، وهو فى كل الحالات ليس منا ، وليس منقذا لنا .

اذا كانت الكنيسة الارثوذكسية هى المعقل ، الذى يحتمى بالجمود ، ولايقدر على النهضة ، فهى أيضا المعقل الذى سلم الكثير من مفاتيحه ، لدرجة لاتصدق احيانا . فالكنيسة التى مازالت تتشدق بحربها ضد التبشير والارساليات ، فتحت ابوابها للمرسلين للعمل بداخلها . أما المرسلين من جانبهم ، فقد اقروا حقها فى ان تكون ارثوذكسية ، وركزوا عملهم على انهاضها روحيا واجتماعيا ، وفتحها للمسكونية (العالمية) المسيحية (٢) ، وفتح ابوابها لتغيير الفكر عن دور الكنيسة ، ودور المرأة فى الكنيسة ، ودور الكنيسة فى التنمية . والمرسلون من خلفية أصولية ، عملوا - ومازالوا - نحو تغيير مضمون المنطوق العقيدى ، دون المنطوق نفسه . اما المرسلين من خلفية ليبرالية ، وهم عادة ليسوا مرسلين ، بقدر ما هم خبراء وممولين ، فإن عملهم تركز على تغيير المفاهيم الاجتماعية والحضارية . وفى النهاية فهم يحترمون التميز العقيدى الارثوذكسى ، ولكنهم فى الواقع يخترقون الكنيسة حتى النخاع (٣) . وكل هذا يحدث من باب " الانفتاح " ، والتحديث والمسكونية والحوار ، وغيرها من مسميات العصر . وبهذا أصبح أعداء الامس ، هم حلفاء اليوم ، وتعاونت الكنيسة الارثوذكسية مع مجلس الكنائس العالمى ، ممثل الليبرالية المسيحية ، كما تعاونت مع مرسلين ينتمون للحركة الانجيلية الاصولية ، ومنهم من كتب أوراقة ، واصفا خبرته فى التعاون مع الكنيسة الارثوذكسية (٤) ، وكيفية " انهاضها واحيائها روحيا " دون اثارة حفيظتها العقائدية . وفى النهاية سجلت احصائيات الحركة الانجيلية الاصولية (٥) ، اعداد متزايدة للمنتمين للحركة داخل الكنيسة الارثوذكسية نفسها .

فماذا كسبت الكنيسة الارثوذكسية ؟ نعم .. البعد الدولى ، والنموذج التحديثى للانخراط مع المجتمع والعالم فى أن واحد . أما البعد الدولى فتشكل من خلال العلاقات مع الكنائس والمجالس المسيحية الغربية ، والتعاون مع العديد من القيادات والمرسلين الغربيين . وجاء أقباط المهجر ، ليضيفوا بعدا جديدا ، لثقل الكنيسة فى الغرب،و عندما يتواكب ذلك مع تأييد الانفتاح والاصلاح الاقتصادى والسلام ، تكتمل الصورة / الرهان ، حول النموذج الغربى . ويتواكب ذلك مع صعود العلاقة بين الكنيسة والدولة ، التى يبدو فيها الغرب وكأنه طرف العلاقة ، جاذباً كلاهما ، وحافظا للتوازن فى العلاقة بينهما ، من خلال مفهوم حماية الاقليات.

في الغرب هناك الان ، مسيحية أصولية ، ومسيحية ليبرالية . والاولى تحاول تنصير العالم ، اما الثانية فهى تحاول تغريب العالم . فالمسيحية الاصولية ، تمثل شكل تبشيرى اقتحامى، لايرضى الا ان يكون العالم كله للمسيح ، والعالم كله لامريكا ، كنعان الجديدة ، أرض الموعد (٦) . فالاصولية ، تنشر الرأسمالية الغربية ، التى تقوم على الحرية الاقتصادية لاعلى الحرية السياسية . ونموذجها السياسى رونالد ريجان ، ونموذجها الدينى جيرى فلول ، وبات روبرتسون. وهى حركة ، تحالف جناحها السياسى ، مع البابا يوحنا بولس الثانى ، الذى كان حليفا للريجانية ، وهو يمثل التشدد الكاثوليكى ، نحو كثلكة العالم .ولكن كل من الاصولية البروتستانتية والكاثوليكية المتشددة ، تتجه فى النهاية للصراع مع الاخرى ، فلن يصير العالم كاثوليكيا وبروتستانتيا أصوليا فى أن واحد . والاصولية المسيحية ، تستخدم غالبا وجهها السافر ، ثم تظهر أوجه أخرى عندما تكون تحت الحصار ، كما يحدث لها فى الدول الاسلامية. وهدفها النهائى لايقبل المساومة ، فهو أن يصير العالم مسيحيا انجيليا (أصوليا) ، وان يكون على النمط الرأسمالى المتطرف ، الذى توحدت معه ، وتكون القيادة لامريكا ، أى لدولة المركز فى الاصولية المسيحية المعاصرة .

تلك الحركة ، بشكلها الحاد ، مثلها مثل الهيمنة المباشرة ، والامبريالية السافرة . ولذلك فهى تضع الخطط وتكسب الاتباع وتنشئ الفروع ، فى محاولة لاختراق الكنائس المحلية ، ثم المجتمعات بأكملها . وهى تكن للاسلام عداوة باعتباره أحد أكبر العوائق نحو تنصير العالم . وهى ايضا تؤيد اسرائيل ، وتميل الى تأييد اسرائيل الكبرى ، ولا تقبل السلام ، الا من حيث هو وسيلة لفتح الباب امام الدولة الاسرائيلية ، كقوة أساسية فى الشرق الاوسط . وكثير من الاصوليين يعتبرون السلام ، استسلاما ، فالهدف هو اسرائيل من النيل الى الفرات (٧) .

وتلك الحركة عندما تتعامل مع الكنيسة المصرية ، فهى تتعامل بوجة آخر ، وجه المؤسسة الدينية ، التى تهدف لمساعدة الكنائس من اجل الاحياء الدينى والاجتماعى . واكثر هذه المؤسسات ، والاشد تطرفا ، لايتعامل مع الكنائس المصرية ، بل يحاول اختراقها ، أو أختراق الوطن العربى ، خاصة من خلال الجزء المحتل من أرض لبنان ، وتحت حماية القوات الاسرائيلية

والقوات اللبنانية المتحالفة معها ، حيث موقع واحدة من أهم إذاعاتهم الموجه للعالم العربى ، ثم تأتى قبرص باعتبارها مركز إدارة عملية الشرق الاوسط .

وذلك النموذج الاصولى ، يكشف فى النهاية عن اقتحاميته ، ويعمل على مستوى الافراد ، حتى يتمكن من الاختراق ، أو يعمل تحت قناع . وهو لذلك ليس النموذج الذى يمكن أن يعلن، ثم تتوحد معه الكنائس المصرية ، كما انه نموذج فى جوهره معادى لها ، ولايقبل غير " مسيحيته " وكل ماعداها ليس مسيحية . انه النموذج الذى يعاديك فيدفعك لمعركة الاستقلال . ورغم اختراقه للكنائس المصرية ، الا ان درجة الاختراق ضعيفة وتحت أقنعة ، مما يجعل فكره يخترق الكنيسة ببطء ويثير دفاعها عن نفسها ، كلما زاد وانكشف . ورغم خداعه للكنيسة فى احيان كثيرة ، الا ان الكنيسة واجهته بالفعل فى احيان اخرى . وتبقى هذه القضية، مثل الامبريالية ، مجالا لمعركة الاستقلال ، وان كانت فكرة الاستقلال نفسها تضعف .

ولكن الحقيقة ، أن الزمن الذى نعيشه ، جعل من " الاستقلال " ارادة واهية ، وجعل من الاصولية خطرا كامنا ، ينخر فى جسد الكنائس الارثوذكسية والبروتستانتية والكاثوليكية . والخطر الحقيقى ، سيأتى عندما نكون مع اسرائيل ، أعضاء فى سوق واحدة ، وعندما تنفتح الابواب للغرب بدون ضابط ، وعندما لايحكمنا شئ سوى آليات السوق ، وقيم السوق ، عندئذ يمكن أن تعمل هذه الحركات فى الشارع الكنسى ، وربما الشارع الاسلامى ، وقد تلقى مقاومة ، ولكن هل سيكون لدينا القدرة الكافية على المقاومة ؟ واذا كانت هذه الحركة تعمل الان وتخفى تأييدها لاسرائيل ، فهل ستحتاج لذلك بعد أن أصبحت الانظمة العربية نفسها تعترف بإسرائيل ؟!

المدينة الفاضلة

يمثل الغرب نموذج حضارى عام ، ومجموعة من التيارات الخارجة منه ، والمعبرة عنه . وقد تكلمنا عن الجناح الشيوعى والجناح الرأسمالى فى المنظومة الغربية ، وتكلمنا عن الجناح الأصولىالمسيحى ، وبقى لنا والجناح الليبرالى المسيحى . وكى نقترب منه أكثر ، نتصور اولا شكل التيارات الغربية ، بانها تمثل الطيف . فهى تتحرك من الرأسمالية الى الشيوعية ، ومن

تحجيم دور الدولة كمنتج الى تعظيم دورها ، ومن الحرية الاقتصادية الى العدالة الاجتماعية ... وهكذا . ولكن – وفى ذات الوقت – سنلاحظ ان التيارات الغربية تتحرك ايضا فى اتجاه آخر من التطرف الى الاعتدال . فنتكلم عن العدالة الاقتصادية فى المنظومة الرأسمالية ، وعن الحرية السياسية فى المنظومة الشيوعية . لذلك سنجد ان اوربا ،ذات الازدواجية الرأسمالية – الاشتراكية ، فى حياتها الحزبية ، تمثل نموذجا – فى بعض روافدها – للاعتدال الغربى . وذلك الاعتدال فى تصورنا هو جوهر النموذج الغربى الرشيد . لانه يتميز اكثر بالتوازن ، ويحتوى على عناصر التسوية ، ويحاول تجنب الكثير من الاثار السلبية للنموذج الغربى . ولذلك سنجد ان افكار مثل النظام العالمى ، والاشتراك فى الراسمالية الاقتصادية ، توازن نزعات الاستعمار والامبريالية والهيمنة المباشرة . كذلك فإن الحفاظ على البيئة ، يتوازن مع فكرة استغلال الطبيعة لرفاهية الانسان . وتأتى مفاهيم الاشتراكية ، ودور الدولة ، والاعانات الاجتماعية ، والعمل الاجتماعى ، وتعظيم دور الدولة فى بعض الخدمات ، لتوازن الاثار السلبية للنمو الراسمالى الاستغلالى .

تصورنا اذن ، ان النموذج الغربى يضم التقدم الالى التكنولوجى ، واستغلال المادة ، لتحقيق الرفاهية المادية للانسان ، كجوهر للمنظومة الغربية برمتها . ثم تأتى الرأسمالية بصورة فجة ، وتقابلها الشيوعية كشكل للمدينة الفاضلة الغربية ، وهو شكل سرعان ما تظهر عيوبه ، ثم بعد ذلك ينهار ، وتظل فكرة المدينة الفاضلة الغربية ، لتظهر كقطب ثانى ، للطرف الغربى الرأسمالى ، غير الرشيد . وهكذا فإن الغرب يحافظ نسبيا على الازدواجية ، ولكنها لم تعد ازدواجية المعسكرات ، دولة ضد دولة ، ولكنها أصبحت ازدواجية السياسة داخل كل دولة ، بين نموذج غربى متطرف ، ونموذج آخر رشيد . وتصبح اوربا بذلك ، النموذج الاكثر تعبيرا عن تفاعل هذه الثنائية ، كما انها تصبح الاكثر تمثيلا للنمط الرشيد . خاصة فى فرنسا والمانيا ، وتبقى امريكا معبرة عن سيادة التطرف الرأسمالى ، والذى تمثلة فى أوربا إنجلترا .

فيما سبق ، محاولة لكشف النموذج الغربى ، الاكثر اعتدالا ومثالية ، وذلك لان هذا النموذج ، هو القابل للتسويق فى العالم ، فهو نموذج التحديث والتنمية والحداثة والتقدم ، أى انه النموذج الذى يحاول تجسيد جملة المفاهيم الايجابية للحضارة الغربية ، حضارة الآية المادية . وهنا تكمن خطورة النموذج / الحالة ، فى انه الاكثر بريقا والاشد جذبا . بل أكثر من ذلك ، فهذه الصورة هى المحك الحقيقى لنضالنا ، فإذا تصورناها بإعتبارها نموذج عالمى ، كان علينا ان

نتقدم من خلالها ، ونحاول ان نجد لنا مكان فيها . واذا تصورناها بإعتبارهـا نمـوذج مختلف عنـا فى " القيم " ، وبالتالى معادى " لقيمنا " ، كان علينا ان نكافح حتـى نحقـق نموذجنـا ، ورغـم قوة تأثير هذه الصورة / النموذج الغربى .

والاكثر أهمية ، انه بعد انتهاء الحـرب البـاردة ، وغيـاب الثنائيـة القديمـة ، وظهـور الثنائيـة الجديدة ، اصبح النموذج الغربى الرشيد ، هـو المعـد للسـيطرة والسـيادة علـى الغـرب ، وعلـى العالم. ولذلك اسـبابة الواضحـة ، التـى تكمـن فـى انتشـار سـلبيات الرأسمالية ، مـن البطالـة ، والعنف ، والجريمة ، وفساد البيئة ، وتزايد الظلم الاجتماعى ... وغيرها . وبصدد تلك القضايـا يقدم النموذج الرشيد نفسه ، كمدخل لحل هذه المشكلات ، وتجاوز أزمة الحضارة الغربية .

لهذا نتصور ، ان المستقبل رهن بنجاح هذه المرحلة ، اولا فـى السـيادة علـى العـالم الغربـى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ثم السيادة على العالم . كذلك فإن النمـوذج الرشـيد ، يمثـل مـا نسمعه عن الشـرعية الدوليـة ، والحكومـة العالميـة ، ودور الامـم المتحـدة ، وحقـوق الانسـان ، والديمقراطية ، والحفاظ على البيئة . كما انه يمثل ثورة المعلومات ، وتصور الانسان المعلوماتى ، فى مقابل تصور الانسان الاقتصادى السابق .

إن كل تلك الاحداثيات ، تجعل النموذج الرشيد هو تحدى المستقبل ، لهم ولنـا . وهـو فـى الواقع ، أهم صورة تعرضنا لها فى الصفحات السابقة ، صورة نهاية التـاريخ ، ورفاهيـة العـالم ، والانتصار الأخير للبشرية . وفى هذا المجـال ، يظهـر مجلـس الكنـائس العـالمى ، باعتبـاره الممثـل الاول للنموذج الرشيد ، والبناء المثالى الغربـى ، والاهـم انـه مـن أول أنبيـاء هـذا العهـد وتلـك المرحلة . ولذلك فإن التوقيت الراهن ، هو أفضل لحظة لفهم المجلس ودوره ورسالته .

لعل البداية بالماضى ، حتى نفهم الجذور اولا . فالمجلس يعود فى التاريخ القريـب الى المؤتمـر الدولى للارساليات التبشـيرية فـى أدنـبرة ١٩١٠ (٨) . حيـث ظهـر توجـه قـوى نحـو التنسـيق الدولى، وقد تبلور ذلك فى ثلاثة اتجاهات ، الاول حول التبشير ، والثانى حول الحياة والعمل ، والثالث حول الايمان والعقيدة . وبعد ذلك التاريخ ، اتجه كل تيار للعمل المنفرد ، وتشـكل فـى ١٩٤٨ مجلس الكنائس العالمى من التيار الثانى والثالث ، ثـم انضـم التيـار الاول للمجلـس فـى ١٩٦١ . ومنذ السبعينات شـكلت التيـارات الاصوليـة التبشـيرية مجالسـها واجهزتهـا العالميـة ، واصبحت تعادى المجلس ، بعد أن اصبح ممثلا لليبرالية المسيحية .

واذا كانت الخمسينات قد شهدت ، اهتماما امريكيا بالمجلس ، تمثل فى دعمه ماديا ، فإن الصورة تغيرت منذ السبعينات . ففى المرحلة الاولى ، اعتبر المجلس بمثابة حائط صد أمام الشيوعية ، ولذلك نال دعما ماديا أمريكيا ، تواكب مع المكارثية والحملة ضد الشيوعية .

لكن الستينات شهدت تغيرا جذريا فى مجلس الكنائس العالمى ، حتى باتت مقررات الجمعية العامة فى ١٩٤٨ وكأنها جزء من التاريخ ، لاالحاضر .ففى تلك الفترة انضمت كنائس عديدة للمجلس ، كان من أهمها الكنائس الارثوذكسية وكنائس دول العالم الثالث . وفى نفس هذه الحقبة ، شهدت الكنائس البروتستانتية تحولا هاما ، وهى المؤسسة للمجلس . ففى الستينات تحولت الكنائس البروتستانتية الاساسية ، اللوثرية والمشيخية (جون كلفن) والتطهرية (جون وسيلى) نحو الليبرالية ، بل ونحو العلمانية (٩) وظهرت أكبر حركة فى التاريخ البروتستانتى للتلاحم بين الدولة والكنيسة ، وعلى أسس الدولة نفسها ، اى الاسس العلمانية . والعلمانية لاتعنى فصل الدولة عن الكنيسة ، بقدر ما تعنى إقامة الحياة على اسس دنيوية ، من المثل العليا ، والتطبيقات العلمية .

والكنيسة المشيخية الامريكية ، ذات التاريخ الطويل فى التبشير ، ومؤسسة الكنيسة الانجيلية المصرية ، تحولت فى هذه الفترة الى الليبرالية العلمانية . وهى الكنيسة التى كان لها الاسهام المتميز فى صياغة وقيام مجلس الكنائس العالمى . وعلى الجانب الاخر ، فقد التحمت الكنيسة اللوثرية الالمانية بالدولة ، وأصبحت جزء لايتجزء من المشروع العلمانى .

ان تلك التغيرات ، لم تكن بلا اثر على المجلس . بل كانت السبب فى تحوله الجذرى عن واقعه فى الخمسينات . فتحول الكنائس البروتستانتية الامريكية الاساسية الى الليبرالية ، تتبعه بعد ذلك ، خاصة فى السبعينات ، تحول جماهير هذه الكنائس الى الطوائف الاشد محافظة وتطرفا . وأصبحت الكنائس الرئيسية فى أمريكا ، هى كنائس الاقلية ، وتبع ذلك تعرضها لنقص حاد فى قدراتها المالية ، وهى كانت قبل ذلك المموِّل الرئيسى للمجلس .

والتحول الليبرالى فى الكنائس الامريكية المؤسسة للمجلس ، ثم تحول المجلس نفسه نحو الليبرالية ، جعله أقرب الى الكنائس الاوربية العلمانية ، وتحول تمويله بالتالى من الثقل الامريكى، الى الثقل الاوربى ، خاصة الالمانى (١٠) . والكنائس الالمانية ، لها اموال مخصصة من الدولة نفسها ، ومن الضرائب ،لان الدولة لاتنفصل عن الكنيسة فى الدستور الالمانى . ولكنها منفصلة عن الكنيسة فى الدستور الامريكى ، ولذلك فإن اموال الكنيسة الامريكية ، تأتى من جماهيرها.

ورغم ان أمريكا تشهد مستوى مرتفع للتدين المسيحى ، والمانيا تشهد انخفاضا ملحوظا وحادا فى عدد المترددين على الكنيسة (٤٠ ٪ فى أمريكا ، وحوالى ٥٪ فى المانيا) .

من هنا نستطيع تصور انتقال الثقل من امريكا الى المانيا ، وتوجه المجلس للتعبير عن الليبرالية العلمانية ، وبأموال اوربية ، المانية اصلا ، ثم من دول شمال اوربا ثانية . ومعظمها يأتى من دول ترتبط الكنيسة والدولة معا في الدستور . بهذا يصبح المصدر الحقيقى للمال ، المانيا ، ويصبح ايضا ناتجا عن التحالف الكنسى مع العلمانية .

ولكن الامر لايقف عند حدود الكنيسة. ففى امريكا تحولت الكنائس الى الليبرالية العلمانية، وتحولت ايضا الى معارضة النظام الامريكى المتطرف فى راسماليته ، والذى يلقى التأييد من الاصولية المسيحية ، خاصة منذ السبعينات ، أما فى المانيا ، فالدولة متحالفة مع الكنيسة الليبرالية العلمانية ، وكلاهما يتجه نحو الراسمالية الرشيدة ، أى النموذج الرأسمالى الليبرالى ، والمدعم بالاشتراكية الديمقراطية ، وذلك فى مواجهة السياسة الرأسمالية المحافظة المتطرفة ، والتى تكشف عن نفسها في السياسات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك فى السياسات الخارجية ، وتميل الىخفض الضرائب على الاثرياء ،وتقليل الدعم عن الفقراء،و اطلاق قوى السوق (داخليا) ، والى فرض الهيمنة ، والتدخل العسكرى ، وتغيير نظم الحكم (خارجيا) .

اذن فان التحول من المسيحية المحافظة ، الى الليبرالية ، تبعه ايضا تحول فى المنظور السياسى، من المحافظة الى الليبرالية ، وتحول مصدر الدعم من دولة محافظة غربية (امريكا) الى دولة ليبرالية غربية (المانية) . تواكب ذلك كله ، مع دخول الكنيسة الارثوذكسية وكنائس العالم الثالث الى مجلس الكنائس العالمى . وبذلك شهدت الستينات معظم التحولات الكبرى ، وشهدت الجمعية العامة الرابعة فى ١٩٦٨ ، بداية ظهور التوجهات الجديدة للمجلس . ولكن تلك التوجهات ، بدأت تأخذ طريقها تدريجيا الى حيز التنفيذ ، واستغرق ذلك مرحلة كبيرة من الجمعية الخامسة فى ١٩٧٥ حتى الجمعية السادسة فى ١٩٨٣ (١١) . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المجلس ممثلا للنموذج الغربى الرشيد ، أى الليبرالية السياسية ، والاشتراكية الديمقراطية .

وتلك التحولات ، أثرت على الموقف السياسى لمجلس الكنائس العالمى ، الذى أصبح يمثل المعارضة الغربية (١٢) . ولذلك فإنه ، خاصة فى الثمانينات ، هاجم سياسة أمريكا بعنف ملحوظ ، وتساهل الى حد ما مع سياسات الاتحاد السوفيتى ، ولذلك اتهم من قبل الاصولية الامريكية ، بالعمالة لجهاز المخابرات الروسى (K . G . B .) (١٣) . وأصبح المجلس تدريجيا

أميل للسياسات الاوربية (الالمانية - الفرنسية) ، وجاء طرحه معبرا عن الحلم الغربى الاوربى، أو المدينة الفاضلة الغربية ، لذلك سنجد أن موقف المجلس تماثل فى الواقع اليسار الاوربى ، وحركة الخضر ، واطروحات الاشتراكية الديمقراطية ، ويدور طرح المجلس حول ، العلم والتقدم، والاستخدام الرشيد للبيئة ، وحقوق الاقليات ، والطفل ، والمرأة ، والتنمية (١٤) ، كذلك فإن المجلس رفع شعار الحوار (١٥) ، مع الاديان والايديولوجيات والاديان الوثنية ، ذلك الشعار الذى أصبح الان من ملامح العصر . كذلك فإن المجلس نادى بالحفاظ على الحضارات المحلية ، وأكد دور الكنائس المحلية .

وفى المجال السياسى (١٦) ، فإن للمجلس دور كبير فى تأييد حركة النضال الافريقى بجنوب افريقيا ضد العنصرية ، كم أيد لاهوت التحرير والحركات الماركسية فى أمريكا اللاتينية، ومنها حركات الساندنستا فى نيكاراجوا . وهاجم المجلس دور امريكا فى امريكا اللاتينية ، ودورها مع ثوار الكونترا ، ودورها فى أفغانستان، وفى حرب الخليج (١٧) ... الخ .

أما فى موقفه من اسرائيل ، فقد نادى المجلس بالسلام والتفاوض ، وحق دولة اسرائيل فى الوجود ، وحق تقرير المصير ، والانسحاب فى الارض المحتلة (١٨) . وفى ذلك قدم المجلس رؤية تقترب كثيرا جدا مما يحدث الان ، بعد اتفاقية السلام المصرى - الاسرائيلى ، واتفاق غزة اريحا اولا . كما ان المجلس ادان غزو لبنان فى ١٩٨٢ (١٩) وطالب بإنسحاب اسرائيل.

بهذا طرح المجلس ، رؤية لتيار غربى رشيد ، هو أوربى أكثر منه أمريكى ، وهو المانى فى توجهاته . وايضا طرح المجلس ، وكان سباقا ، الصورة التى تتشكل الان فى العالم الغربى ، والتى يتشكل الغرب من خلالها ، ليبدأ مرحلة جديدة ، هى مرحلة ما بعد الصناعة ، أو مابعد التحديث .

والاهم من ذلك أن رؤية المجلس حول العالم ، والكونية ، والحوار فى عالم متعدد ، والشرعية الدولية ، وحماية الاقليات ، ومحاربة العنصرية ، كذلك محاربة اتهام الصهيونية بالعنصرية ، ودوره المؤثر فى أروقة الامم المتحدة ، كل هذا شكل فى النهاية ، صورة جيدة عن الكونية الجديدة ، والنموذج الانسانى العالمى . مما يدفعنا لتصور وجود دور للمجلس كمختبر أولى للافكار والتصورات التى ستشكل الغرب فى المستقبل ، وذلك من خلال نشاطه الثقافى والفكرى المكثف .

وقد شهد المجلس جدلا فعالا حول مشكلة الشمال والجنوب ، وحول قضية التغريب ، وحق الحضارات الاخرى . ولكن كل تلك القضايا دارت حول رفض النموذج الامريكى ، دون أن تكون اعادة صياغة للنموذج الغربى نفسه . والمشكلة هنا ، أن مجلس الكنائس العالمى ، ليس مجرد تجمع للمتعددين ، بقدر ماهو جهاز من الخبراء ، له توجهاته المحددة ، تلك التوجهات التى عارضها الاعضاء أنفسهم فاتهم بانه متحيز للغرب من دول الجنوب ، وانه علمانى يبتعد عن المسيحية من الكنائس الارثوذكسية . وظل الكيان الارثوذكسى خاصة ، يعارض الكثير من مقررات المجلس ، رغم استمراره فى عضويته ، فالمجلس يمثل الكيان الدولى الاكبر الذى تتحرك من خلاله الكنائس الارثوذكسية . اما الكنيسة الكاثوليكية فلم تنضم للمجلس ، لانها رأت انها فى حد ذاتها كيان دولى اكبر حجماً من المجلس ، ولا يجوز لها ان تكون مجرد عضو .

فماذا عن دور المجلس ؟ لقد جاء تعاطف المجلس مع الجنوب من خلال ليبراليته ويساريته ، ومن ثم عداءه لامريكا ، أو النموذج الرأسمالى المتطرف . ولذلك فإن المجلس يعادى كل اشكال القهر والاستعمار والهيمنة المباشرة . ولكنه يقدم نموذج الليبرالية السلمية ، وجملة المفاهيم حول حقوق الاقليات والمرأة والطفل ، وعن التنمية والتقدم الرشيد ، وهذا النموذج هو الاطار الاشمل لعمل المجلس ، وهو المنظومة القيمية التى ينشرها المجلس عبر الكنائس المحلية الاعضاء ، وعبر المجال السياسى الدولى .

وفى مواجهة هجوم المجلس ، على النموذج الغربى المتطرف ، تميز بإصراره على النموذج الليبرالى السلمى ، كمشروع مسكونى (كونى) للكنيسة ، وللعالم ايضا ، طارحا بذلك نموذج عالمى للبشرية . وذلك النموذج ، كان اساس الحوار بين الطوائف المسيحية ، وبين المسيحية والاسلام ، وبينها وبين الماركسية ، وكذلك مع الاديان الوثنية . ان المسكونية ، هى مفتاح هام فى حياة المجلس ، فهى تعنى الاطار القيمى العالمى للكنيسة ، وهو يماثل المطروح حاليا عن الاطار العالمى للبشرية . وهو فى النهاية مشروع غربى ، لم يتحقق بعد ، بهذه المثالية ، حتى فى الغرب نفسه .

وتأخذ قضية تفكيك المجتمع أهمية قصوى فى المنظومة الغربية ، وفى منظومة المجلس. فالحديث عن الشباب والطفل والمرأة والاقليات العرقية ، كفئات منفصلة ، وكمجموعات من الافراد لايربط بينهم الاالخصائص السيكولوجية / البيولوجية ، ذلك التقسيم ، يعد فى حد ذاته، هدما لاى تكوين إجتماعى / جماعى ، وتحويله إلى تكوين اقتصادى / فردى . وهو عنصر

هام فى المنظومة الغربية ، وكذلك فى عمل المجلس ، الذى نستطيع ان نقول انه يعمل على تحرير المرأة والطفل والشباب والاقلية العرقية ، ولكن السؤال تحريرهم من مـاذا ؟ والاجابة واضحة ، تحريرهم من النماذج الحضارية الاجتماعية ، التى اهدرت حقوقهم . وفى ذلك ، تفكيك لهذه النماذج ، المعبرة فى الواقع ، عن نماذج حضارية مختلفة عن النموذج الحضارى الغربى .

لهذا اصبحت قضية الاقليات / الحقوق ، من اشد المداخل فى تأثيرها ، لانها تفيد تشكيل المجتمعات على اسس اجتماعية جديدة ، وتفتح الباب لتكوين جماعات أو مجموعات تنتمى للمنظومة الغربية ، وتصبح هذه المجموعات هى الوكيل الغربى المحلى ، الذى يعمل على نشر المنظومة الغربية ، وتفكيك المجتمع . فمثلا سنجد ان تحويل الاسرة ، ككيان محورى فى منظومات حضارية معينة ، الى رجل ومرأة وطفل وشاب ، وكل منهم ينتمى الى مجموعة يرتبط بها برباط نفسى / جسمانى ، هو تفكيك للرباط الاجتماعى ، واحلال اسس جديدة للحياة ، هى اسس نفسية جسمانية ، وهذه الاسس ذات الطبيعة المادية ، هى الاساس الفلسفى الحقيقى لتحويل الانسان من كائن اجتماعى ، الى كائن اقتصادى ، فما يبدأ بالبيولوجيا ينتهى بالاقتصاد، مرورا بالسيكولوجيا . لذلك يظل علم النفس ، وعلم الاقتصاد ، هما الاساس الحقيقى ، لالية خلق الانسان العالمى ، الاقتصادى المعلوماتى ، على اسس غربية ، أو هما اساس عملية اعادة " تربية العالم "، أو عملية التطهير الحضارى للعالم .

ولعل موقف المجلس من اسرائيل ، يمثل نموذجا اخر للمنظومة السلمية للمجلس . فهو لايعطى اعتبارا للحقوق الاصلية ، ويتجاوز فكرة العدل ، فيتوجه لتنظيم الحقوق بين المعتدى والمعتدى عليه فى صياغة سلمية ، دون اعتبار للحق الاصيل لاعادة الدولة الفلسطينية للوجود . ولكن ما فعله المجلس ، فى بياناته عبر تاريخ الصراع ، تفعله الان الانظمة العربية ، بعد انضمامها السعيد للمنظومة العالمية .

وعلى مستوى الحوار بين الاديان ، يؤيد المجلس الحرية الدينية ، ويقبل التعدد ، ويقبل الاديان السماوية ، ويعترف بنبى الاسلام (٢٠) . ولذلك فهو يواجه حرب شديدة من الاصولية المسيحية . وهو فى هذا ، يقدم رؤية علمانية للدين ، لاتقف عند البناء العقائدى ولكن تتجاوزه الى عالمية القيم المشتركة فى المنظومة الليبرالية السلمية . وليس الحوار مجرد نشاط للمجلس ، بل هو أهم أدواته ، خاصة عندما نتكلم عن الحوارات واوراق العمل ، وليس فقط عن الحوار بين المختلفين . ان صناعة قادة الفكر ، هى اهم منجزات المجلس ، الذى اصبح له وكلاء فكريين

على مستوى الكنائس المحلية ، عبر ارجاء العالم . فصناعة القائد ، هى أهم وظائف المحافل الدولية ، التى تقدم المعلومات والافكار ، مدعومة بما تقدمة من فرص للنجاح والتعلم ، والنشاط الدولى ، والدعم المعنوى والمادى ، وتصبح بذلك معملا للافكار ، التى يصدرها الى القادة ، وهم يقومون بتسويقها فى بلادهم ، وكنائسهم المحلية .

وهنا تظهر اهمية التمويل المادى ، من المجلس ، والكنيسة والدولة الالمانية ، وبعض الدول الاوربية . فهذه الاموال ، هى الدعم الرئيسى ، للنموذج الليبرالى السلمى ، ولعلمنة العالم ، ولاعادة تنميط العالم من خلال التنمية . وهى اموال تأخذ طريقها لدول عديدة ومنها مصر ، وتجد طريقها الى الكنائس المصرية ، والمؤسسات المسيحية المصرية . والاهم انها تجد طريقها الى الكنيسة الارثوذكسية ، المعادى الاول للغرب المسيحى حسب الخطاب المعلن . حيث يقوم المجلس بتنظيم تمويل سنوى ، من مصادر المانية واوربية ، لدعم جهود الكنيسة فى التنمية بمبلغ يصل الى ٢ مليون دولار سنويا ، دعما لجهود اسقفية الخدمات (٢١) . وقيمة المبلغ ليست هى مربط الفرس ، فهناك غيره الكثير ، للكنيسة الارثوذكسية وغيرها من الكنائس والمؤسسات . ولكن الاهم ، ان تلك الاموال تحمل معها الافكار ، وشروطها لاتزيد عن تطبيق الفكرة ، وهى التنمية بالضرورة ، والتحديث فى النهاية ، ونشر نموذج القيم الغربية كغاية اخيرة .

واذا كانت التنمية تعنى تطوير المجتمع للافضل ، فيجب أن تكون شعارنا جميعا . ومثلها مثل الديمقراطية ، وحقوق الانسان ، وكلها مفاهيم تحمل قيما سامية . لكنها ليست مفاهيم مطلقة او مجردة ، بل متميزة حضاريا ، وتحمل القيم فى معيار محدد ، وبأساليب خاصة . فالتنمية – مثلا – تعنى الرفاهية ، ونمط الحياة الغربى ، والاستهلاك ، واستخدام الاشياء والمادة للسعادة . ولاتعنى – مثلا – التضامن الاجتماعى ، والتماسك ، والانتاجية ، ومهارة العمل وتنظيم المجتمع ، و المصلحة الجماعية ، والسعادة كمعنى دون أن تكون فى النهاية إستخدام لمادة ...... وهكذا.

التنمية بهذا المعنى ، ليست كلمة عربية مشتقة من النمو ، وتعنى اسراع النمو الموجه والمقصود ، ولكنها معنى متميز ،ليس فيه الا التنمية الاقتصادية ، والنمو المادى ، وتحقيق نموذج الآلة / الرفاهية ، دون نموذج الجماعة / الرضاء على سبيل المثال .

ويبقى السؤال . هل المجلس يمثل المسيحية ، وهل هو مشروع مسيحى مسكونى اممى ؟ الواقع انه مشروع عالمى ، اممى مسكونى ، وهو علمانى قبل أن يكون مسيحى ، وهو غربى

حصرا ، ومتحيز اصلا . وهو نتاج للتحالف الغربى ، العلمـانى المسيحى . وهـو فـى النهايـة ، سيبقى اداة سلمية ، فى عملية تطهيرنا حضاريا .

المشهد الثامن

الأمة .... محاولة للإيمان

نعم ، هي محاولة للإيمان بالامة ، وحضارتها ، وتاريخها ، محاولة تنبع من إحساس قوى بأننا ننهار ، وان الامة ستصير ذكرى ، والحضارة ستتحول الى المتحف ، ولن يبقى لنا الكثير ، حتى بكاء الاطلال . انه اقتناع اكيد بأن الطريق الذى نسلكه ليس هو الافضل ، وان النموذج الغربى ، ليس نموذجا للبشرية جمعاء ، بل هو نموذج الغرب وللغرب.. وهو ايضا اقتناع بان الايديولوجية لم تنتهى ، وان التاريخ لم ينتهى ، وان مايحدث الان ليس الا غطرسة قوة ، لحضارة بلغت اوج مجدها ، وان المستقبل هو عالم جديد ، ومرحلة جديدة من حياة البشرية ، ويبقى علينا لأن نجد مكانا فى المستقبل ، بل ان نصنع لانفسنا مكانا .

نعم ، هى محاولة للايمان بالامة ، ورد على اشكالية الاصالة والمعاصرة ، التى اخذت منا الكثير ، الماضى والحاضر ، ولم يبقى لنا الا ان نتجاوزها .فليس بين الاصالة والمعاصرة تزاوج ، وليس بين الحضارة العربية وتلك الغربية تزاوج . ولكن العصر يعنى بالنسبة لنا ، انهاض الحضارة ، حتى تعود لها سيادتها وفاعليتها ، فى عصر جديد لها . انها بإختصار دعوة لمعاصرة الاصالة ، دعوة لاعادة ما انقطع من تاريخنا الحضارى ، وابداع حضارتنا فى ثوب جديد لايلاءم " العصر " ، بل يلاءمنا ويتجاوز العصر ، ويصنع مستقبلنا .

إن حضارتنا فى النهاية ، هى قيمنا ومبادئنا ، وهى تفضيلاتنا واختيارتنا ، وهى بذلك المعيار الذى نقيس عليه الاشياء . فنحدد اختيارنا ، ونحكم تعلمنا من الاخرين ، ونعيد صياغة كل ما أنتجتة البشرية ، ليحقق وظيفة جديدة ، حسب معيارنا ، وهدفنا ، واحتياجنا .

وليس فى ذلك جديد . فكل الحضارات فعلت ذلك ، والحضارة الغربية تعلمت من الحضارة العربية السابقة عليها ، ولكن حسب معيارها ، فأخذت منها واعادة صياغة وتشكيل ما أخذت . وخرج المنتج النهائى ، يختلف عما سبقه ، خرج عصر جديد فى حضارة البشر .

فهل نستطيع أن نكون بداية عصر جديد ، بعد انجازنا الفرعونى ، وانجازنا العربى الاسلامى ؟ أم ان التاريخ قد أغلق ابوابه على البشرية . واصبحت الحضارة الغربية ، خاتمة الحضارات ؟!!

علينا أن نتعلم من الحضارة الغربية ، وعلينا أن نعيد احياء قيمنا ، ثم نبدع حضارتنا من جديد ، وفى ثوب جديد ، ذلك هو الهدف . وهو كذلك ، لاننا نرى انه الطريق الوحيد ، وان وجودنا رهن بنهضة الامة ، واحياء الحضارة العربية ، وانه لن يتحقق لنا مستقبل من خلال التبعية للنموذج الغربى . فالتقليد ليس هو الطريق ، وتخلفنا وتأخرنا ليس مبرر الاستسلام للواقع، بل الدافع الذى يدفعنا نحو المستقبل .

اننا نحتاج للنهضة ، اى لقيمنا ترسم لنا تصورا جديدا عن الحياة ، يدفعنا للمستقبل . والنهضة هى عقل الامة ، وقيادة الامة ، وجماهير الامة . تتحرك معا من أجل تحقيق تصورها عن الحياة ، واعادة افراز قيمها فى اشكال جديدة ، وتقديم نموذجها فى الحياة ، انجازا للبشرية ، تتعلم منه ، وتستفيد منه ، دون ان يفرض عليها .

ولن يكون لنا ذلك ، الا بعقل ينهض ، وقيادة تحرك الجماهير ، ونظام سياسى ، يتبنى الحلم / المستقبل ، ويعبئ الجماهير نحو العمل . فهل لنا ذلك ؟ لن يكون لنا ذلك ، إلا إذا تحررنا من النموذج المفروض علينا ، وخرجنا من أسر منظومة القيم الغربية ،واستعدنا منظومة القيم العربية . لن يتحقق ذلك ، الا بارادة وطنية ، تحمل الامة معها ، نحو المستقبل ، وتنظر الى الخروج من الازمة ، وتغيير احوالنا كهدف ، دون ان تظل قوى المجتمع اسيرة تحقيق انجازات ومصالح وقتية ، واسيرة ازمتها نفسها ، لاتعمل الا من اجل البحث عن الحلول الجاهزة ، فلا تجد الا النموذج الغربى ، جاهزا ، ومفروضا علينا ، ومدفوع ثمن تطبيقه .

فهل القضية هى رفض الغرب ، وكل ماهو غربى ؟! لا ، ان القضية ببساطة هى رفض الحياة على نمط قيم لاتخرج منا ، ولا تعبر عنا ، ولاتحقق لنا الحياة والسعادة والرخاء . ان مصر قبلت العروبة والاسلام ، لانها جاءت بقيم تماثل قيمها ، ولولا ذلك لظلت مصر غير عربية ، ولما أسلمت كلها . فكلما كان الوافد علينا من قيمنا ، فهو منا ، وكلما كان بقيم ليست منا ، فهو ليس منا . ان القيم هى مفتاح الحياة ، معيار الخير والشر ، معيار السعادة والحزن ، معيار الافضل والاسوء ، الابيض والاسود ، ولايمكن لنا أن نعيش بعقل غير عقلنا ، وبقلب غير قلبنا . لايمكن لنا أن نسعد فى النهاية ، بنموذج الالة / الرفاهية ، ولا اتصور اننا سعدنا به .ألا نصحو كل يوم على بكاء الاطلال ، اطلال الاسرة والحياة الاجتماعية ، والاحترام بين الناس ، واطلال

الشهامة والرجولة ، والتضامن والتماسك !! وألا يعصرنا الالم من نماذج العنف والجريمة ، وتجاوز كل حدود القيم ، من الابن الذى يقتل اباه ، والشاب الذى يقتل من اجل الادمان ، والطفيلية وتسلق جثث البشر من أجل المال ، وانهيار الاخلاق والقيم !!

اننا نبكى الاطلال ، أطلال قيمنا وحياتنا ، اطلال حضارتنا ، ولكننا نجرى وراء النموذج الغربى ، وتريد من تغريبنا ، وتريد حضارتنا موتا ، ثم نعود للبكاء على كل ما ضاع . أليس فى ذلك تناقض أساسى ، بين تصورنا عن المستقبل على النمط الحديث ، وتصورنا للحياة على نمط قيمنا ! اننا لن نستطيع تحقيق النموذج الغربى ، وتحقيق قيمنا معا ، وعلينا ان نضحى ، فبأى شئ نضحى ؟!

والسؤال الاهم ، هل لم يعد لنا أمل فى الحياة ؟ ولم تعد لدينا القدرة على ان نحلم ، ونبدع، ونتخيل مستقبل جديد ، ثم ننهض ونحقق حضارتنا وحلمنا ومستقبلنا وبعرقنا وايدينا ؟ لااتصور اننا بعد من الاموات ، وان كنا نغالب الموت ، ولااتصور ان الكلمات ليست الا النزق الاخير ، بل هى النبض الذى فينا ، حتى وان خفت ضرباته .

هى اذن محاولة للايمان ، بالامة وحضارتها ، وهى دعوة لتيار الاستقلال الوطنى ، كى يأخذ دوره من جديد ، ليس فقط من أجل الاستقلال السياسى ، ولكن من اجل الاستقلال الحضارى الشامل . وهى ليست دعوة للاستقلال الممزوج بالجمود والتراجع والتخلف ، فاستقلال الجمود ، والعودة الحالمة للماضى ، ليست الا مرحلة للدفاع عن النفس ، أو هى مرحلة اولية لليقظة ، ان لم تتحول الى استقلال ايجابى مبدع ، يتجاوز أسوار الجمود والماضى ، سوف تصبح ضعف جديد داخلنا ، يسلمنا فى النهاية للآلة التى تعيد تنميطنا وتأديبنا وتربيتنا .

بل اننى اتصور ، ان النزعة للجمود ، والعودة للماضى ، أضرت القضية ، وافسدت الحلم . وجعلت الاستقلال رهينا للتخلف ، ويبدو معاديا للزمن . ولا اتصور من الجمود ، الا التمسك بالقيم التى نحيا بها ، ولا أتصور فى العودة للماضى ، الا لاكتشاف ذاتنا ، وعناصر خبرتنا وحضارتنا ، ويبقى ان نحمل القيم والتراث معا ، فى صياغة جديدة تعبر عنا فى هذا الزمن ، وتستشرف مستقبلنا فى الزمن القادم ، وتعطينا قوة فى مواجهة مفردات العصر ، واشكالياته ، وازماتة .

ولكن تيار الاستقلال والجمود من جانب ، ورفضنا للعودة لأسوار الماضى والتأخر من جانب اخر ليس مبررا كى نلقى بأنفسنا فى احضان النموذج الغربى . وبمعنى أدق ، فإن صوت

طلقات الرصاص ، من المعارضة المسلحة ، يجب أن يوقظنا للنهوض ، ونضم الجيل الحائر الينا لنكافح من اجل المستقبل . ولكن ان يخيفنا صوت الرصاص ، فلا نجد ما نحتمى به الا الغرب ، فاننا بذلك نضحى بأنفسنا مرتين ، الاولى عندما تركنا احوالنا تتدهور ، حتى صار العنف لغة بيننا ،والثانية عندما نبيع المستقبل من أجل حماية الحاضر .

ان الخطر يأتى من داخلنا ، ومن خارجنا ، وهو فى جملته دليل على خروجنا العنيف من نظامنا وقيمنا ، حتى صرنا مجتمع مفكك وضعيف ، لايستطيع الاستمرار ، الا بالدعم والمنح والقروض ، ولا يستطيع التفكير الا باستيراد الافكار ، ولا يستطيع الانتاج الا باستيراد الالات.

وعلى عقل الامة دور كبير ، كى يتجاوز اشكالية الاصالة والمعاصرة ، التى اسهم فيها زكى نجيب محمود (١) باسهام بارز ، ومن اسهامة نلمح انه اراد الحفاظ على دور العقل والعلم، وأراد الحفاظ على ميراثنا الحضارى . ولسنا نرغب فى غير ذلك ولكن العقل والعلم ، ليس العصر والغرب تحديدا ، ولكن فى مجال العقل والعلم ، لنا أن نتعلم الكثير من الغرب ، ونصيغ بعد ذلك عقلنا وعلمنا . وليست حضارتنا على عداوة مع العقل والعلم ، وفى كل حضارة غيبيات وخرافات ، بل ان كل علم يبدأ من صيغ فلسفية ، من عقيدة ، يثبتها الايمان لاالعلم ، ثم يتحرك العلم فى داخلها ليؤكدها ويوظفها لخدمة الحياة .

وسنجد فى تراثنا الكثير ، لنقف عنده ، ولعل طه حسين وقفة هامة فى تاريخنا . فقد تصور، وتصورنا ، ان التقدم هو الغرب ، وهو الثقافة الغربية . ولكن طه حسين قدم لنا الآخر ، و لم يستطع تجاوزه ، واضاف لعقلنا علما ، و لم يستطع ان يبدع لنا علمنا . والرواد ، ادوا دورهم ، وفتحوا لنا كل النوافذ والمنافذ ، وبقى علينا ان نكمل المسيرة ، وان ننضج بالقدر الكافى الذى يساعدنا على ان ننهض . فلكل زمن ادواره ، ولننظر للحاضر حتى نعرف .

اننا اليوم لانتعلم من الغرب ، ولا نفهمه ، ولانحاول فهم تراثنا فى ضوء ما يقدمه ، ولا نناقش – حتى– مدى ملاءمته لنا ، بل فقط ننقل كل افكاره ونتنافس فيمن ينقل الفكرة أولا . فإذا كان الرواد لم يحملوا مشعل النهضة ، فقد هيئوا لنا الطريق لذلك . ولكل منهم اسهامه ، والبعض تمادى فى التأثر بالغرب ، والبعض ظل مهموما بالتراث منشغلا بانجاز الغرب . ومن هنا يأتى دورنا .

ونضيف لذلك تجربة القومية العربية ، والناصرية ، التى تركت لنا تراثا فى الصمود ، وخبرة طويلة فى الكفاح . ولكن المشكلة كائنة فى انحصار العمل من اجل الاستقلال السياسى ، دون

العمل من أجل الأستقلال الحضارى . لقد كان للزمن دوره , فقد ساد بيننا أن التحديث عملية تتواكب مع تراثنا ، ولا تلقى بنا فى أسوار التبعية . وإتضح أن التحديث طريقنا للتطهير الحضارى ، والتبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وتجارب الماضى ، هى مخزون الخبرة ، الذى يجب ان يحركنا فى المستقبل .

وحديث الامة ، يقربنا من منطقة الاشواك ، التى هى التيار الاسلامى . ولا اتصور التيار الاسلامى ، الا فصيلاً من فصائل الوطنية فى مصر والعالم العربى ، كما فى غيرها . وهو قصة نضال ، ميزها التمسك الشديد بالثراث ، واضعفها الى حد خطير الجمود والتمسك بالماضى واللجوء للعنف . ومصير التيار الاسلامى ، تحدده أزماتة الداخلية ، أكثر من الخارجية .فلقد أصبح الاسلام عنوانا لحركات الاستقلال ، واصبح له الشارع السياسى على اتساع عالمنا العربى . ولكن بعض فصائل التيار الاسلامى ، قدمت نموذجا للحياة ، جامدا ومتراجعا ومتأخرا، لايستوعب الحاضر ، ولا يماثل الماضى . فجاء جمودها دفاعا سلبيا عن التراث دون أن تقدم الجديد . ثم جاء العنف كى يلطخ الثوب الاسلامى بدماء تدينه ، وتسأله عن السبب ، وعن النتيجة ، فقد جاءت دماء مهدرة ، وليست دماء فى ساحة النضال من أجل نهضة الامة .

ولكن فصائل الحركة الوطنية ايضا ، جعلت من التيار الاسلامى مشكلتها ، ومن الجمود والعنف قضيتها ، ونسيت الفرق بين المعارك الداخلية وتلك الخارجية ، وان الهروب من الجمود والعنف ، ليس بالإرتماء فى أحضان النموذج الغربى ، الذى يؤدى فى تصورنا إلى التمادى فى الجمود والعنف معا . وبذلك نجهض - بانفسنا - احتمالات النهضة . ونترك الساحة الخارجية، للمعارك الداخلية ، ونحارب انفسنا ، بدلا من الكفاح من اجل الخروج من أسر الآخرين . ان النموذج الغربى يشقنا الى صفوف تتناحر ، حتى تقضى على بعضها ، وتفتح المجال امام سيادة الغرب ، دولا ونموذجاً للحياة . علينا ان نبحث عن ما يجمعنا ، ويخرجنا من الاستسلام المهزوم، كذلك من استقلال الجمود والعنف .

النموذج ....

إنها محاولة للايمان ، بإن النموذج العربى هو طريقنا للمستقبل ، وان النموذج الغربى ليس الا طريقنا الى الهزيمة . وهى رفض لنموذج الانسان الاقتصادى ، ورغبة فى احياء نموذج

الجماعة الاجتماعية . والرفض ليس تعبيرا غوغائيا ، او صوتا عاليا ، لكنه نتاج واقع ، أصبح فيه النموذج الغربى ، هو مصدر الحياة والتشريع والسياسات والنظم ، وكل حركة المجتمع .

واذا كنا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، قد عشنا وفود العناصر الغربية كعوامل مساعدة لنهضة الامة ، وتطوير تراثها ، فاننا ومع نهاية القرن العشرين ، نشهد تغريبا كاملا ، تحولت فيه عناصر التراث الى عوامل مساعدة تمصر وتعرب النموذج الغربى ، حتى يسهل قبوله وانتشاره .

وذلك النموذج ، والصراع حوله ، ليس اشكالية ثقافية أو علمية ، وليس موضوعا للنخب، أو الحكام ، فنحن بصدد نموذج حياة ، عن الحياة نفسها ، عن سلوك ملايين المصريين ، وعن احوالهم وظروفهم . وهو فى النهاية حديث عن مستقبل ملايين العرب ، وعن مصير أمة العرب.

وعندما نتكلم عن نموذج الحياة ، فنحن نتكلم عن الرؤية ، وعن المضمون الحضارى والثقافى ، وعن اختياراتنا تجاه المستقبل . وهنا علينا ان ندرك ان التميز بين النموذج العربى ، وذلك الغربى ، ليس تميزا بين تيار وطنى وأخر عميل . والكتاب ليس عن العمالة ، بل عن الوكالة ، وهو عن انتاج الافكار او استيرادها . وفى كل الحالات نحن امام تيارات وطنية ، يحدد اختيارها ظروفها واحوالها وتصوراتها . فقد تكلمنا عن من يبشر بالنموذج الغربى ، بإعتباره الحل ، أى لانه يؤمن ان مستقبلنا رهن بالنموذج الغربى ، وهو لذلك – فرد أو جماعة أو مؤسسة – يعبر عن تيار وطنى ، نتصور انه اخطأ الاختيار . اما العمالة ، فلم تكن موضوعا، أما العملاء ، فهم فى النهاية قلة ، يفرزهم التاريخ ، ويطرحهم خارجه ، لذلك لم يكن حديثا عنهم ، أو معهم .

واذا كانت الكلمات ، حول التيار الذى يختار النموذج الغربى ، وذلك الذى يختار النموذج العربى ، فقد كان محك ومعيار الجدل ، هو فى عدة اوضاع راهنة ، منها تزايد تبعية قرارنا السياسى للشروط الغربية ، وتفشى أمراض المجتمع الغربى بيننا ، بدرجه أقل مما يحدث فى الغرب ، ولكننا لانحتملها . كذلك فقد كان معيارنا ، فى ان لكل شعب حضارته ، ولايمكنا ان نقتبس الحضارات ، ثم نحاكيها ، فننجح ونحقق الافضل لنا . تلك وغيرها كانت معيار لاختيار النموذج العربى ، ورفض الغربى .

واصبح من الضرورى لنا ان نحرر المسألة العلمية ، حتى نستطيع أن نحكم على النماذج وعلى القضية المستقبلية برمتها . فالمعيار العلمى متحيز للبيئة التى أفرز فيها . فهو " معيار " وهو

بالتالى أداة قياس منسوبة الى " قيمة " ، والقيم هى التعبير الامثل عـن جوهـر الحضـارة . والمعيـار العلمى ، هو الاسس المحددة للتفكير العلمى ، التى تحدد اختيار الظاهرة ، واختيار الجانب المعنى بالدراسة ، والادوات والمفاهيم ، وغيرها . وهو فى النهاية المحدد لوظيفة العلـم ، الـذى يتحـرك بوصفه مؤسسة اجتماعية لتحقيق وظيفة اجتماعية هامة ، وهى تقنين وسـائل المعرفـة " داخـل " المجتمع ، من اجل تحديد أفضل وسائل لتحقيق قيمه .

لهذا فإن الموضوعية فى العلم ، هى تقنين الطرائق والوسائل التـى تكفـل الوصـول الى نفـس النتائج عند استخدام نفس المعايير . والمعايير هنا تحدد نظرية العلم ومسلماته، وتنتـج مـن خـلال حضارته ، بل وتتغير كلما تغيرت حضارة المجتمع من مرحلة الى أخـرى . فالموضوعيـة اذن هـى اسلوب لتجاوز الفروق الفردية الذاتية داخل سياق الحضارة الواحـدة، وليسـت تجـاوزاً للفـروق الحضارية . لانـه لايمكـن توليـد نظريـة علميـة كونيـة ، خـارج سـياق الحضـارة . وذلـك لاننـا لانستطيع أن " نبدع" علما بدون مؤسسة وعلماء ، لهم علاقة بالحضارة والمجتمع والدولة .

لذلك نتصور ان العمل العلمى علـى المسـتوى العـالمى ، لـن يكـون الا نموذجـا يقـوم علـى التفاعل بين النماذج الحضارية المتعددة ، أى انه تفاعل بين اكثر من " علم " وأكثر من" معيـار " علمى . والمقارنة بين النتائج من خلال دمجها مع العلم المعيارى الذى انتجها ، هى مقارنـة بـين الحضارات فى النهايـة ، ومقارنـة بـين الافـراد والجماعـات ، مـن حيـث هـم معـبرون وممثلـون للحضارات .

ولهذا ، نتصور الكونية الانسانية ، والمستقبل العالمى ، فى شـكل جديـد ، ليس فـى شـكل تدويل النموذج الغربى ، أو أممية الانسان الاقتصادى بإعتبارها المشروع الغربى الراهـن ، ولكـن فى نموذج التعدد الحضارى ، شرطا اساسيا للتعايش لابين أقوياء وضعفـاء داخـل نمـوذج موحـد قياسى ، ولكن بين نماذج متعددة ، لكل منها قيمـا خاصـة ، ويظـل التنـافس رهنـا بقـدرة كـل حضارة على الانجاز .

واذا كان التعدد الحضارى ، ينذر بالصراع الحضارى ، فذلك بسبب وجود نمـاذج شـديدة القوة ، وتفرض سيطرتها على النمـاذج الاخـرى ، والصـراع الحضـارى سـوف يكـون النتيجـة الطبيعية لفرض النموذج الغربى على البشرية ، لان البشرية لم تمت ولم تصل الى نهاية التـاريخ . لذلك فإن آليات المستقبل ، ومع ظهـور نمـاذج حضاريـة جديـدة ، يمكـن أن تدفـع الى الحـرب الباردة بين الحضارات ، وان كانت الرشادة تدفع الى نمـوذج تعـدد الحضـارات ، والتعـاون بـين

الحضارات ، فإذا قبل المجتمع الدولى بشروط التميز الذاتى ، والتفاعل التبادلى بين النماذج ، فـى ذلك الحين سوف يهيئ المناخ لنظام التعـدد الحضـارى ، بـدلا مـن الصـراع الحضـارى وتصبـح الشرعية الدولية ، قواعد ضبط حركة النماذج ، فى اطار التفاعل التبادلى ، والاختيار الحضـارى الحر ، ومنعا لحركة التنميط العالمى ، أو حركة التطهير الحضارى .

والقضية ليست قضية عربية ، بل هـى قضيـة العـالم غـير الغربـى كلـه . ولنـا فـى النمـوذج الاسيوى مثال ، فالنمور الاسيوية ، مثل اليابان ، حققت النموذج الغربى ، ولكـن فـى تقنيـات النمو الاقتصادى فقط ، دون نمط الحياة نفسه . فهى تجربة تمـاثل تجربـة محمـد علـى فـى حياتنـا المصرية ، أكثر من تجاربنا الاخرى . أى انها توقفت عند مستوى التطوير الفنى لآليات الانتـاج الصناعى . وقد كان لهذه التجارب الفرصـة للنمـو ، لانهـا لم تمثـل تهديـدا للنمـوذج الغربـى ، ولانها كانت جزءا مـن أليـات الحـرب البـاردة ، كحليـف اسـيوى لامريكـا ، يهـدد روسـيا . وكذلك لان الخوف الغربى من النموذج الاسيوى ، لم يكن مثل خوفهـم مـن النمـوذج العربـى الاسلامى ، الذى يمثل فى الذاكرة تهديدا للغـرب منـذ الفتوحـات الاسـلامية فـى اراضـى اسـيا واوربا . ومازال الغرب على موقفة من الحذر الشديد تجاه النموذج العربى الاسلامى .

لكن تجربة " النمور " تحمل جوانباً هامة جدا ، فالتقدم جاء على يد شعوب حافظت علـى تراثها وحضارتها وهويتها . ولكن " التقـدم " نفسـه أصبـح بابـا يـؤدى الى تحطيـم تلـك القـوة الداخلية ، كما انه لم يكن نهضة شاملة لقوى الحضارة . وفى نفس الوقت فإن الغـرب لايبـدى ارتياحاً ، تجاه دخـول هـذه النمـور الى السـوق العـالمى ، مـع احتفاظهـا بحضارتهـا ، ومعاداتهـا للنموذج الغربى . وشعوب هذه الدول ، تستسـلم حينـا للنمـوذج الغربـى ، أو تستسـلم فئـات منها، أما الاغلبية فمازالت تحلم بنهضة حضارتها ، واستمرار قيمها ، وجعل التقـدم الصنـاعى ، مجرد وسيلة انتاجية ، وسلاح فى الحرب مع القوة العظمى .

والامر على مايبدو ، ينذر بصراع حضارى شديد ، داخل هذه النمور نفسها ، وبينها وبين الغرب . لذلك فإن تجربة النمور ، لم تعد صالحة لنا ، بمعنى ان امتلاك اداة الانتاج الاقتصادى ، وبالتالى امتلاك السلاح الاقتصادى ، ليس متاحا لنا ، بعد ترهل أوضاعنـا الحضاريـة ، وبسـبب اهتمام الغرب باعادة تنميط النموذج العربى الاسلامى داخل النموذج الغربى .

المستقبل ...

أتصور أن سلاح المستقبل ، ليس الاقتصاد ، بل هو الحضارة ، وهو القيم . فالحضارة الغربية الان تفتقد للمعنى ، والانسان الاقتصادى تحول الى آلـه تحطم الطبيعة والانسان معا . ولهذا فإن تدهور القيم الحادث على مستوى العالم المنمط ، أصبح يهدد حياة البشر أنفسهم ، ويهدد حتى الدول الغربية نفسها .

لهذا فإن عصر السلاح انتهى ، وعهد الاقتصاد يوشك على الانتهاء ، لندخل فى مرحلة الصعود الحضارى ، الذى يجب أن نكون أحد رموزه ، ومن رواده . والمستقبل يحمل لنا ، أما انتصار الحضارة الغربية ، واقامة الكونية الغربية ، وتنميط العالم ، وتطهيره من النماذج الحضارية الاخرى ، أو يحمل لنا ، قيام الحضارات وصعودها ، والذى قد يدفع نحو الصراع الحضارى ، أو التعدد التعاونى الحضارى .

واذا انتصر النموذج الغربى ، فلن يكون نموذجا أحادى القطب ، أى بقيادة امريكا فقط ، بل سيكون متعدد الاقطاب (أمريكا ، أوربا بزعامة ألمانيا ، النمور بزعامة اليابان ، والصين ، وربما أوربا الشرقية بزعامة روسيا) . وسيتحقق ذلك اذا تم تنميط العالم تماما ، خاصة أسيا النموذج الحضارى الفتى الذى يخوض معركته الان .

أين نحن ...

ذلك هو رهان المستقبل ، فهل نكون قوة داخل النموذج الغربى الكونى ، أم قوة حضارية داخل نموذج التعدد الحضارى الكونى ؟ أم سنظل فى عهود الظلام ، حتى مطلع مفترق طرق جديدة ؟ بإختصار ؛ هل ستكون نهضتنا فى المرحلة التاريخية القادمة للبشرية ، أم علينا انتظار مرحلة تالية لها ؟

السؤال اذن عن دورنا فى المستقبل ، وعن اختيارنا ، فهل سنكافح داخل النموذج الغربى، على أمل أن يكون الحل ،ونجد فيه مستقبل الامة العربية ؟! لااتصور أن هذا هو الاختيار ، فالنموذج الغربى نفسه قد لا يعيش طويلا ، والدخول فيه ، يؤدى الى زيادة التابعين، فالقيادة فيه غربية ، هى قيادة للدول التى لها حق ابداع النموذج .

أما نحن فعلينا أن نختار بين النهضة أو التحول الى مجرد كم من البشر ، تتحكم فيهم أليـات السوق الموجهه من الغرب ، و المنظمة فى منطقتنا على يـد اسـرائيل . فربمـا يكـون اليـوم ، هـو اللحظة المناسبة لنعيد تقييم واقعنـا ، كـى نبـدأ كفاحـاً حقيقيـاً مـن أجـل نهضـة أمـة العـرب . فليحكم المستقبل تصوراتنا وكفاحنا ، قبل أن يحاكمنا المستقبل ، ويحكم علينا بالفشل .

الهوامش

المقدمة

(١) حول الصراع بين الاجيال ، يمكن الرجوع الى تجربة ذاتية للكاتب ، تعد نموذجا للصراع بين احلام الجيل الجديد وهمومه ، وبين المؤسسات التى تمثل الجيل الحاكم ، وتحاول الحفاظ على الوضع الراهن ، ايا كانت عيوبه . (رفيق حبيب . إغتيال جيل : الكنيسة وعودة محاكم التفتيش " تجربة ذاتيه ". القاهرة: يافا للدراسات والابحاث١٩٩٢)

(٢) قدم جمال حمدان جهد أصيل ، فى دراسة شخصية المجتمع المصرى ، من خلال تفاعل الزمن (التاريخ) مع المكان (الجغرافيا) ، محددا بذلك الاطار الحاكم لنشوء المجتمع وتطوره ، والعناصر الاساسية التى تصنع المستقبل . وبذلك حدد الأساس الموضوعى للحضارة ، فى مواجهة الحضارات الاخرى ، وحدد ايضا المساحة التى نتحرك فيها كأمة ، والعناصر التى تحقق لنا النهضة (جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان . ٤ أجزاء . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٠ - ١٩٨٤) .

المشهد الاول

(١) نعنى باللحظة التاريخية ، الفترة بين سيادة " قالب " وظهور " قالب " جديد ، أى مرحلة التغيرالحضارى. وهى تلك الفترات التى تنقضى بين انتهاء حالة ، وقيام حالة أخرى ، وتشهد هذه الفترات ، الثورات والنهضات الفكرية والعلمية والاجتماعية والسياسية . وعن مفهوم التغير الثورى فى العلم كنموذج أنظر (توماس كون . بنية الثورات العلمية . الكويت : عالم المعرفة ١٩٩٢)

(٢) يمكن أن نلمح الصعود العربى ، منذ القرن التاسع تقريبا ، كبداية للحضارة العربية ، والتى استمرت حتى نهاية الحملات الصليبية . فكانت الحروب الصليبية هى بداية نهاية الصعود العربى ، وبداية الصعود الغربى الحديث ، وذلك فى القرن السادس عشر ، الذى شهد بدايات الحضارة الغربية ، والتى تعلمت من الحضارة العربية الاسلامية ، وشهد كذلك دخول العرب فى عصر الانغلاق والتأخر ، والذى استمر حتى صدمة الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ،وبعدها بدأ عصر الصراع مع الغرب ، واشكالية التأخر العربى . انظر عن فترة البداية / النهاية (عزيز سوريال عطية . الحروب الصليبية : وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٩٠) .

(٣) حول أحد الرؤى عن اشكاليات الفكر العربى فى علاقته مع التحدى الغربى انظر (محمد عابد الجابرى . اشكاليات الفكر العربى المعاصر . بيروت : مركزدراسات الوحدة العربية ١٩٨٩) .

(٤) نستخدم كلمة حضارة بديلا عن كلمة ثقافة ، بإعتبارها تعبيرا أكثر شمولالمجمل العناصر المميزة للمجتمع . أى بإعتبارها الاطار الشامل للقيم والمبادئ والافكار ، وللعادات والتقاليد ، ونظم العلاقات ، ومفاهيم التصنيف ، ونعتبر القيم بمثابة جوهر الحضارة .

(٥) حول الانقطاع الحضارى، وتحديث النظم على النمط الغربى، واقامة دول عربية على نموذج النظام الغربى السياسى،أنظر:(طارق البشرى. منهج النظر فىالسياسية

المعاصرة لبلدان العالم الاسلامى.مالطة: مركز دراسات العالم الاسلامى١٩٩١).

(٦) حول خطة الاصلاح الاقتصادى ، والمعروفة ببرنامج صندوق النقد الدولى للتثبيت والتكيف الاقتصادى ، وأثرها على المجتمع ، أنظر : (رمزى زكى . الليبرالية المستبدة . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٣) .

(٧) تعد المؤشرات العلمية ، خاصة الاقتصادية ، من أخطر المفاهيم التى تؤثر على مستقبلنا ، حيث يفترض فيها انها مؤشرات عالمية وموضوعية معا . والحقيقة انها مؤشرات تدل على نموذج واحد ، والتقدم فيها يعنى التقدم فى تطبيق هذا النموذج ، وهو النموذج الرأسمالى الغربى ، ولا يعنى ذلك تحقيق " تقدم " المجتمع أو الامة ، بمعايير المجتمع نفسه .

(٨) يمكن للمتابع لمقالات السيد ياسين فى الاهرام تحت اوراق ثقافية (ديسمبر ١٩٩٣ ويناير ١٩٩٤) أن يلاحظ تلك الاشكالية ، بين واقع هيمنة يرفض ضمنا ، وواقع معايشة الواقع ، والخروج للمستقبل وفيه تقبل الهيمنة ضمنا ، وكذلك يلاحظ اشكالية رفض الهيمنة مع ما قد يؤدى له ذلك من انتصار للتيار الاسلامى ، وبذلك يأتى قبول الهيمنة كأنه قبول للعصر ، وفيه ايضا رفض للتيار الاسلامى .

(٩) يلاحظ ذلك مثلا ، فى مشكلة الديمقراطية وعلاقتها بالفكر الاسلامى ، فنجد فهمى هويدى يقدم دراسة عن تلك العلاقة مؤكدا أن الاسلام والديمقراطية يجتمعان ، ولابد لهما من ذلك . وهنا تظهر اشكالية عدم القدرة على رفض المفهوم " الغربى " وتقديم مفهوم أخر قد يحمل بعض ملامح الاول ، ولكن من خلال تحقيق القيم فى صورتها الاصيلة . أى أن المشكلة هنا أن رفض المفهوم الغربى ، لايعنى الا التخلف والتأخر ، ومن ثم رفض المجتمع للمفكر نفسه ، وللفكرة برمتها ، بعد أن أصبح المعيار الغربى ، معيارا عالميا فى نظر بعض فئات النخبة فى المجتمع (فهمى هويدى . الاسلام والديمقراطية . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٣) .

(١٠) انظر على سبيل المثال ، كتابات حازم الببلاوى . الذى يعد أحد أهم منظرى الحقبة الليبرالية الموعودة ، تجد فيها تبشيرا بالليبرالية ، والنموذج الغربى . ولكن ليس من موقع من يمثل المنظر الفكرى للنظام الحاكم ، ولكن من موقع من يضع تصوره ، ويقيس مدى ملاءمة النظام معه ، ومدى بعده عنه . وهكذا تبقى مساحة فاصلة ، تجعل النجاح فى صف النظرية ، والفشل من نصيب النظام . أنظر مثلا (حازم الببلاوى . التغير من أجل الاستقرار . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٢) .

(١١) حول الدور السياسى للجماعات الهامشية انظر (محمد نور فرحات . المجتمع والشريعة والقانون . القاهرة . كتاب الهلال ،١٩٨٦) .

(١٢) يقدم جلال أمين رؤية جديدة لامكانية الابداع الحضارى والتقدم ، من خلال تأثر ذلك بصعود طبقات جديدة ، وتزايد معدل الحراك الاجتماعى الاقتصادى . وهى فكرة أساسية فى التصور الذى تطرحه صفحات هذا الكتاب ، انظر (جلال أمين نحو تفسير جديد لازمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر . القاهرة : مدبولى ١٩٨٩) .

(١٣) تحتل " الكلمة " و " المفهوم " أهمية متزايدة فى الدراسات المعاصرة . بإعتبارها وسيلة لفهم الحالة الراهنة والسياسات السائدة . أنظر على سبيل المثال (ناعوم شومكى . الارهاب الدولى : الاسطورة والواقع . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٠)

(١٤) انظر (فهمى هويدى ، الاسلام والديمقراطية . مرجع سبق ذكره)

(١٥) تأمل نموذج الزعيم الشعبى ، المتميز بالشهامة والرجولة والشجاعة . والذى جسده

عادل إمام فى العديد من الافلام ، وكيف يلقى هذا النموذج اقبالا جماهيريا واسعا (فيلم المنسى على سبيل المثال) .

(١٦) انظر : (توماس كون . بنية الثورة العلمية ، مرجع سبق ذكره) .

(١٧) انظر على سبيل المثال ، دراسة هامة لعلم النفس ، توضح كيف انه علم لاتاريخى اولا اجتماعى ، وانه يهدف فى النهاية الى تأصيل الرأسمالية الفردية (Sarason , S.B. Psychology misdirected . New York : The Free press , 1981)

(١٨) انظر بعض محاولات اكتشاف العلم العربى، فى حالة علم الاجتماع (نحو علم اجتماع عربى : علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية . ١٩٨٦) .

(١٩) يعد كتاب تغريب العالم لسيرج لاتوش من الاعمال الهامة الكلاسيكية فى هذا الموضوع (القاهرة : دار العالم الثالث . ١٩٩٢) .

(٢٠) انظر كتابنا حول الاحتجاج الدينى والصراع الطبقى . وفيه نموذج لفكرة تسيد نمط الصراع والطبقات على العالم المعاصر ، وما أدى له من دخول فى عصر الاحياء الدينى العالمى . كذلك فيه بعض ملامح خصوصية الحالة المصرية . ولكن الرؤية التى يقدمها الكتاب ، تفتقر الى دراسة وجود نمط حضارى داخلى ، يفرض عليه نمط حضارى خارجى ، ومايؤدى له ذلك من أشكال تعبر عن صدام النمطين معا ، وما يعنيه ذلك من وجود تنميط للمجتمع المصرى، له بعض الافرازات الخاصة به. والتى تتداخل مع افرازات رفض عمليه التنميط نفسها (رفيق حبيب . الاحتجاج الدينى والصراع الطبقى فى مصر . القاهرة : سينا للنشر : ١٩٩٠)

(٢١) تمثل اليابان حالة تنافس الغرب ، وتتبعه فى أن واحد . ومازال المستقبل مجهولا بالنسبة لليابان ، التى قد تمثل نموذجا كاملا ، ينافس ويصارع النموذج الغربى ، وقد تنجرف بالكامل لعمليه التنميط الغربى .

المشهد الثانى

(١) عن دورة الحضارة عبر تاريخ البشرية انظر العمل الرائع لجمال حمدان (استراتيجية الاستعمار والتحرير . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣) .

(٢) انظر(جلال أمين، نحو تفسير جديد لازمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر،مرجع سبق ذكره) .

(٣) يضع الفن توفلر تصوره عن المستقبل ، باعتباره مرحلة حضارية عالمية جديدة ، ويتجاهل بذلك أن قيام حضارة جديدة ، يعنى سقوط الحضارة الحالية ، وان الحضارة الجديدة ليست مجرد حاصل جمع متطور للحضارة السابقة عليها ، وان تاريخ البشرية ليس جبريا . بقدر ماهو تفاعل دينامى متغير، لايسير فى خط مستقيم ،بل فى دوائر (Toffler , A . Power Shift . New York : Bantam , 1990) .

(٤) عن القومية الاقتصادية انظر (سيرج لاتوش، تغريب العالم، مرجع سبق ذكره).

(٥) عن فكرة المركز والاطراف لسمير أمين ، انظرترجمة للفكرة على الواقع العربى (سمير أمين . أزمة المجتمع العربى , القاهرة : دار المستقبل العربى ١٩٨٥) .

(٦) حول احد نماذج العنصرية ، والتى ظهرت فى دراسات تؤكد تخلف ذكاء الشعوب ، فى مقابل تفوق ذكاء الرجل الابيض انظر : (Evanes , B.,R Waites , B. IQ

and mental testing . London : Macmillan , 1981) .

(٧) انظر : فؤاد مرسى . الرأسمالية تجدد نفسها . الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٩٠) ، وفيه دراسة شاملة لعملية تدويل الرأسمالية ، ودخولها فى مرحلة جديدة ، تلك المرحلة التى نتصور انها بداية تدويل نمط الحياة الغربى ، وبداية التطهير الحضارى .

(٨) انظر :(فهمى هويدى. فرنسا تشكو من الهيمنة الثقافية. الاهرام، ١٩٩٣/١١/٢٣) .

(٩) انظر :(فرانسيس فوكوياما. نهاية التاريخ وخاتم البشر. القاهرة :الاهرام، ١٩٩٣) .

(١٠) ان الحركات العنصرية والنازية الجديدة ،هى تعبير واضح على رفض الاممية الغربية ، وتمرد على تدويل النظام الراسمالى ، وعودة للقومية الاقتصادية ذات الحدود المميزة بالحماية الجمركية، وضد تحرير التجارة بالتالى . وهى حركات تخرج من الغرب نفسه ، وتعبر عن أزمة حضارته، وربما سقوط هذه الحضارة .

(١١) من نماذج الحوار بين الاديان ، والخصوصية الحضارية ، كمفاهيم يروج لها مجلس الكنائس العالمى ، كما سنرى فى المشهد السابع من هذا الكتاب . والفكرة فى مجملها تقبل وجود القيم الانسانية ، وهى قيم الحضارة الغربية ، فى اثواب واشكال متعددة .

(١٢) عن دورة حياة الشعوب زمنيا انظر : (جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، مرجع سبق ذكره) .

(١٣) انظر جمال حمدان (المرجع السابق) وايضا (شخصية مصر، مرجع سبق ذكره) .

(١٤) فى النموذج الاسيوى للتنمية الاقتصادية ، سنجد تفاعل عنصر التغريب ، مع عنصر التمسك بالذات الحضارية ، ولعل الاخير هو احد مكونات تقدم هذه الدول ، ولكن دخولها فى التدويل الرأسمالى ، يفتح حدودها ، لتنميط حضارتها وقيمها على النمط الغربى . وذلك الصراع سوف يكون له أهمية فى المستقبل ، فقد يعنى هزيمة هذه الدول حضاريا، أو ظهور نموذج حضارى جديد .

(١٥) حول التماثل بين الشيوعية والرأسمالية كنموذج للحياة انظر (Mendoza , M.G.,& Napoli , V. Systems of society : An introduction to social science . Lexington : Heath , 1986) .

(١٦) انظر (عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية ، مرجع سبق ذكره) .

(١٧) عن الازدواجية فى مواجهة الغرب انظر (محمد عابد الجابرى ، اشكاليات الفكر العربى المعاصر ، مرجع سبق ذكره) .

(١٨) عن التنميط الموحد كسمه للحضارة الغربية انظر (راجى عنايت . العالم سنة ٢٠٠٠ : مستقبل جديد للبشر . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٧ / ط٢) وفيه ترجمة لافكار الفن توفلر ، وعرض لفكرة أن الغرب يخرج الان لحضارة جديدة ، ستكون حضارة للعالم . ونتصور أن التغير فى التنميط مثلا ، هو انتقال من التنميط المهنى ، الى تنميط الحياة وقيمها. وهى المرحلة النهائية للحضارة الغربية ، وليست حضارة جديدة ، كما نعتقد.

(١٩) انظر (الفن توفلر ، تغير القوة ، مرجع سبق ذكره) .

(٢٠) نتصور أن من اسباب سقوط الشيوعية . عدم قدرتها على تحقيق الحلم الغربى ، وسقوطها فى المنافسة ، من أجل الرفاهية والتسليح ، وكذلك الحرية الفردية باعتبارها أحد عناصر الاستهلاك من أجل الرفاهية غير المحدودة .

المشهد الثالث

(١) (جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، مرجع سبق ذكره) .
(٢) عن تجربة محمد على ، وعملية النقل للمهارة الفنية فقط، بدون النظم نفسها انظر(طارق البشرى . مستقبل الحوار الاسلامى العلمانى. منبر الحوار،٢٠،١٩٩١،٧ - ٤٨).
(٣) يمكنا ان ندرك هنا اشكالية المؤسسة ،التى ترى فى صفوة الجماهير ، ونخبها ، منافس قوى لها ، دون أن تدرك معنى زعامة الامة ، والتحالف مع نخبة الامة ، وما يعنيه ذلك من قوة وقدرات تعبوية قوية . كذلك ، فإن تلاحم المؤسسة مع الامة ، يقوم للنهضة ، ويجعل المؤسسة ممثلا عن الامة ، وتصبح قوتها بحجم قوة الجماهير نفسها. ولكن عندما تقيم المؤسسة حاجزا بينها وبين نخبة الامة ، والامة نفسها ، تؤدى بذلك الى اضاعة فرص النهضة ، وتبقى المؤسسة فى المعركة ، حتى تنالها الهزيمة .
وحول موقف محمد على من النخبة المصرية (البرجوازية المصرية) انظر : (سمير امين . أزمة المجتمع العربى . القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥) .
(٤) لايمكن ان نغفل أن محمد على ، حول الازهر ، صاحب التاريخ الطويل فى الكفاح ، والذى كان له دور فى وصول محمد على للسلطة ، حوله الى مؤسسة تتبع الدولة ، بدلا من أن يكون مؤسسة تتزعم الجماهير . وبذلك " أمم " حركة الجماهير لتأمين وجوده فى السلطة ، واختزال واقع الامة ، الى العلاقة الفاترة بين المؤسسة والشعب ، وهى تلك الحالة التى استمرت بعد ذلك ، وحتى الان .
(٥) ان هذه الفترة شهدت تحديثا ، ونموا لطبقات المجتمع المصرى ، وصعودا لصفوة مصرية ، وكلها علامات يمكن ان ندركها بشكل ايجابى ، باعتبارها مكونات للنهضة ، انظر : (انور عبد الملك . نهضة مصر . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٣) . ولكن من منظور اخر ، علينا ان نعى من التاريخ ، ان حركة المجتمع وحراكة ، نحو التقدم والتحديث ، ارتبطا بالغرب وفكره ، يخلق فى النهاية حالة الاستعداد للاستعمار أو الهيمنة ، وأن المجتمع كان مدخلا فى مراحل تاريخية كثيرة ، لفرض الهيمنة الغربية ، والفكرة الغربية .
(٦) عن ارتباط مصر بالفكرة الاسلامية، وعدم ظهور الفكرة العربية الا مع عهد عبد الناصر انظر:(مصطفى الفقى. تجديد الفكر القومى. القاهرة : دار الشروق،١٩٩٤) .
(٧) انظر : (رفيق جبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية . رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة عين شمس كلية الاداب ، ١٩٨٨) .
(٨) انظر : (مصطفى الفقى . تجديد الفكر القومى ، مرجع سبق ذكره) .
(٩) انظر (عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتورا ؟ بيروت : دار المسيرة ، ١٩٨٣) .
(١٠) انظر المرجع السابق .
(١١) حول دور المؤسسة والشعب فى الثورات انظر (طارق البشرى ، الحوار الاسلامى العلمانى ، مرجع سبق ذكره) .
(١٢) عن طبيعة حركة يوليو انظر : (طارق البشرى . الديمقراطية وثورة ٢٣ يوليو . بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨٧) .
(١٣) حول التنمية المستقلة انظر مجموعة الدراسات القيمة فى (التنمية المستقلة فى الوطن العربى . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية . ١٩٨٧) .
(١٤) حول تجربة عبد الناصر ، ونشوء القومية العربية انظر (Amin , S. The Arab

. (nation . London : Zed , 1978

المشهد الرابع

(١) انظر : (محمد حسنين هيكل . خريف الغضب . بيروت : شركة المطبوعات للنوزيع والنشر ١٩٨٥) .
(٢) عن العلاقة بين مبادرة السلام وانتفاضة ١٩٧٧ انظر : (مصطفى الفقى . الاسلام فى عالم متغير . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .
(٣) ظهرت أزمة الشعوربأكتوبر والسلام والسادات فى كتابات يوسف ادريس ومحمد حسنين هيكل وغيرهم . انظر : (اسماعيل فهمى . التفاوض من أجل السلام . القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٥) و(محمد ابراهيم كامل . السلام الضائع فى كامب ديفيد . القاهرة : كتاب الاهالى ١٩٨٧) .
(٤) انظر :(جلال أمين . الدولة الرخوة فى مصر . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٣) .
(٥) يلاحظ أن فكرة تنميط العالم ، ونشر الحضارة الغربية ، يعبر عنها الجناح الليبرالى المعتدل فى الغرب، وهو حتى الان الجناح الحاكم . أما جناح اليمين المتطرف النازى، فيرى ان الليبرالية والديمقراطية ، ليست الامنجزات غربية ، لايملكها ، ولن يطبقها ، الاالغرب ، وبقية العالم ، ليسوا الا برابرة همجيين يجب على الغرب ان يحمى نفسه منهم . انظر (حازم الببلاوى . عن الديمقراطية الليبرالية . قضايا ومشاكل . القاهرة : دار الشروق ١٩٩٣) .
(٦) يلاحظ ان الغرب ينظر للحضارات الاخرى ، نظرة السائح الذى يستمتع بمشاهدة أطلال الماضى ، فالحضارات الاخرى بالنسبة للغرب ، هى " ماضى " البشرية .
(٧) عن المظلة العربية للتحالف انظر " (محمد حسنين هيكل . حرب الخليج : أوهام القوة والنصر . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩) .
(٨) انظر : (البنك الدولى . تقرير عن التنمية فى العالم ١٩٩٣ . الاهرام ، ١٩٩٣) .
(٩) صاحب هذا التعبير فهمى هويدى. واستخدمه لوصف القضية الفلسطينية بعد اتفاق غزة اريحا ، ومقارنة ماحدث ، بالتاريخ ، فالقضية تحولت فى هذا الاتفاق الى صفقة .

المشهد الخامس

(١) عن الفئات الرأسمالية المرتبطة بالغرب انظر : (سمير أمين ، الامة العربية ، مرجع سبق ذكره) .
(٢) قامت عناصر اليساريين ، والقوميين ، والناصريين ، والاسلاميين ، وغيرهم ، بأدوار طليعية هامة فى المجتمع المصرى والعربى . ولكن حديثنا ينصب هنا على ظهور فئة ، تمثل نخبة تقود الامة بأسرها فى حركة نهضة .
(٣) ان تلك المرحلة (النصف الاول من القرن العشرين) تعد مرحلة لها بريقها ، وهى مرحلة لازمة فى التاريخ ، ولازمة للنهضة ، ولكن لايمكن اعادتها ، أو الاستمرار فيها، بل علينا تجاوزها .
(٤) حول اختراق المجتمع العلمى انظر :(رفعت سيد احمد . وصف مصر بالعبرى . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٨٩) و(رفعت سيد أحمد . علماء وجواسيس . لندن : رياض الريس ، ١٩٩٠) .

(٥) تعبير التراجع لاسفل استخدمه جمال حمدان فى شخصية مصر (مرجع سبق ذكره) واعاد استخدامه محمد حسنين هيكل فى (أكتوبر : السلاح والسياسة . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٤) .
(٦) انظر : (جلال امين ، نحو تفسير جديد ، مرجع سبق ذكره) .
(٧) انظر : (التقرير الاستراتيجى العربى . القاهرة : الاهرام ١٩٩١) .
(٨) يمكن للقارئ الرجوع الى كتابات حازم الببلاوى ، وسعيد النجار ، ومحمود وهبة ، باعتبارهم نماذج لعملية التنظير للتحول الليبرالى . وكذلك يمكن الرجوع لرد جلال امين على سعيد النجار (العربى ، ١٩٩٤/١/٣) بوصفه محاولة من الطليعة اليسارية الناصرية ، لصد عملية التحول الغربى .
(٩) فى حديث تليفزيونى قبل انتخابات الفترة الثالثة ، عبر حسنى مبارك عن رفضه للديمقراطية التى تسمح بتدخل اصحاب المصالح والنفوذ ، والتحالفات العابرة للحدود ، لشراء الاصوات ، والفوز بمن يمثلهم فى كرسى الحكم . وهو رفض يعبر عن شكوك المؤسسة الحاكمة فى الديمقراطية الليبرالية ، بمعناها الغربى الحقيقى ، ومصير هذه المؤسسة فى حالة التطبيق الفعلى لهذا النظام الغربى . وهنا تأخذ المؤسسة ، ورئيسها موقف المدافع عن الصالح الوطنى ، تجاه الاطماع الخارجية ، رغم ان المؤسسة نفسها تمرر مصالح الغرب . وفىذلك تصور، ان المؤسسة، أو الجهاز الادارى ، هى القادرة على تنظيم تلك العلاقة ، بين الوطن والغرب ، فى حدود مرسومة ، أما الجماعات الاخرى ، فانها ستفتح الباب امام سيطرة الغرب . وهنا تبدو المؤسسة مع التحديث ، ولكنها ضد جزء هام من المنظومة القيمية الغربية .
(١٠) يلاحظ أن عاطف صدقى درس النموذج الاشتراكى فى الجامعة ، وطبق النموذج الرأسمالى فى الحكم . وهذا الانتقال السهل بين النماذج يؤكد ان جوهر حركة النخبة (الخبراء) ، هو تحقيق التحديث أو التنمية ، بغض النظر عن النموذج اشتراكى ام رأسمالى . ويتضح من دور عاطف صدقى وجماعته ، أن روح الاستقلال ، كقضية وطنية ، لم تعد الحافز الاساسى ، امام الخبراء ، الذين تعلموا فى الغرب ، ويطبقوا نموذجه الان فى مصر .
(١١) يلاحظ أن التغريب فى حالة ضعف الدولة يأخذ طريقه عن طريق المجتمع نفسه ، كما فى عهد الخديوى اسماعيل ، والذى اسلم مصر للاحتلال ، وكذلك فى النصف الاول من القرن العشرين ، وانتهى الامر بثورة ١٩٥٢ ، فكيف سينتهى بنا الامر هذه المرة ، هل بالاحتلال المعنوى الشامل ، أم بالثورة ؟!

المشهد السادس

(١) انظر : (تطور الفكر القومى العربى بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦) وكذلك (مصطفى الفقى ، تحديد الفكر القومى . مرجع سبق ذكره) .
(٢) حول اشكالية العلاقة بين العروبة والاسلام انظر:(عصمت سيف الدولة عن العروبة والاسلام . القاهرة : مركز دراسات الوحدة العربية ودار المستقبل العربى، ١٩٨٦) وكذلك (القومية العربية والاسلام . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨١) .
(٣) عن التلاحم بين العروبة والاسلام انظر : (أنور عبد الملك . ريح الشرق . القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٣) .

(٤) انظر :(أديب نجيب سلامة . الانجيليون والعمل القومى . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٩٣) .
(٥) (مصطفى الفقى ، مرجع سبق ذكره) .
(٦) انظر :(رفيق حبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية ، مرجع سبق ذكره) .
(٧) نتصور ان من الاطروحات العلمانية ، التى تنبع من الحضارة العربية الاسلامية ، دون الحضارة الغربية ، مؤكدة ذاتنا الحضارية ، كتابات جلال أمين ، وجمال حمدان وحامد عمار ، ومصطفى الفقى ، وغيرهم كثير اذا تكلمنا عن الكتاب العرب ايضا .
(٨) حول المدرسة الرومانية الشرقية والغربية ، ومقارنتها بالشرق الاسلامى انظر : (برتران بادى . الدولتان : السلطة والمجتمع فى الغرب وفى بلاد الاسلام . القاهرة : دار الفكر ، ١٩٩٣) .
(٩) حول المدارس المسيحية حتى المجتمع الخلقدونى انظر : (Gonzalez J.L.A history of christian thought.vol.i.Nashvill:Abingdon, 1970).
وايضا (حنا جرجس الخضرى . تاريخ الفكر المسيحى . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨١ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩١ {ثلاثة أجزاء}).
(١٠) (رفيق حبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية ، مرجع سبق ذكره) .
(١١) حول نشأة الكنيسة الارثوذكسية ، بكيانها البيزنطى ، وظهور اجتهادات واسهامات قبطية محلية انظر :(رفيق حبيب ومحمد عفيفى . تاريخ الكنيسة المصرية . القاهرة : الدار العربية ، ١٩٩٤) .
(١٢) انظر : (أنور عبد الملك ، ريح الشرق ، مرجع سبق ذكره) .
(١٣) انظر :(ميخائيل شاروبيم . الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (جـ٤) . القاهرة: المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٩١٠) وكذلك (صموئيل تاوضروس {القمص} . باباوات الكرسى الاسكندرى ١٨٠٩- ١٩٧١ . القاهرة " بدون ناشر ، ١٩٧٧) وايضا (جرجس فيلوثاوس عوض . حياة بعد موت . القاهرة : مطابع التوفيق ١٩١١) و (زاهر رياض . قداسة البابا كيرلس الرابع . مجلة مدارس الاحد ، ٢، ١٩٦١) . ويلاحظ أن البابا كيرلس الرابع كان منفتحا على الاحتكاك بالاخرين ، وعلى الافكار الجديدة ، وهذا غير ان نصفه بالعمالة ، فهذا تجاوز لحقائق التاريخ ، رغم الغموض حوله ، وحول موته . لذلك فهو نموذج للتحديث والانفتاح على الاداء المعاصره ، وهو ماظهر فى اهتمامه بالتعليم ، واهتمامة بتعليم البنات ، وتعليم اللغة الاجنبية ، كذلك تواكب ذلك مع اهتمامه بتعليم اللغة القبطية فى محاولة للحفاظ على حدود " الذات " ، حسب تصورنا .
(١٤) مثل نموذج حبيب باشا المصرى انظر : (رفيق حبيب . الاحياء الدينى : ملف اجتماعى للتيارات المسيحية والاسلامية فى مصر . القاهرة : الدارالعربية: ١٩٩١) .
(١٥) عن حبيب جرجس انظر : (رفيق حبيب ، الاحتجاج الدينى والصراع الطبقى) وكذلك (الاحياء الدينى . سبق ذكرهما).
(١٦) (رفيق حبيب ، الاحياء الدينى ، سبق ذكره) .
(١٧) المرجع السابق .
(١٨) عن القمص ابراهيم لوقا انظر : (المرجع السابق) .
(١٩) انظر (حبيب وعفيفى ، تاريخ الكنيسة المصرية ، مرجع سبق ذكره) .

(٢٠) بدأ التبشير البروتستانتى فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان التبشير الكاثوليكى قد بدأ منذ بداية القرن التاسع عشر ، وفى اعقاب الحملة الفرنسية .
(٢١) انظر (المرجع السابق) .
(٢٢) انظر (رفيق حبيب ، الاحياء الدينى ، مرجع سبق ذكره)
(٢٣) لم تستطع الكنيسة البروتستانتية فى مصر ، " ابداع " فكر لاهوتى يعبر عنها ، أى لم تقدم فكر " مصرى " ، بل ظلت مرتبطة بالميراث اللاهوتى الغربى ، حتى التيار المحافظ ، لم يقدم فكرا ، بل قدم ممارسات ، تتعارض مع الحرية الغربية المعاصرة ، مثلما تعارض هذه الحرية العديد من التيارات المسيحية فىالغرب ، فأصبح فى النهاية أسير الميراث الغربى المحافظ .
(٢٤) انظر (حبيب وعفيفى ، تاريخ الكنيسة المصرية ، مرجع سبق ذكره) .

المشهد السابع

(١) فى كواليس مجلس الكنائس العالمى ، تسمع أحاديث حول دور الامين العام للمجلس فى ذلك الوقت للتوسط لدى السادات ، عن طريق احد الرؤساء الغربيين ، حتى لاتتفاقم أزمة البابا شنودة ، ولاتصل لحد المحاكمة .
(٢) من اوراق غير منشورة لمرسلين عملوا فى الكنيسة الارثوذكسية فى مصر .
(٣) من أوراق " المائدة المستديرة " الخاصة بجلسات المشاورات بين مجلس الكنائس العالمى والممولين الغربيين ، وبين اسقفية الخدمات بالكنيسة الارثوذكسية ، وفيها نمط فكرى تنموى ، على المحكات العالمية (الغربية) .
(٤) أوراق غير منشورة ، وتوجد لدى المؤلف .
(٥) حول إختراق الاصولية المسيحية للكنيسة الأرثوذكسية انظر :(Jahnstone, P . (Operation World. England : STL, 1986
(٦) انظر :(رفيق حبيب . المسيحية والحرب : قصة الاصولية الصهيونية الامريكية والصراع على الشرق الاسلامى . القاهرة : يافا ، ١٩٩١) .
(٧) (المرجع السابق) .
(٨) حول تاريخ المجلس انظر :

Hooft, W.A.V. The gensis and formation of the world council of churches. Geneva : WCC, 1982.
Commemorating Amsterdam 1948 : 40 years of the world council of chuches. Ecumenical Review, 40 (4 -3) , 1988 .

(٩) انظر (رفيق حبيب ، المسيحية والحرب ، مرجع سبق ذكره).
(١٠) من ميزانية مجلس الكنائس العالمى ،وهى منشورة ومتداولة .
(١١) انظر هامش رقم (٨) .
(١٢) انظر عن المواقف السياسية للمجلس ، بيانات لجنة الكنيسة والشئون الدولية ، والتى تصدر فى مجلدات تحت اسم " The Churches in International Affairs " وتصدر عن مجلس الكنائس العالمى – جنيف – على سبيل المثال تقارير ١٩٧٠ – ١٩٧٣ ، طبعة ١٩٧٤ . وتقارير ١٩٧٩ – ١٩٨٢ ، طبعة ١٩٨٣ . وتقارير ١٩٨٣ – ١٩٨٦ ، وطبعة ١٩٨٧ .

(١٣) أنظر (Lefever. Nairobi to vanconver : The World council of churches and The World, 1975 - 87 . Washington D.C. : Ethics and Public Policy Center, 1987)

(١٤) انظر :

Stock, K.(Ed). Hope in the desert : The churches united response to human need, 1944 - 1984. Geneva : WCC, 1986.

Church and Society: Ecumenical prespectives. The Ecumenical Review, 37 (1) , 1985.

(١٥) انظر على سبيل المثال :

Samartha, S.J. Courage for dialogue. Geneva :wcc , 1981.

Christion - Muslim Dialogue. Geneva: wcc, 1973.

(١٦) انظر (Van der Bent, A.J. christian response in a world of crisis . (Geneva : wcc, 1986 .

(١٧) مقررات وبيانات الجمعية العمومية السابقة فى كانبرا بأستراليا / ١٩٩١.

(١٨) مجموعة بيانات المجلس حول الصراع الاسرائيلى - العربى ، أوراق عمل، ١٩٨٣.

(١٩) انظر :(Invasion of lebanon . Backgrovnd information , CCIA 1982\ 2 , Geneva : WCC, 1982).

(٢٠) انظر (مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الاديان . مجلس الكنائس العالمى : قسم الحوار مع الاديان الحية . بيروت : مجلس كنائس الشرق الاوسط ، ١٩٨٨) .

(٢١) انظر تقرير الدائرة المستديرة الصادر عن أسقفية الخدمات ، غير المنشور . وكذلك الخطاب الاخبارى الصادر عن مكتب الشرق الاوسط بمجلس الكنائس العالمى ، محدود التوزيع .

المشهد الثامن

(١) يعد كتاب زكى نجيب محمود " تجديد الفكر العربى " انطلاق حقيقية فى دراسة اشكالية الاصالة والمعاصرة . وهو فى نفس الوقت دليل على مأزق الازدواجية الثقافية، الذى لم نتخلص منه حتى الان .

رقم الإيداع : ١١٦٣٧ / ٩٤

الترقيم الدولى : I.S.BN. 977 - 5471 - 04 - 4